عظات وعبر في قصص الأنبياء

بقلم

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين







بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ١٣٨٥٥ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977-331-141-4

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون : ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة :

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

أما بعد :

فإن الله تعالى إنما قص علي نبيه ﷺ القصص تثبيتًا له وإعلامًا بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾[يوسف : ٣] .

وقال : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[هود : ١٢٠]

وقال : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾[طه : ٩٩] .

وقد أوضح سبحانه لنبيه ﷺ فى هذا القصص ،كيف أنه عوفي هو وأمته ﷺ من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء ، وخفف عنهم فى الشرائع ، ورفع عنهم الأثقال والأغلال التى كانت علي الأمم الماضية ، وأسبغ عليه وعلي أمته ـ نعمه ظاهرة وباطنة ـ وقد قص الله تعالى علينا القصص تأديبًا وتهذيبًا ، وذكر أنه ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم ، ثم ذكر فى غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الأعداء وحثهم علي صنع الأولياء ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾[يوسف : ٧] ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾.

[يوسف : ١١١] .

وفي القصص إحياء لذكر الأنبياء وآثارهم ، والناس أحاديث يقال ما مات ميت، والذكر يحييه ، وقالوا : ما أنفق الملوك والأغنياء والأموال علي المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر ، والأنبياء الذين ذكروا فى كتاب الله ليسوا جميع من ابتعثهم الله إلى الأمم ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨] ، وقال : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ ﴾

[النساء : ١٦٤] .

ولا نستطيع إثبات نبوة نبى من لدن آدم حتى عيسى عليه السلام إلا من خلال الإيمان برسولنا ﷺ ، ولذلك فالتكذيب برسول الله ﷺ تكذيب بجميع الأنبياء والمرسلين ،

والكُفر بنبى من الأنبياء المذكورين هو كفر بالله ورسوله .

ومن المعلوم أن البشرية بدأت بنبي مُكلم هو نبى الله آدم عليه السلام ، أي بدرجة من أعلى درجات الهداية ، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون على التوحيد الخالص، ثم ظهر الشرك فى قوم نوح﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح : ٢٣] ، وتتابع إرسال الرسل﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ،﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وقد ختمهم سبحانه بسيد الأولين والآخرين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورسالته هي أعظم وأكمل رسالة وشريعته هي المهيمنة على سائر الشرائع ، ولا نبي بعده ﷺ ، إذ أن عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان ـ وهو علامة من علامات الساعة العشر الكبرى ـ ينزل حاكمًا من حكام المسلمين ويحكم بشريعة الإسلام لا بشيء سواها .

وقد تكلمت فى هذا الكتاب وذكر بعض العظات والعبر والفوائد المأخوذة من قصص الأنبياء والمرسلين ، وحرصت على نسبة القول لقائلة ـ هذا من بركة العلم ـ وينبغي التنبيه هنا إلى أن الإسرائيليات ـ وهي أخبار أهل الكتاب ـ تُرفض وتُرد إذا خالفت الكتاب والسنَّة ، وتكون مقبولة إذا وافَقَتَ ذلك ، إما أن لم نعلم هل هي موافقة أو مخالفة فحينئذ تُذكر على سبيل الاستئناس والاستشهاد .

وإليك قصص بعض الأنبياء ، فما كان فيه من خير وصواب ، فالحمد لله والله الموفق ، وما توفيقي إلا بالله عليك توكلت وإليه أُنيب ، وما سوى ذلك فأنا راجع عنه ، وهو من نفسي ومن الشيطان والله منه برئ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



قصص الأنبياء عظات وعبر
قصة
نوح عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (سورة النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠ - ٧١).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

تعددت المواقف والاتجاهات وتباينت الأفكار طلبًا للإصلاح وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والدول واحتكر كل فريق لنفسه طريق الصواب وكأن النفع والخير لن يتحقق إلا بمسلكه وأسلوبه، فعلى مستوى الدول، نجد دولاً شيوعية وأخرى رأسمالية، وأنظمة ديمقراطية وأخرى ديكتاتوريه، وأحلافًا كحلف الأطلنطى وحلف وارسو، ومبادئ وشعارات ورايات مرفوعة هنا وهناك، بل قد صارت العلمانية اللادينية هي الراية المرفوعة على معظم البلدان الإسلامية!!.

فإذا نظرنـا إلى الطوائف والأحزاب والجمـاعات، لوجـدنا اختلافًـا لا يقل عن اختـلافات الدول فهـذا الحزب ليبـرالى وهذا اشتراكى، هـؤلاء يرون أن الوطنية هي السبيل وآخرون لا أفضل عندهم من القومية... بل وسعى فريق إلى إحياء الفرعونية والبابلية والآشورية...

وفي الساحة جماعات كثيرة، صوفية وشيعية وسنية. ودعوات تنتسب للإسلام، ولكنهـا اختلفت في رؤيتـها للإصلاح، وكـثيـر منها احتـكر الصواب لنفـسه واتهم الآخرين بالخطأ أو القصور.

فـمنهم: من يعـتقد أن طريق عـودة الإسلام لن يتم إلا بالمـشاركة في البـرلمانات والنقابات والاتحادات.

ومنهم: من يرى السبيل في إقامة الجمعيات الخيرية والمساهمة في أعمال البر.

ومنهم: من رأى ضرورة القيام بثورة شعبية لتغيير أنظمة الحكم.

ومنهم: من يعـتقـد أن التغـييـر لا يحـدث إلا عن طريق تقديم الحلول وعـلاج المشكلات التي يعاني منها الشـرق والغرب بالإقناع العقلي وإشاعة المفـاهيم الإسلامية وسط الناس.

ومنهم: من لم ير سبيلاً إلا الجهاد في سبيل الله.

ومنهم: أيضًا من رأي الخروج للدعوة والتبليغ هنا وهناك.

فإذا انتقلنا إلى الأفراد، وجـدنا أن معظم الناس قد صار أشبه بجـزيرة مستقلة، وكيـان قائم بذاته، فقد أدى البـعد عن دين الله وغربة الحال وانحـراف الأوضاع إلى تفاوت المفاهيم.

فالكثرة على دين ملوكهم، والطغيان المادى قد ران على العقول والقلوب إلا من رحم الله ونحن نرى هذا الحال لا يسعـنا إلا أن ندعو ربنا ونقول: «اللهم رب جبـرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

أي البشرية حاجتها شديدة لركـوب سفينة النجاة، واتباع طريق الأنبياء والمرسلين ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠).

والحذر الـشديد من الإنبـهار بكثـرة زائغة والانخـداع بمناهج وفلسفـات كفـرية ضائعة. كما لا وقت أيضًـا للانشغال بتوافه صارفة عن الغاية التي تحـقق عليها الحاقة وتقوم عليها الواقعة أو ينصب لأجلهـا الصراط والميزان، وتكون الجنة والنار فبادر إلى السفـينة من قبل أن يـأتي الطوفان فإن مـن ركبهـا نجا ومن تخلف عنهـا هلك، ولا يضيرك إن كانت مصنوعة من خشب أو حديد، وسترسو بك هنا أو هناك، طالما كنت ممن آمن بالله وصدق المرسلين ولا تنشغل بطولها وعرضها ولونها وما طُوى عنك منها فقد انطلق ركب الإيمان فالحق به واستقم كما أمرت ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢).

★ ذكر نبي الله نوح عليه السلام في القرآن:

ذُكر نبى الله نوح عليه السلام باسمه في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم، وذكرت قصته في سور كثيرة من كتاب الله كالأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر كما أن في القرآن سورة سُميت باسمه عليه السلام وهي سورة نوح. وهذه الآيات التى تعرضت لقصته، بينت دعوته وجهاده وصبره وثباته وما لاقاه من قومه ـ وكيف أنجاه الله من كيدهم.. إلى غير ذلك من المعاني التى يحتاجها كل مكلف في سيره إلى الله تعالى:

قال تعالى في معرض الثناء عليه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (سورة النساء:١٦٣). وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران:٣٣). وقال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ (سورة الأنعام:٨٤). وقال سبحانه: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (سورة الإسراء:٣). وقال سبحانه: ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الصافات:٧٩). وقال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (سورةمريم:٥٨). وفي مقام بيان دعوته، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة المؤمنون:٢٣). وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة هود:٢٥). وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا ﴾ (سورة الشورى:١٣). وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (سورة العنكبوت:١٤).

وفي بيان ما لاقاه من قومه يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (سورة القمر:٩). وقال سبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ (سورة النجم:٥٢). وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (سورة الشعراء:١١٦). وقال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (سورة غافر:٥).

وقد ذكر القرآن دعاء نوح على قومه، قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ (سورةالأنبياء:٧٦) . وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (سورة نوح:٢٦). وقال سبحانه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (سورة القمر: ١٠).

كما ذكر سبحانه كيف أنجاه ومن آمن معه، فأغرق وأهلك من كفر وكذب به فقال سبحانه: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (سورة هود:٤٨). وقال سبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ (سورة الفرقان:٣٧). وغير ذلك من المواضع الكثيرة التي نتعرض لها أثناء ذكرنا لقصته عليه السلام.

★ *نسبه عليه السلام والفترة بينه وبين آدم ـ عليهما السلام:*

ينتهي نسب نبي الله نوح إلى شيث ابن آدم أبي البشر، ويعتبر إدريس الجد الأكبر لنوح عليهم جميعًا وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **«كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»**.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في [البداية والنهاية] فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس بينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتباره ما قيد به ابن عباس من الإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخرى متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث [أبي أمامة] يدل على الحصر في عشرة قرون وزدنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبي أمامة رواه ابن حبان في صحيحه وهو: أن رجلاً قال يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مكلَّم»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون».

قال ابن كثير: وحديث ابن عباس يرد على من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار. أهـ.

★ **نوح من أولى العزم من الرسل:**

فضل سبحانه بعض النبيين على بعض فقال: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (سورة الإسراء:٥٥). وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل يتفاضلون أيضًا فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٣).

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم ألوا العزم من الرسل. قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف:٣٥). وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (سورة الشورى:١٣). وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (سورة الأحزاب:٧).

وقد فضل الله تعالى نوحًا بأن جعله أول رسول إلى أهل الأرض، وسماه الله عبدًا شكورًا ومرتبة العبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك، قال ابن تيمية: ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف. أهـ.

★ **نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض:**

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة نوح:١). وفيها إخبار، أن الله تعالى أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، وفي الصحيح - من حديث الشفاعة -

وفيه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس، من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه، ألا تنظرون من يشفع لكم فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، وخلقك الله بيده، ونفخ فيك من

روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي»[(١)] .

فهو عليه السلام أول رسول لأهل الأرض، بعد الطوفان الذى أغرق الدنيا، كما أنه شيخ المرسلين الذى تقدم أولى العزم من الرسل زمانًا، وقد ذكر البعض أن من بُعث قبل نوح كإدريس وآدم ـ عليهما السلام ـ كانوا من جملة الأنبياء، ولم يكونوا رسلاً. والفارق بين الرسول والنبى، أن الرسول هو الذى أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأما النبى فهو الذى أوحى إليه بشرع ولكن لم يؤمر بتبليغه.

★ إنه كان عبدًا شكورًا:

وُصف نوح بأنه كان عبدًا شكورًا: قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٣).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المنة، أى يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾. فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحًا ـ عليه السلام ـ كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمى عبدًا شكوراً. . وساق حديث الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمى عبدًا شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء من حديث أبي هريرة، (٤٧١٢) في تفسير القرآن، ومسلم (١٩٤) في الإيمان، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[1].

وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال، ثم ساق حديث البخاري عن أبي هريرة وفيه: «فيقولون يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك»[2]. أهـ.

قال عمران بن سليم: إنما سمى نوحًا عبدًا شكورًا لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال: الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذى كسانى، ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فيَّ.

قال القرطبي: ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدًا شكورًا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال.

★ مدة لبث نوح عليه السلام في قومه:

ذكر سبحانه قصة نوح تسلية لنبيه ﷺ فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (سورة العنكبوت: ١٤).

وخص نوحًا بالذكر، لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفرًا، وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقى نوح، فقد مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضًا عنه وتكذيبًا له وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر والدعاء، والترمذي (١٨١٦) في الأطعمة، وأحمد (١١٥٦٢).
(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٩٤) في الإيمان، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة.

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت:١٤). أى بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وبيده الأمر وإليه ترجع االأمور ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (سورة يونس:٩٦ ـ ٩٧).

واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. وقد ورد عن ابن عباس قال: بُعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا، وقيل غير ذلك، قال ابن كثير: وقول ابن عباس: أقرب والله أعلم.

وظاهر سياق الآية: أن نوح مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا. وعن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عامًا، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا.

فنوح عليه السلام كان طويل العمر مجاب الدعوة وهو أكبر الأنبياء، ولا يجوز التعويل على ما بأيدي أهل الكتاب في مدة لبثه في قومه وغيرها إذا خالف كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت بالقرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

★ *حالة قوم نوح أثناء بعثته إليهم:*

كان بين نوح وآدم ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون على الإسلام، كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا يدل على أن الناس قبل بعثة نوح عليه السلام كانوا مؤمنين، على شريعة من الحق لا يعرفون الوثنية، فلما اختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(سورة البقرة:٢١٣).

وفي قراءة عبد الله ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ ﴾(سورة البقرة:٢١٣).

وروى عن قتادة قال: كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول نبي بعث نوحًا عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة هود: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة نوح: ١). قال ابن عباس: يعني عذاب النار في الآخرة وقال الكلبى: هو ما نزل عليهم من الطوفان.

وقيل: أى أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيبًا، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

لقد تلوثت عقائد قوم نوح بالشرك، وعبدوا الأوثان والأصنام، واتخذوا آلهة من دون الله، صرفوا لها العبادة واعتقدوا أنها تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضر ولذلك قال لهم نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة نوح: ٢). أى: مظهر لكم بلسانكم الذى تعرفونه هذه النذارة بين يدى عذاب شديد، ثم دعاهم إلى توحيد الله جل وعلا وطاعته فقال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ (سورة نوح: ٣). أى: فيما آمركم به فإني رسول الله إليكم.

★ التوحيد الخالص دين جميع الأنبياء:

الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩).

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥). وهو الدين الذى يحكم به عيسى عليه السلام عند نزوله في آخر الزمان إذ شريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع، وما من نبى بعثه الله إلا وأمر قومه بعبادة الله وحده ونهاهم عن الشرك.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (سورة المؤمنون:٢٣). وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (سورة المائدة:٧٢). وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (سورة هود: ٥٠). وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (سورة هود:٦١). ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (سورة هود: ٨٤). وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ (سورة العنكبوت:١٦). وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل:٣٦). وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٥). وقال سبحانه عن نبيه إبراهيم: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (سورة الحج:٧٨). وقال سبحانه عن وصية نبيه يعقوب: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقر:١٣٣).

فالإسلام هو دين الفطرة، وهو الحنيفية السمحة، وهو الدين الذى ارتضاه سبحانه للعالمين وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الله لا يقبل من عبد صرفًا ولا عدلاً إلا إذا كان موحداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (سورة النساء:٤٨). ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (سورة الحج:٣١).

★ التوحيد أولاً، فهو مفتاح دعوة الرسل:.

تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى، وما من نبى إلا وافتتح دعوته بقوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة المؤمنون:٢٣).

لأن هذه هي الغاية التي من أجلها خلق ربنا جل وعلا الخلق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات:٥٦).

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله»[1]. والواجب على الدعاة إلى الله، أن يقتفوا آثار الأنبياء والمرسلين في إبلاغ الحق إلى الخلق: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(سورة الأنعام: ٩٠). وأن يدوروا مع إسلامهم حيث دار، فيعمقوا معانى الإيمان والعقيدة في النفوس ويركزوا على مسائل التوحيد كما صنع الإمام البخاري في بداية صحيحه، وقد اعتبر الإمام أبو حنيفة مسائل الإيمان هي الفقه الأكبر وهذا من فقههم في دين الله وحسن اتباعهم لسنن المرسلين. قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾(سورة النساء: ٣٦).

وقد اتفقت الشرائع على تحريم هذه الخمس المذكورة في سورة الأعراف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(سورة الأعراف: ٣٣).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت: **الله ورسوله أعلم، قال:** «حق الله على العباد، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» **قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال:** «لا تبشرهم فيتكلوا»[2].

ومن تتبع القرآن المكى والمدنى، سيجد تركيزًا على هذه القضية التى تحق عليها الحاقة وتقوم عليها الواقعة وينصب من أجلها الميزان والصراط وتكون الجنة والنار فلا إله غيره ولا معبود بحق سواه.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٥٨) من حديث ابن عباس، ومسلم (١٩) في الإيمان.

(٢) رواه البخاري (٦٢٦٧) في الاستئذان، وفي مسند أحمد (٢١٥٣٤) ومسلم (٣٠) في الإيمان، والترمذي (٢٦٤٣).

التوحيد كما يقرر العلماء، توحيدان، توحيد المُرسل وتوحيد متابعة الرسول، وهذا معنى قولنا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذه هي كلمة التوحيد التي ندخل بها في دين الله، ولا التفات لقول من يقول: الناس قد عرفوا التوحيد وصاروا مسلمين مؤمنين، فلا مانع من تذكيرهم وتحذيرهم من الشرك دقة وجله، وقد أكد الصادق المصدوق ﷺ أنه: «لن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة، ولن تقوم الساعة وأحد في الأرض يقول الله الله»[1].

*سبب عبادة الأصنام في قوم نوح:

كان الغلو في الصالحين سببًا في ظهور الشرك في قوم نوح وبداية عبادة الأوثان والأصنام من دون الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ (سورة نوح: ٢١ ـ ٢٤).

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور. روى البخاري عن ابن عباس قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى إذا هلك أولئك وتَنسَّخَ وتقادم العلم عُبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وروى ابن كثير عن ابن جرير... عن محمد بن قيس في تفسير الآية قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم

---

(١) رواه البخاري: باب الفتن.

فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يُعبدونهم وبهم يسُقون المطر فعبدوهم. اهـ. جاء في صفوة البيان عن تفسير هذه الآية: وهذه الخمسة أكبر الأصنام والصور التي كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب من بعدهم كما عبدت غيرها فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل بساحل البحر أو لهمدان، ويغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ أو لمراد، ثم لقطفا، ويعوق لهمدان باليمن أو لمراد، ونسرا لذى الكلاع من حمير. اهـ.

★ ***حيطة النبي ﷺ لجناب التوحيد:***

رسخ النبي ﷺ في نفوس أصحابه أصلية عظيمة:

الأصل الأول ـ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

والأصل الثاني ـ أن يعبدوا الله بما شرع وليس بشرع أحد سواه، ولم يسمح صلوت الله وسلامه عليه لأحد أن يخدش أيًا من هذين الأصلين.

ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه: **أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، ياخيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ»**[(١)].

وجاء في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة تسمى مارية، فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**[(٢)].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (١٣١١٧)، (١٢١٤١) (١٣١٨٤) من حديث أنس.

(٢) رواه البخاري (٤٢٧) عن عائشة، ومسلم (٥٢٨).

(٣) رواه البخاري (٥٩٠)، ومسلم (٢١٠٩) في اللباس والزينة، وأحمد (٤٧٧٧) واللفظ له.

وورد أيضًا فيه: «إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب»[١]. وفي الحديث: «من صور صورة عذبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»[٢].

وقد استفاض عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً». وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا علَّي حيثما كنتم»[٣].

ونهى ﷺ عن الغلو فيه والمبالغة في مدحه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»[٤].

وقال للرجل الذي قال له: «ما شاء الله وشئت»: «اجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده». وقال للوفد الذين قالوا له: «أنت سيدنا وابن سيدنا»: «إنما السيد الله».

ولما رأى ﷺ في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوارة غضب، وقال له: «أهذا وأنا حيًا بين أظهركم لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حيًا لما حل له إلا أن يتبعني».

ولما سمع ﷺ الخطيب على المنبر يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. قال له: «بئس خطيب القوم أنت، ولكن قل: ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى»، فنهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الله وبين أحد من خلقه، فلا يجوز للإنسان أن يقول: أنا في حمى الله وفلان، أو أنا متوكل على الله وعلى فلان، أو ما شاء الله وفلان والمخرج من ذلك أن تعطف بـ «ثم» لا بـ «الواو». «ولا يقولن أحدكم ما شاء الله وفلان، وليقل ما شاء الله ثم فلان» وذلك لأن العطف بالواو يفيد مساواة المشتركين في الحكم.

---

(١) رواه النسائي (٤١٥٢) وابن ماجه (٣٦٥٠) وأبي داود (٢٢٧).
(٢) رواه البخاري (٢٢٢٥) في البيوع، رواه الترمذي (١٧٥١) في البيوع، والنسائي (٥٣٥٨) في الزينة وأبو داود (٥٠٢٤) في الأدب.
(٣) رواه أحمد (٨٥٨٦).
(٤) رواه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء.

وكذلك لا يجوز أن تقول: وحياتك أو وحياة أبيك، أو لولا فلان لكان كذا، ولولا صياح الديك مثلاً أو نهيق الحمار لسرقنا اللصوص ونحو ذلك.

وقد نهى النبي ﷺ عن الوفاء بالنذر إذا نذر في مكان يعبد فيه صنم أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية.. ولو ذهبنا نستقصي لوجدنا الكثير من صور الحيطة لجناب التوحيد وسد الذرائع التي تؤدي لمواقعة الشرك، فالتوحيد هو أخطر قيمة في الوجود، وقد رأيت كيف تسرب الشرك لقوم نوح بسبب الغلو في الصالحين وكانت البداية عبارة عن اتخاذ التصاوير لهم، وهكذا فإن معظم النار من مستصغر الشرر، فلابد من الحيطة. وعلى النهج الواضح من المحافظة على التوحيد سار الصحابة ومن تابعهم بإحسان ولذلك قال عمر رضي الله عنه عن الحجر الأسود: اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك «وعزل خالد بن الوليد خشية الافتتان به، وقال علي رضي الله عنه لأبي الهياج الأسدي [رئيس شرطته]: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «إن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها»(١).

* ***الغلو في الصالحين ذريعة الشرك:***

لم نرفع رأسًا بما حدث في قوم نوح، ولم نأخذ درسًا مما قصه علينا القرآن، ولم ننتفع بتحذير رسول الله ﷺ من الغلو في شخصه بصفة خاصة وفي الصالحين بصفة عامة فخرج من يقول:

مالي من ألوذ به سواك ⋆ عند حلول الحادث الصمم

وكأنه لا يعرف له ربًا يعبده، ولذلك رد عليه القائل:

لُذ بالإله ولا تلذْ بسواه ⋆ من لاذ بالملك الجليل كفاه

---

(١) رواه مسلم (٩٦٩) في الجنائز، والنسائي (٢٠٣١) ورواه الترمذي (١٠٤٩) وأبو داود (٣٢١٨).

وجعل بعض الغلاة من علوم رسول الله ﷺ علم اللوح والقلم!! سبحانك هذا بهتان عظيم إلى غير ذلك من صور الغلو، وقد وصل الأمر في معظم بلاد الإسلام، إلى صرف العبادة للمقبورين، بزعم محبتهم، وسوء فهم قوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (سورة يونس: ٦٢-٦٣).

وبسبب العقائد الصوفية والشيعية، أقيمت المساجد على القبور، مخالفين بذلك هدى رسول الله ﷺ، وأصبحنا نشاهد من يذبح للمقبورين وينذر لهم ويستغيث بهم ويدعوهم من دون الله، ومن يطوف بأضرحتهم ويقبل أعتابهم ويتمسح بقبورهم، ومن يشد الرحال لقبورهم ويقيم المهرجانات الجاهلية التي يسمونها الموالد إلى غير ذلك مما يئن منه الإسلام وتتفتت على صخرته كل قواعد التوحيد. لا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ولا توحيد وشرك ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الجن: ١٨).

وفي الحديث: «لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا لا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[١]. وفي الحديث: «لا تصلوا إلى القبور»[٢].

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنسًا يصلي عند قبر لا يعلمه، فقال عمر: القبر القبر، وقل ﷺ: «لا تتخذوا القبور مساجداً»[٣].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى حرمة بناء المساجد على قبر وحرمة الصلاة على قبر إستناداً لنصوص الشريعة، وذهب الإمام أحمد إلى بطلان الصلاة في المسجد المقام على قبر، لأن النهى يقتضي البطلان والفساد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: المسجد المنشئ على قبر لا يُصلى فيه فرضًا ولا نفلاً وذلك لأنه أقيم على معصية الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (١٣٣١) في «الجنائز»، ومسلم (٥٣٢) في «المساجد»، والنسائي (٣-٧) في «المساجد».
(٢) رواه مسلم (٩٧٢) في الجنائز.
(٣) رواه مسلم (٥٣٢) في المساجد، وأحمد (١٦٩٦).

وحكى العراقي: اتفق العلماء على أن الإنسان لو أوصى حال حياته أن يدفن في المسجد لا تنفذ وصيته هذه لاشتمالها على محرم فيجب الحذر من الغلو في الصالحين وصرف العبادة لهم من دون الله، أما محبتهم فهى طاعة ودين يُدان به لله تعالى.

★ ***الأساليب التي انتهجها نوح عليه السلام في دعوته:***

سلك نبي الله نوح عليه السلام في دعوة قومه كل سبل، فخاطبهم على قدر عقولهم، وراعى حالتهم ودعاهم ليلاً ونهاراً سراً وعلانية، ترغيبًا وترهيبًا، بل قيل: كان يدخل لهم في بيوتهم لدعوتهم، وقد أتت الآيات توضح دعوته عليه السلام وتجليها، فبعد أن قال لهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (سورة نوح:٣). بيّن لهم الثمار التي يتحصلون عليها من وراء ذلك ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورةنوح:٤).

قال ابن عباس: أى ينسئ في أعماركم، قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره.

وقال الزجاج: أى يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب.

وقد ذكرت الآيات قيام نوح لله بحقه في إبلاغ الحق إلى الخلق: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴾ (سورة نوح:٥-٦). أى واصلت دعوتهم، وازدادوا هم تباعداً من الإيمان ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (سورة نوح:٧).

قال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه وأصروا على الكفر فلم يتوبوا، واستكبروا عن قبول الحق، قال نوح عليه السلام: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (سورة نوح:٨-٩). أى دعوتهم مجاهراً لهم بالدعوة وأسررت لهم بالدعاء عن بعضهم من بعض فلم أبق مجهوداً بل وأتيتهم منازلهم تلطفًا بهم.

★ **الدنيا والآخرة تنالها بالاستغفار:**

على الداعية أن يفتح للناس أبواب الرجاء، وليس له أن يُحجر واسعًا، ولا أن يغلق أمامهم أبواب الرحمة ولذلك كان حرص نوح عليه السلام على أن يبين لقومه قيمة الاستغفار، وأن يربط بين الدنيا والآخرة.

قال تعالى حاكيًا عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح: ١٠-١٢). فهو يعدهم على الإيمان والتوحيد رزقًا حسنًا وحياة طيبة وكثرة في المال والولد، وهذا منه ترغيب في التوبة، أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان، وستجدون الله توابًا رحيمًا ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (سورة النحل:٩٧). وهذا دليل على أن الجزاء من جنس العمل، وحث نوح لقومه على الاستغفار دليل على أنه يُستنزل به الرزق والأمطار وتُستجلب به الأولاد.

قال الشعبي: خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار وحتى رجع أمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاريح السماء التي يُستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (سورة نوح: ١٠-١١).

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: واللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (سورة التوبة:٩١). وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقُوا.

وقال ابن صبيح: شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر فقال له. استغفر الله وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه فقال له: استغفر الله. فقلت له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندى شيئًا، إن الله تعالى يقول في سورة نوح ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح: ١٠-١٢).

فأكثر من الاستغفار باللسان، واندم بالقلب وأقلع بالجوارح عن الذنوب والمعاصي وبادر برد الحقوق لأصحابها، حتى تكون توبتك صحيحة ونصوحًا، عساها ترد ما قد يُرد فإن البر لا يبلي والذنب لا يُنسى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾(سورة التحريم:٨).

(١) نوح يلفت أنظار قومه إلى آيات الله في الأنفس والآفاق:

تتنوع أساليب الدعوة بحسب الحاجة وبما تتأدى به المصلحة، وهذا فيه إزالة لشبهات المدعويين بإيراد الحجج المختلفة عليهم، وقطع الملل الذى يتطرق لنفوسهم بتنويع أساليب النصح والتذكير، والدعاة عندما يصنعون ذلك لا يبتدعون ولا يخترعون، إنما هم يقتفون آثار الأنبياء والمرسلين، وخصوصًا مع تفاوت أحوال المدعويين.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام بعد أن رغب قومه، عاد يخوفهم عاقبة تماديهم وإصرارهم على الكفر والضلال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الأعراف:٥٩). ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة هود:٢٦)، ثم لفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ليهتدوا بها إلى أن الخالق لهذه العوالم كلها، علويها وسفليها، هو المستحق للعبادة وحده، دون ما عداه من هذه الآلهة المزعومة، التي لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لعابديها شيئًا. ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾(سورة نوح:١٣-٢٠).

قال ابن عباس: ما لكم لا تخشون لله عقابًا وترجون منه ثوابًا، وقال أيضًا هو وغيره: مالكم لا ترون لله عظمة.

وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرون له نعمة، فقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده.

قال ابن عباس: ﴿أَطْوَارًا﴾ (سورة نوح:١٤). يعنى نطفه ثم علقة ثم مضغة، أى طوراً بعد طور إلى تمام الخلق، ثم انتقل من ذكر دلائل القدرة في النفس، إلى الحديث عن دلائل قدرته سبحانه في السماء، فبين لهم أن الله خلق سبع سموات طباقًا على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض وسماء وسماء خلق وأمر، فالذى أنبت الإنسان من تراب، هو القادر على إعادته، والذى خلق الكون على هذا النحو وسخر الشمس والقمر هو الذى يجب أن يُعبد، فلا يخلق هو ويعبدُ غيره ولا يرزق هو ويشكر سواه فهو المنُعم سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ (سورة نوح:١٩-٢٠).

جعل لكم الأرض مبسوطة وفيها طرق واسعة، وهذه نعم تستوجب الشكر للخالق جل وعلا، وتوحيد، لا الكفر والشرك به.

(٢) *تهمته الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا:*

خاطر نبي الله نوح - عليه السلام - بمهجته وروحه وأوذي في الله، ولكنه استمر في دعوته وثابر عليها دون انقطاع أو ملل، ولم يكترث بما كان يتهدده به قومه من نفي أو قتل. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (سورة الشعراء:١١٦).

لقد سلكوا معه كل سبيل لإبعاده عن دعوته ولم يتركوا نقيصة ولا تهمة إلا وقذفوه بها، كل ذلك وهو صابر، يحتسب الأجر عند الله تعالى، يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة المؤمنون:٢٣). وهذه هي التهمة الحقيقة، التي جرَّت عليه البلاء والأذي، فإن نبي الله نوح لم يقتل منهم نفسًا، ولم ينازعهم على الملك والرئاسة بدخول البرلمان وغيره، ولم يطلب منهم أجرًا على دعوته، وشأنه في ذلك كشأن سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، يخلصون أمرهم لله. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٠٩). ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ (سورة سبا:٤٧).

إن تهمة نبي الله نوح هي تهمة رسول الله ﷺ وهي تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود. . . ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سورة البروج:٨).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (سورة إبراهيم:١٣-١٤).

فلم تكن تهمة هؤلاء دخول البرلمان أو القتل والتخريب . . . وكذلك الأمر بالنسبة لك، إذا قمت تعبد الخلائق لله وتدلهم على طريق الله، فإنك حتمًا ستتهم، كما اتُهم نوح عليه السلام فقل: تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه، وحسبُك أن تكون مستقيمًا على شرع الله، داعيًا إلى توحيد الله، مستبعداً بطبيعة الطريق ووعورته ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة يوسف:١٠٨).

(٣) أتباع نوح عليه السلام فقراء ضعفاء:

سأل هرقل ـ أبا سفيان ـ وكان في تجارة بالشام، ـ أسئلة عشرة، علم منها أن رسول الله ﷺ سيملك موضع قدمه [أي ستفتح لرسول الله ﷺ قصور قيصر] وكان من بين هذه الأسئلة: أضعفاء القوم اتبعوه أم أشرافهم، فقال أبو سفيان، بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: وكذلك هم أتباع الرسل(١).

وقد كان أتباع نوح من ضعفاء القوم وفقراءهم، ولا يعنيه ذلك فالحق لا يُعرف بكثرة ولا بقلة، ولا بقوة ولا بضعف، ولا بذكورة أو أنوثة. ولكن اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه، ولما كان أهل الباطل يحتجون بكثرة الأموال والأولاد والأنصار على أحقيتهم بكل دعوة إلى الإصلاح، وأنهم أهل للفوز

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) في بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) في الجهاد والسير.

من أي عذاب، فبين لهم القرآن خطأ تصورهم. ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (سورة سبأ: ٣٥ـ٣٧).

وقد اعتبر قوم نوح ضعف من آمن به واتبعه، سببًا لانصرافهم عن قبولها من جهة، وسببًا لانتقاصه وتسفيه أتباعه من جهة أخرى: قال تعالى في سورة هود، مبينًا ما قاله قوم نوح له: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (سورة هود: ٢٧).

وفي سورة الشعراء يقولون له: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ١١١). فيجيبهم نوح: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود: ٢٨ـ٣١).

وما حدث من قوم نوح يتكرر في كل عصر ووقت، حيث يتم الطعن في الدعوة لأن أتباعها من أراذل الناس وعامتهم من الفقراء وأصحاب الحرف الخسيسة!!!

فليسو هم من أشراف الناس ومثقفيهم، ولا من أصحاب المراكز المرموقة!!!

وهذا يذكرنا بما حاولته قريش مع رسول الله ﷺ وطلبهم منه أن يجعل له مجلسًا خاصًا لا يحضره أحد من الضعفاء والموالى والعبيد كبلال وعمار وصهيب، فنزل الوحى يحذر رسول الله ﷺ من الاستجابة لهم قال تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٥٢ـ٥٣).

بل عوتب الرسول ﷺ عندما انصرف عن ابن أم مكتوم الأعمى وأقبل على صناديد قريش وأشرافها يدعوهم، قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾(سورة عبس: ١-١١).

(٤) الملأ يتصدون له كما تصدوا لكل الدعوات:

الملأ هم أشراف القوم وقادتهم ورؤساؤهم وساداتهم، كما يقول المفسرون، وإطلاق كلمة الملأ على هؤلاء من قبيل بيان الواقع لا من قبيل بيان استحقاقهم فعلاً للشرف والسيادة والقيادة والرئاسة، ويشبه ذلك وصف النبي ﷺ هرقل بأنه «عظيم الروم» فهو عظيم في نظر الروم، وإن لم يستحق هرقل هذا الوصف، والوصف الغالب على الملأ من كل قوم معاداتهم للدعوة إلى الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(سورة سبأ: ٣٤-٣٥).

والملأ من قوم نوح هم الذين تصدوا للدعوة إلى الله، وهم الذين نسبوا نبيهم إلى الضلال المبين وهذا من أعظم الظلم والصد عن سبيل الله قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(سورة الأعراف: ٥٩-٦٠).

فالملأ يدل من رؤيتهم الحق الذى جاءهم به نوح رأوه ضلالاً، ونوره ظلامًا، وادعوا أن هذا الضلال بين رأى واضح ظاهر، وهو في الحقيقة دليل على عماهم، وعدم رؤيتهم الحق الذى أدى بهم إلى هذا الادعاء بالتالي إلى هلاكهم، قال تعالى مخبرًا عن عاقبتهم ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾(سورة الأعراف: ٦٤).

وأسباب مخاصمة الملأ الرسل الكرام وعداوتهم لهم ورفضهم دعوتهم ترجع إلى الكبر الذى تغلغل في نفوسهم وحبهم الرياسة والجاه، ثم الجهالات التى حسبوها أدلة ويقينيات. يدلك على ذلك قوله تعالى في قصة نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون:٢٤). فالملأ دفاعًا عن رياستهم على الناس وتسلطهم عليهم يقولون لقومهم: إن نوحًا بدعوته هذه يريد أن يتفضل عليكم، أى يترفع ويتعاظم عليكم ويترأس عليكم، ويريد الملأ بهذا الادعاء صرف الناس عن نوح -عليه السلام- وتصوير دعوته بأنها دعوة مادية وليست دعوة هداية خالصة لوجه الله، لتبقى سيطرة الملأ ورياسته على عموم الخلق.

والحقيقة أن رسل الله لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا ولا رياسة ولا تعاظمًا، وإنما هم بطبيعة دعوتهم يصيرون أئمة للناس ورؤساء وقادة حقيقيين، يفترقون افتراقًا عظيمًا عن الملأ المتكبرين، الذين يسعون طلبًا للدنيا وبحطامها الفانى، والفارق كبير بين من كانت الآخرة نيته فأتته الدنيا وهي راغمة، وبين أن تكون الدنيا هي كل هم الإنسان ومبلغ علمه، ومثل هذا لا يبالي الله في أى أوديتها هلك.

والسفاهة وإنطماس البصيرة من سمات الملأ، ويدل على ذلك ما قالوه لنبيهم نوح -عليه السلام-: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (سورة هود:٢٧).

فهم لجهالتهم، يقولون لنبيهم نوح عليه السلام: لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، وهذا كله من جهالتهم، فلابد أن يكون الرسول من البشر حتى يمكن أن يخاطبهم ويمكن لهم أن يفهموه، ثم الضعفاء والفقراء باتباعهم الحق يبرهنون على حسن إدراكهم وصفاء نفوسهم، وهم في ذلك أعظم إدراكًا من الأشراف والسادة الذين خالفوا دعوة الرسل وانحرفوا عن مقتضى العقل والفطرة.

والملأ في موقفه هذا من دعوة نوح - عليه السلام - يتشابه مع الملأ في قريش، والملأ في كل زمان ومكان كفرًا بالله وصدًا عن سبيل الله ومعاندة للحق استكبارًا وجهالة ومحبة للرياسة.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورةالأعراف: ٦٠) . وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تعبأ مخالفة من خالف الحق، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين وإياك وطريق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، واعلم أن على الحق نورًا وهو أبلج، فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه.

(٥) *دعوة تسير وسط التهديد والتسفيه:*

ذكر الصابونى في النبوة والأنبياء أنواع الاتهامات لنوح - عليه السلام - فقال:

١ - اتهم عليه السلام بالسفة والضلال. قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٦٠-٦١).

٢ - وأتهم أيضًا بالجنون وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (سورة القمر: ٩). وأخبر القرآن عن لسانهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (سورةالمؤمنون: ٢٥).

٣ - واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة هود: ٣٢).

٤ - وهُدِّد - عليه السلام - بالرجم قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١١٦).

٥ - وقابلوه بالسخرية والتهكم، قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (سورة هود: ٣٨).

وهكذا تفننوا في إيزاءه واتهـامه ليقلوا من عـزمه، وهذه الإفتراءات والاتهـامات سلاح يستعـمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعـية مصلح، وهو ليس خاصًا بقوم نوح فقد قال المشـركون لسيد الخلق محمد ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (سورة الحجر:٦).

وقالوا أيضًا: ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ (سورة الفرقان:٨).

وقالوا كـذلك: ﴿ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (سورةص:٤). وهكذا يستعمـل الأشرار والفجار هذا السلاح في وجه كل نبي وداعيـة، فينبغي أن يتنبه الدعاة والمصلحون إلى هذا النوع من الحرب الباردة.

(٦) رحمة وشفقة في مواجهة الجفاء والغلظة:

واجه نوح عليه السلام جفاء قومـه وغلظتهم بإظهار الخوف عليهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (سورة العنكبوت:١٤). فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الأعراف:٥٩).

وهذا التخوف لا يصدر إلا من قلب رحيم، وشفقة ظاهرة عليهم، وكذلك قوله عليه السلام وقد رموه بالضلالة: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف:٦١-٦٣).

فلم يغضبـه كلامهم لأنهم قوم يجهلون، ولأن الداعى الرحيم لا يغـضب لنفسه قط، وإنما يغضب إذا انتـهكت حرمات الله، وهـذا هو خلق رسول الله ﷺ، وهكذا كان الأنبياء رحماء بمن أرسلوا إليهم مشفقون عليهم من العذاب، وهذه الرحمة تهون على الداعى ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجـهالة، بل تجعله وهو يتحمل أذى قومه، ويدعو لهم بالهداية.

كما روى أن نوحًا كان يقول: «رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون».

وهكذا كان رسول الله ﷺ يكرر دعوته إلى قريش ويتحمل أذاهم ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[1]. وقد وصف ﷺ بالرحمة في أكثر من موضع من كتاب الله.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التوبة:١٢٨). وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (سورةآل عمران:١٥٩).

«فاحذر خشونة الطبع وغلظة القلب، حتى في مواجهة الغلظة، فهذا شأن أصحاب الدعوات من أتباع الأنبياء والمرسلين».

(٧) *توكل على الله في مواجهة التهديد والوعيد:*

يقول الشيخ خليل هراس في كتابة دعوة التوحيد: «إن نبي الله نوحًا رغم طول أناته وجميل صبره لم يبد في دعوته ضعفًا ولا ترددًا بل ظل ثابتًا كالطود رغم تهديد القوم ووعيدهم، وقد ذكرنا أنه لم يجبهم إلى ما طلبوه من طرد المؤمنين وإقصائهم عن مجالسهم، ولقد وقف منهم موقفًا حاسمًا غاية في الروعة حين قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة يونس:٧١-٧٢).

يقول العلامة السلفي فضيلة الشيخ محمد العدوي - رحمه الله - في كتابه «دعوة الرسل إلى الله» عند تعليقه على هذه الايات: «وفي القصة من العبر أنه إذا سئم

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) في الجهاد والسير، وابن ماجه (٤٠٢٥) في الفتن.

المدعون من طول مدة الدعوة فليس للداعي أن يسأم، واعتماد الداعي في دعوته على ربه لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملاً واستهانته بكل ما يلاقي في سبيل الدعوة ويمحص قلبه ويرفع منزلته، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه واستعانتهم بشركائهم، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم وينفذوا قضاءهم فيه، لأنه واثق بأن النصر حليفه والعاقبة له ولأنصاره» اهـ.

إن الله تعالى يكفي من يتوكل عليه ويفوض الأمور إليه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (سورة الطلاق: ٣). لاسيما من يتوكل عليه في أمور الدعوة إلى الله ونصره وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه، فما خاب من يتوكل عليه سبحانه وأناب إليه، وتعلق قلبه به في جلب النفع ودفع الضر، ومن طالع قصة نبي الله نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، علم قيمة التوكل وكفاية الله لعباده المؤمنين يوم حمراء الأسد: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣-١٧٤).

فإذا تطاول الأعداء، ووجهوا لك سهام الكيد والبطش، فلا تخف، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

(٨) اصبر على دعوة الحق كما صبروا على آلهتهم الباطلة:

قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥).

ونبي الله نوح - عليه السلام - أحد أولئك الذين أمر رسول الله ﷺ بالتأسي بهم، ولقد لبث في قومه، ألف سنة إلا خمسين عامًا، ويدعوهم إلى الله ويصبر على أذاهم، كل ذلك وهم لا يرفعون بدين الله رأسًا ولا يرتدعون عن غيهم وضلالهم وعبادتهم الأصنام من دون الله، لذا فإن الصبر واجب حتم على المؤمنين وهو من أهم

أسلحة الدعاة إلى الله تعالى، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

ومع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠). وبين جلا وعلا أن الفلاح مرتهن بالصبر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠). والنصر قرين الصبر كما ورد في الحديث.

ولما سأل عمر أشياخ بني عبس بما كنتم تنتصرون على عدوكم، فقالوا: ما لقينا عدواً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

ومن عجيب أمر المشركين أنهم يصبرون على آلهتهم الباطلة، بل ويتناصحون بذلك: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ (سورة ص:٦). أفلا يصبر المسلم على دعوة الحق!! وإذا كان الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان، فإنه للداعي المسلم أشد ضرورة له من غيره، لأنه يعمل في ميدانين:

الميدان الأول - ميدان نفسه يجاهدها ويحملها على الطاعة ويمنعها من المعصية.

والميدان الثاني - وهو ميدان الدعوة إلى الله، وهو محتاج هنا وهناك لصبر كبير ثم الصبر بأنواعه إنما هو بالله، وبعونه وتوفيقه. ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ (سورة النحل:١٢٧). وصبر المسلم طاعة الله، إذ به تحقق مرضاة الله، فاصبر صبراً جميلاً، ولا تنحسب من الميدان مع أول عقبة فيحق عليك الحساب ويفوتك الثواب.

(٩) دعوة صدق وإخلاص وتجرد:

الصدق والإخلاص والتجرد من الصفات الملازمة للنبوة، والمتتبع لقصة نبي الله نوح - عليه السلام - يلمس ذلك، فقد كانت دعوته لقومه بالليل والنهار سراً وعلانية وعلى امتداد السنوات الطوال، لم تفتر عزيمته، مع ما لاقاه من أذى قومه، وقلة عدد

من آمن به، والداعي المسلم الصادق يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته، وتكاد حركاته وسكانته تنطق بذلك، قال تعالى عن نبيه نوح - عليه السلام -: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة هود: ٢٩-٣٠).

إنها دعوة التجرد وإخلاص الأمر كله لله، والتزام معاني الصدق مع الله ومع خلق الله، سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء، وهذه الصفات ملازمة لجميع الأنبياء، ومن تتبع سيرة رسول الله ﷺ لوجد أنه أشتهر منذ الصغر بالصدق والأمانة، حتي كان المشركون يسمونه الصادق الأمين، فيقولون جاء الصادق الأمين، وذهب الصادق الأمين.

وروى أن رجلاً من سادة قريش لقى «أبا جهل» في أحد طرقات مكة فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك، أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب؟ فأجابه أبو جهل: والله إن محمداً صادق، وما كذب قط فقال فما الذى يمنعكم من اتباعه؟ فقال له أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر، فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرس رهان - أى استوينا وإياهم في السبق والفخر - ثم زاد علينا فقالوا: بعث منا نبي، فمن أين نأتيهم بنبي؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه»، وفي هذا أنزل الله تعالى تسلية لنبيه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٣٣).

وقد أورد البخارى قصة هرقل ملك الروم مع أبي سفيان - قبل إسلامه وكان في تجارة بالشام وذلك حين سأله عن أمر محمد ﷺ أسئلة عشرة، ومن جملتها: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذبًا قط!! فأجابه هرقل بقوله: «ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[(١)].

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) في بدأ الوحي، ومسلم (١٧٧٣) في الجهاد والسير.

وقد ارتسم الصدق على وجهه ﷺ كما يروى عبد الله بن سلام رضي الله عنه في قصة إسلامه ـ كان حبراً يهوديًا ـ يقول: «فرأيت وجهه ليس بوجه كذاب»[1]. ولا شك أن ظهور أثر الصدق في وجه الداعى وصوته يؤثر في المخاطب ويحمله ذلك على قبول قوله واحترامه إلا إذا كان عمى القلب قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا، فأحرص على الصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وتجنب الكذب فإن الكذب فجور والفجور يهدى إلى النار ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٨٠).

(١٠) نعوذ بالله من الخذلان فالرحمة قد عميت عليهم:

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة الحج:٤٦). وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (سورة الإسراء:٧٢)؛ وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الملك:٢٢). وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (سورة الأعراف:١٤٦).

وقد حكى لنا سبحانه عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (سورة هود:٢٨). أى أنه على يقين فقد أيده الله بالنبوة والرسالة وأمده بالمعجزة، فما كان منهم إلا الإعراض عن هذه الرحمة وهذه الهداية، فلا يمكنه بعد ذلك أن يُدخل الإيمان في قلوبهم ولا أن يضطرهم إلى المعرفة بها وقد جحدوها وكرهوا الإذعان لها، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥) في صفة القيامة، وابن ماجه (١٣٣٤) في إقامة الصلاة والسنة فيه، وأحمد (٢٣٢٧٢)، والدارمي (١٤٦٠).

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة يونس: ٩٩ـ١٠٠).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«كان النبي ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول».**

وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب فعلى الدعاة إلى الله أن يستفرغوا وسعهم في دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وأن يعلموا أن قلوبهم وقلوب الخلق بيد الله يصرفها كيف يشاء ـ فضلاً وعدلاً ـ فما ينبغي أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته.

وقد كان على بن أبي طالب رضي الله عنه يدعو ربه ويقول: **«رب احملني على فضلك ولا تحملني على عدلك»**، فلا ظلم بين العباد لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يصح الاحتجاج بالقدر في المعايب وإنما الاحتجاج به في المصائب فقط، إذ يجب على الخلائق أن تُسلم وجوهها لله، ومن قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله. فاللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك وطاعة نبيك ﷺ، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها وخير أيامنا يوم نلقاك، واجعل اللهم صمتنا فكرًا ونطقنا ذكرًا ونظرنا عبرًا.

(١١) *خوف وتذلل وتواضع لله عزَّ وجلَّ:*

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (سورة فاطر: ٢٨). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، كفى بالإغترار جهلاً. والأنبياء هم أكثر الخلق خشية لله تعالى وذلك لوفرة علمهم ولذلك قال النبي ﷺ: «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١) في الأدب، ومسلم (٢٣٥٦) في الفضائل، أحمد (٢٣٦٦٠).

وفي رد نوح - عليه السلام - على سفاهة قومه ما يشعرك بخوفه وتذلله وتواضعه لله عزَّ وجلَّ.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود: ٢٩-٣١).

وكأنهم سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به كما سألت قريش النبى ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، فقابل ذلك بالرفض لأنه لو فعل ذلك لخاصموه عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازى من طردهم ﴿ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾. في استرذالكم لهم، وسؤالكم طردهم. فمن الذى يمنعه من عذاب الله، إن طرد المؤمنين لأجل إيمانهم ثم أخبر نوح - عليه السلام - تذلله وتواضعه لله عزَّ وجلَّ، وإنه لا يدعي ما ليس له من خزائن الله . . . ثم أوضح لهم أن أجور المؤمنين لن تبطل وأن ثوابهم لن ينتقص لاستثقالهم واحتقارهم فمردهم إلى الله ومرجعهم ومآبهم إليه سبحانه، حيث يجازيهم عليه ويؤاخذهم به ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾

(١٢) رد علم ما طوى عنا إلى الله:

أوضح نبى الله نوح لقومه أنه لا يعلم الغيب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾. وهذا المعنى قررته نصوص الشريعة في أكثر من موضع.

قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (سورة النمل: ٦٥). وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ (سورة الأنعام: ٥٩). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (سورة لقمان: ٣٤). وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (سورة الكهف: ٢٣-٢٤). وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (سورة الجن: ٢٦-٢٧).

«وعندما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الساعة؟، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، فلما سأله عن أماراتها أجاب»، «ولما تذاكروا الساعة ليلة أسرى برسول الله ﷺ ، وردوا أمرها إلى نبى الله إبراهيم فقال لا علم لي بها، وكذلك قال نبى الله موسى لا علم لي بها، فلما ردوا أمرها إلى نبى الله إبراهيم فقال لا علم لي بها، فلما ردوا أمرها إلى نبى الله عيسى قال: أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، ثم أخبر عن نزوله - عليه السلام - وقتله الدجال وذلك لأنه علامة من علامات الساعة» وقد نهى رسول الله ﷺ عن إتيان العرافين والكهان وتصديقهم، فهم ليسوا بشئ وإن صدقوا مرة كذبوا معها مائة كذبة، وفي الحديث: «من اتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[(١)]. وفي خبر ابن مسعود موقوفًا: «من اتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[(٢)]. فلا يجوز إدعاء معرفة الغيب، ويدخل في ذلك ادعاء بعض الصوفية انكشاف حُجُب الغيب لهم والواجب رد علم ما طُوِىَ عنا إلى الله.

(١٣) ولا أقول إنى ملك:

نفى نوح عليه السلام، أن يكون من عالم الملائكة الأبرار، فهو بشر أرسله ربه عزَّ وجلَّ لدعوة الخلائق لكى يوحدوه ويعبدوه ﴿ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ (سورة هود:٣١). قال البعض: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء لدوامهم على الطاعة، واتصال عبادتهم إلى يوم القيامة وقد استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بالحديث القدسى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[(٣)]. وقد خالفهم في ذلك آخرون مستدلين بأن الله تعالى

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٩٢٥٢) والحاكم.

(٢) صحيح: رواه البزار وأبو يعلي وجود إسناده المنذري والحافظ ابن حجر والحديث، صحيح لشواهده.

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) في الذكر والدعاء، والترمذي (٣٦٠٣) في الدعوات، وابن ماجه (٣٨٢٢) في الأدب.

خلق آدم بيده وخلق الملائكة بكلمته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (سورة البقرة:٣٤). وقد فضل آدم بالعلم، حين سألهم سبحانه عن علم الأسماء فلم يجيبوه فأنبأهم آدم بذلك، كما استدلوا بحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول لهم: «انظروا إلى عبادى هؤلاء جاءونى شعثًا غبرًا»[1]. وقد ذهب ابن تيمية إلى أن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية وذلك إنما يكون إذا ادخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم.

والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر قال ابن القيم: بهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه والله أعلم بالصواب.

(١٤) *إذا اطلع إلى قلبى لم يغيره ثوبي:*

لقد نظر نوح إلى ظواهر فقراء المؤمنين، فكان الازدراء والاحتقار، ولو علموا قيمة وحقيقة الإيمان المكنون في صدورهم لكان لهم شأن آخر، افتقدوا البصيرة فعميت أبصارهم عن الموازين الإيمانية، ولذلك قال نوح: ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة هود:٣١).

لو تحققوا أن الله يعلم وهم لا يعلمون، وأنه سبحانه عليم بما في الصدور، لأحبوا المؤمنين على فقرهم ووالوهم لإسلامهم بل وقدموهم على ساداتهم وأغنياءهم - ممن كفر بالله تعالى - فهؤلاء أهون على الله من الجعلان. وشأن قوم نوح في عتوهم كشأن المادية الطاغية المعاصرة التى اهتمت بالزخارف والزينات والنقوش

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني (صحيح ١٨٦٧ في صحيح الجامع).

وأغفلت معانى الإيمان والعمل الصالح، وقد كان على بن أبي طالب ﷺ يقول: **«إذا نظر إلى قلبى لم يضره ثوبى»**، وكان أبو عبيدة ﷺ يسير وسط الجيش وهو يقول: **«رب مبيض لثوبه مدنس لدينه، رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات»**.

وكان محمد بن واسع يقول: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلسَ إليَّ وكان أحد العلماء يقول لأصحابه: وددت لأحدكم لو حافظ على دينه كما يحافظ على نعله، إن المعاصى قاذورات ونجاسات فعلى كل من طلب النظافة أن يسعى لتطهير باطنه كما يسعى لتنظيف ظاهرة، فإن الله مطلع ورقيب لا تخفى عليه خافية، والطهارة لا تتحق إلا بتوحيد الله جل وعلا وإخلاص العبودية له سبحانه ولذلك تنادى الملائكة على المؤمنين على أبواب الجنة وتقول: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (سورة الزمر:٧٣).

والاعتراف بالحق فضيلة وجحده رذيلة، ولذلك وصف الشرك بالنجاسة ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (سورة التوبة:٢٨). حتى وإن اغتسلوا ونظفوا أبدانهم وارتدوا أفخر الثياب وحازوا أكبر المناصب، وذلك لتمكن الكفر والشرك من قلوبهم.

(١٥) *جدال الأنبياء بالتى هي أحسن:*

رفض قوم نوح الإذعان للحق وزعموا أنه قد خاصمهم فأكثر خصومتهم وبالغ فيها فقالوا: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة هود:٣٢). والجَدَلَ في كلام العرب المبالغة في الخصومة مشتق من الجَدْلَ وهو شدة القتل ويقال للصقر أيضًا أجدل لشدته في الطير، وقرأ ابن عباس ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾. والجدل في الدين محمود ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (سورة النحل:١٢٥). وقال: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (سورة العنكبوت:٤٦).

وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمزموم وصاحبه في الدارين ملوم، وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. وأبغض الرجال إلى الله الألد الخصم، أى الذي يفخر في خصومته.

قال النووي في [التبيان ص ١٠١]: «يحرم المراء في القرآن والجدال فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه ويتحمل احتمالاً ضعيفًا موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه ويناظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول. وأما من لا يظهر له ذلك فهو معزور، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المراء في القرآن كفر»[1]. قال الخطابي: المراد بالمراء الشك. وقيل: الجدال المشكك فيه. وقيل: وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء في آيات القدر ونحوها» اهـ.

فعليك بحسن التأس برسول الله ﷺ في دعوتك وأقوالك وأفعالك، فهو زعيم بيت في رياض الجنة لمن ترك الجدال وإن كان محقًا.

(١٦) لجاجة وعناد وتعجل العذاب بسبب طمس البصيرة:

عندما تنطمس البصائر على قلوب الكافرين مثل الران، ولا تعجب ولا تحار إذا قال قوم نوح له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة هود: ٣٢).

ومن قول عاد لنبيهم هود: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٧٠).

وما حكاه لنا سبحانه عن قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة سبأ: ١٨-١٩).

---

(١) رواه أبي داود (٤٦٠٣) في السنة لحديث أبي هريرة، وأحمد (٧٩٢٩) لحديث أبي هريرة.

ولا يختلف حال كفار قريش مع حالة هؤلاء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢).

روى أنس بن مالك أن قائله أبو جهل[(١)].

ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة، ثم حل بهم يوم بدر ماسألوا.

حُكى أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود، فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. (سورة الأنفال: ٣٢). فهلا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إن هؤلاء قوم يجهلون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«وأنت يا إسرائيلي، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي اغرق فيه فرعون وقومه، وانجى موسى وقومه، حتى قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨). فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨)»** فأطرق اليهودي مفحمًا. وقد ورد في صحيح مسلم، أن أبا جهل لما قال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢). الآية نزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (سورة الأنفال: ٣٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: **«لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ والمؤمنون، ويلحقوا بحيث امروا».**

(١٧) *استحضار الداعي أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا خيرًا:*

لما قال قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة هود: ٣٢). رد عليهم نبيهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة هود: ٣٣-٣٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٨) في تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٩٦) في صفة القيامة.

أي إن أراد الله إهلاككم عذبكم، حتى وإن ملأتم الأرض سهلاً وجبلاً فلا تعجبوا بكثرتكم، فلستم بفائتين، ومع إبلاغه واجتهاده في إيمانهم إلا أنهم لم يقبلوا نصحه، وذلك لأن الأمر كله بيد الله، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، إذ هو الهادى المضل، فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُلوًا كبيرًا.

قال القرطبي: «وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما، إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصي ولا يكفر الكافر، ولا يغوى الغاوي، وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾. وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس. وفي إغواء الله تعالى إياه حيث قال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ (سورة الأعراف:١٦). ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾.

وقيل: ﴿ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾. يهلككم، لأن الإضلال يفضى إلى الهلاك قال الطبري: «يغويكم: يهلككم بعذابه، حكى عن طئ: أصبح فلان غاويًا أى مريضًا، وأغويته أهلكته، ومنه ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (سورة مريم:٥٩). هو ربكم فإليه الإغواء، وإليه الهداية ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة هود:٣٤). تهديد ووعيد» اهـ.

وهكذا فالداعى يأخذ بالأسباب ويكون تعلقه بمسبب الأسباب، فاعتماده على الله في جميع أموره، ويثق بربه ثقة كاملة بأنه يحفظه وينصره ويدفع عنه الشرور قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (سورة الحج:٣٨). وقال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (سورة الصافات: ١٧١ـ١٧٣).

ويتوجه بكليته إلى خالقه ومولاه وناصره ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٠). ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (سورة البقرة:٢٥٧).

(١٨) ما كان ليذر الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله:

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (سورة هود:٣٥). أي إن اختلقت وأفتعلت الوحي والرسالة، فعقاب إجرامي عليَّ وإن كنت محقًا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي.

وسواء كان الخبر في الآية عن نوح وقومه أو عن رسول الله ﷺ وقومه فالحال لا يختلف، والصدق سمة من سمات دعوة الأنبياء والمرسلين، ولذلك قال هرقل لأبي سفيان: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فقال له أبو سفيان: لا، فقال هرقل: «قلت ما كان ليذر الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله»[١].

وقد تحدى بالقرآن الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، ومع توافر دواعي أعدائه على معارضته، وفصاحتهم وبلاغتهم، ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا، ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه، وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك، وإن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبدًا.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة يونس:٣٧-٣٩).

وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (سورة البقرة:٢٤). أي فإن لم تفعلوا في الماضي ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل، وهذا تحد ثان وهو أنه لا يمكنهم معارضته لا في الحال ولا في المآل ومثل هذا التحدي إنما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الإتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يُعارض، فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) في بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) في الجهاد والسير.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٨-٤٩).

فبين تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب المشتمل على علم ما كان وما يكون وحُكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا النبى الأمي وحده كان من الدلالة على صدقه. ولقد كانوا يعلمون نسب الأنبياء وصدقهم وأمانتهم، وأنهم لم يكذبوا على أحد منهم يومًا من الدهر، فكيف يسعهم أن يكذبوا على الله عزَّ وجلَّ، مالك الضر والنفع، الذى هو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم؟ وأى ذنب عنده أعظم من الكذب عليه، ونسبه ما ليس منه إليه.

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (سورة الحاقة: ٤٤-٤٧).

أى لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا عنه ويمنعنا منه.

★ سفينة نوح:

(أ) دعا نوح على قومه لما أخبر أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن:

روى المفسرون أن نوحًا عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرِّح ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمونه به في الطريق ويقولون أنه سيموت بعد هذا اليوم. فيعيد الله سبحانه إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك وهكذا بقى يؤذى ويُعذّب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتى ويؤمن بالله، ولكن مع هذه

المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بنى احذر هذا لا يغرنك عن دينك وآلهتك.

وقيل: إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحًا قال لأبيه: أعطني حجرًا، فأعطاه حجرًا، ورمى به نوحًا عليه السلام فأدماه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة هود:٣٦).
ورد عن ابن مسعود أنه قال: «كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكى نبيًا من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]. فلما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان، وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد، عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (سورة نوح:٢٦-٢٧). فكان بعد ذلك الطوفان.

(٢) مثل عُمر كمثل نوح عليه السلام:

روى الترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله: قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر يا رسول الله: كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: انظروا واديًا كثير الحطب فأضرموه عليهم نارًا.

فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) في أحاديث الأنبياء ومسلم (١٧٩٢) في الجهاد والسير، وابن ماجه (٤٠٢٥) في الفتن.

فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس يأخذ برأى عمر رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة»[1].

«مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة إبراهيم:٣٦). ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة المائدة:١١٨). ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (سورة يونس:٨٨)». ثم قال ﷺ: «أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق». فقال عبد الله يا رسول الله: إلا سهيل بن بيضاء فإنه سمعته يذكر الإسلام. فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء». فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة الأنفال:٦٧).

وروى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أسروا الأسرى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟»، فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟»، فقال: لا والله يا رسول الله لا أرى الذي راى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل (أى أخيه) فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان. قريب لعمر. فأضرب عنقه ومكن فلانًا من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده»[2].

(١) رواه أحمد (٣٦٢٥)، والترمذي (١٧١٤) في الجهاد، واللفظ لأحمد.

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) في الجهاد والسير، وأحمد (٢٠٨).

فهوى رسول الله ﷺ لما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» ـ الشجرة قريبة منه ـ وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ (سورة الأنفال: ٦٧) .

(٣) كلهم طوع إشارة ورهين أمر:

من ملامح حياة الأنبياء والمرسلين، توقيرهم لمصدر الأمر، لأنهم عرفوا الله فقدروه حق قدره، فكانوا طوع إشارة ورهين أمر، فهذا نبى الله نوح عليه السلام يضع السفينة اليابسة وهو يعلم أن الله مجريها ومرساها، فلم يعترض على أمر ربه، ولم يحكم عقله في موارد النصوص ويتحكم بمعقول هو في الحقيقة مجهول، بل كان منه التسليم التام لأمر الله، وتقديم النقل على العقل، وشأنه في ذلك كشأن نبى الله إبراهيم عليه السلام حين أسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام ـ صنع ذلك وهو يعلم أن الله لا يضيع أولياءه، وما زادت هاجر على قولها الله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ ولم يتأخر عليه السلام عندما رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، فرؤيا الأنبياء حق ووحى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ (سورة الصافات: ١٠٣ـ١٠٥). ولم يعترض إسماعيل، بل بادل أباه تسليمًا بتسليم فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٠٢).

وهذه أم موسى عليه السلام يتوجه إليها الأمر من الخالق جل وعلا: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة القصص: ٧). فهل تلكأت في الاستجابة لهذا الأمر الإلهي؟ لقد علمت أن ابنها سيعود إليها أوفر ما كان، لأن الله لا يخلف وعده. ولما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، قال

لهم: ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (سورة الشعراء: ٦١-٦٢). لقد كانت هلكة محققة ففرعون خلفهم والبحر أمامهم، ولكنه الإيمان واليقين الذى يصنع الأعاجيب، فيجعل العبد يثق بما في يد الله ولا يطمئن لِمَ في يد نفسه.

روى ابن أبي ملكية قال: كاد الخير أن يهلك رفعا صوتهما بحضرة رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله أمر القعقاع، وقال عمر: يا رسول الله بل أمر الأقرع فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (سورة الحجرات: ٢).

لقد صرنا نرفع صوتنا فوق صوت النبى ﷺ، بل منا من يناقش ويراجع أوامر الله ونواهيه ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة الحج: ٤٦). وصدق نبى الله نوح حين وصف لقومه داءهم فقال لهم بعد أن جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . . . ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (سورة نوح: ١٣-١٦). إلى آخر ما قال ليعرفهم بربهم فيقدروه حق قدره فإذا هم بعد ذلك يقولون: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥).

(٤) أمره ﷺ بصنع السفينة:

توجه الخطاب إلى نوح ﷺ: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (سورة هود: ٣٧).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (سورة نوح: ٢٦). ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (سورة القمر: ١٠). فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

إلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ (سورة هود:٣٦). فلا تحـزن عليهم ولا يهـمنك أمرهم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ (سورة هود:٣٧) . يعني السـفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة هود:٣٧) . أى بمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ (سورة هود:٣٧). أى تعليمنا لك مـا تصنعه ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (سورة هود:٣٧). فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يغـرز الخشب ويقطعه ييبسه فكان ذلك في مائة سنة ونجرها في مائة سنة أخرى وقيل في أربعين سنة والله أعلم.

وذكر محمد بن إسحق عند التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمـانين ذراعًا وعرضها خمسين ذراعًـا وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤًا أزورًا يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين.

وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة.

وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة.

وقيل: طولها ألفا ذراع وعرضها مائة فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعًا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسـفلي للدواب والوحـوش والوسطى للإنس والعليا للطـيور وكان بابـها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرًا غريبًا من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عبـاس أنه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلاً شـهد السفينة فحـدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتـهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك التراب بكفـه فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضـرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفـض التراب عن رأسه قد شاب، قـال له عيسى عليه السلام أهكذا أهلكت؟

قال: لا ولكني مت وأنا شاب، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير، فلما كثر روث الدواب، أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عينى الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد غرقت. قال: فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها، أن تكون أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت، قال: فقلنا يا رسول الله ألا تنطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له عد بإذن الله فعاد ترابًا».

لقد سبق أن ذكرنا أن الإسرائيليات إن وافقت ديننا قبلت، وإن خالفته رُدت، وإن لم نعلم هل وافقت أو خالفت، فذكرها حينئذ يكون على سبيل الاستئناس، وعلى هذا يُحمل ما نقله الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ وغيره من أخبار أهل الكتاب.

(٥) السخرية من نبى الله نوح والطعن بالدعوة والدعاة:

الطعن بالدعوة والدعاة أمر قديم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٥٢ـ٥٣).

وقال مشركوا العرب عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة ص: ٤).

وقال تعالى عن قوم نوح وما رموه به: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٦٠-٦٣). قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (سورة هود: ٣٨).

وفي سخريتهم منه قولان:

أحدهما - أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً.

الثاني - لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه.

قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، ومياه البحار هي بقية الطوفان، فلما سخروا من نبى الله نوح رد عليهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (سورة هود: ٣٨). أى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا وكما تسخرون من فعلنا اليوم عند بناء السفينة فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق ثم هددهم فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (سورة هود: ٣٩).

فلا توقف دعوتك ولا تمتنع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لسخرية أو استهزاء بل امض في طريقك ولا تعبأ فللباطل نهاية وقد كان أويس بن عامر - سيد سادات التابعين - يقول: نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم.

(٦) فار التنور وكان طوفان نقمة لا مطر رحمة:

كان بعض السلف يقول: أنتم تنتظرون المطر وأنا أنتظر حلول العذاب، ولم يكن متشائمًا بل كان عالمًا بالسنن، فكل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير، ولا أقل

من أن نتغير إذا تغيرت السنن الكونية من حولنا، فلنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وقد كان يتغير إذا تغير الجو أوهبت ريح، وكان يدخل الحجرة ويخرج، تحل ذلك مخافة عذاب الله.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥).

وقد جعل تعالى لنوح موعدة إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذى لا يقلع ولا يفتر، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (سورة هود: ٤٠). والأمر حينئذ كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ (سورة القمر: ١١-١٤).

وقد ذكر القرطبي في معنى التنور سبعة أقوال ثم قال: قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن الله عزَّ وجلَّ أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ (سورة القمر: ١١-١٢).

فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران الغليان، والتنور اسم أعجمي عربته العرب.

وقال ابن كثير: وأما قوله ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾. فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أى صارت الأرض عيونًا تفور حتى فار من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبي كان هذا التنور بالكوفة وعن ابن عباس عين بالهند وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة. اهـ.

ومعنى ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ . أى بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا. والدسر هي المسامير وقيل صدر السفينة أو طرفاها وأصلها ومعنى ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ . أى جزاءً لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام .

(٧) الكافر أهون على الله من الجعلان:

إذا كان يوم القيامة مُدت الأرض مد الأديم، وحُشر الدواب والبهائم والوحوش ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينهما قيل لها: كونى ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ (سورة النبا: ٤٠).

وقدُ يجعل العذاب للكافر في الدنيا قبل الآخرة، كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود، بينما تنجوا بعض البهائم والحيوانات من الدمار والهلاك، وذلك لأنها مخلوقات تسبح بحمد ربها ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (سورة الإسراء:٤٤) . في الوقت الذى ابتلع فيه الطوفان ولد نوح عليه السلام وامرأته، وإذ كانا كافرين بالله تعالى، فهلكا مع من هلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ (سورة هود: ٤٠).

قال ابن كثير: أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكرًا وأنثى فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام : ما لك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى. اهـ.

وقد ذكر القرطبي أن نوحًا ﷺ حمل معه من كل صنف زوجين اثنين يعنى ذكراً وأنثى لبقاء أصل النسل بعد الطوفان، كما حمل في السفينة من آمن به وأهله إلا من سبق عليه القول منهم أي بالهلاك وهم ابنه كنعان وامرأته وأهله كانوا كافرين.

(٨) ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (سورة هود: ٤٠)؛ ***درس لكل متعجل:***

قال ابن عباس ﷺ آمن من قومه ثمانون إنسانًا، منهم: ثلاثة من بنيه، سام وحام ويافث، وثلاث كنائن[1]. له ـ ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تُدعي قرية الثمانين بناحية الموصل.

وورد في خبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس، نوح وزوجته غير التي عوقبت وبنوه الثلاثة وزوجاتهم، وهو قول قتادة والحكم بن عيينة وابن جريج ومحمد بن كعب، وقال ابن إسحق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعًا. أي أنهم لم يتجاوزوا المائة ـ على أقصى تقدير ـ رغم أن نوحًا ﷺ ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ـ وكانوا قد ملأوا السهل والجبل، ولم يدخر ﷺ وسعًا في دعوتهم بالليل والنهار، وسراً وعلانية، أوذي فيها أبلغ الأذي، حتى أنه كان يغمي عليه فإذا أفاق، قام يعبدهم لله جل وعلا، سخروا منه واتهموه بكل نقيصة وهو يتلقى كل ذلك بإيمان ويقين ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (سورة نوح: ٧). فما كان منه إلا أن قال: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾ (سورة نوح: ٢١-٢٤).

وقد عوتب نبي الله يونس، عندما خرج من وسط قومه بعد أن أنذرهم بعذاب قريب، ولم يكن قد تلقى الأمر الصريح بالخروج، فركب البحر ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ

---

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ.

مُلِيمٌ﴾ (سورة الصافات:١٤٢). قال تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة الصافات:١٤٣-١٤٤).

- لقد دخل في ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، والليل، وظلمة بطن الحوت.

وقد ظل النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة يدعو قومه، أوذي خلالها وحوصر وحاولوا قتله، وهاجر أصحابه، واضطر للخروج من أحب بلاد الله إلى الله ومن أحب بلاد الله لنفسه الشريفة ﷺ، وفي المدينة أقيم المجتمع الإسلامي، بعد جهاد عظيم في جميع الميادين فلا ينبغي التعجل، فمن تعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه، ولا يصح أن نقيس نجاح الدعوة بقصر مدتها وكثرة المستجيبين لها، بل بمدى مطابقتها لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، أما النتائج فمردها إلى الله لا يجليها لوقتها إلا هو إن قلوب العباد ومعاني النصر والتمكين بيد الله، فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب الشرعية ونستقيم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس لنا أن نتعجل قطف الثمار قبل أوانها.

(٩) ذكر البسملة عند الركوب وعند ابتداء كل فعل:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة هود:٤١). أمر الركوب ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه، قال عكرمة: ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم، فذلك ستة أشهر وقال قتادة وزاد: وهو يوم عاشوراء، فقال لمن كان معه: من كان صائمًا فليتم صومه، ومن لم يكن صائمًا فليصمه. وذكر الطبري في هذا حديثًا عن النبي ﷺ أن نوحًا ركب في السفينة أول يوم رجب وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ففيه أرست على الجودى فصامه نوح ومن معه.

وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطاف به سبعًا، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق، ثم مضت إلى اليمن، ورجعت إلى الجودى فاستوت عليه. وقال الضحاك: كان نوح ﷺ إذا قال بسم الله مجراها جرت، وإذا قال بسم الله مرساها رست. وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل، وقد وردت النصوص تفيد مشروعية ذكرها عند الوضوء وعند الذبيحة وعند الأكل وعند الجماع وغير ذلك.

وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم»[١]. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت قراءته مداً، ثم قرا بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم»[٢].

وفي الحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»[٣]. وعند أحمد: «كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع»[٤]. ولا شك أن البسملة من أبلغ الثناء وكتابتها اقتداء بالكتاب العزيز، وكان النبى ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لهرقل عظيم الروم.

(١٠) سفينة نجاة تسير وسط أمواج كالجبال:

ركب نوح ﷺ ومن آمن معه السفينة، وكانت سفينة نجاة رغم المخاطر التي اعترضتها والأمواج العاتية التي عاقتها ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (سورةهود: ٤٢).

---

(١) رواه أبي داود (٧٨٨) في الصلاة.

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٦) في فضائل القرآن والنسائي (١٠١٤) في الافتتاح، وأبي داود (١٤٦٥) في الصلاة.

(٣) ضعف الحافظ إسناده.

(٤) رواه أحمد (٨٤٩٥) وضعفه الألباني.

الموج جمع موجة، وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعًا، وشأن هذه السفينة كسفينة السُّنة التي من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، وشأن من استقام على شرع الله وانقاد لأمر الله - في كل عصر ووقت - أن يجدف في بحار الفتن وسط أمواج عالية من الشهوات والشبهات، ولا يسعنا إلا مواصلة المسير فإما النصر وإما الشهادة وكلنا يقين، أن العاقبة للمتقين، وأن الله لا يصلح عمل المفسدين، فلابد من صبر وثبات وجهاد كبير.

(١١) ولد نوح كان كافرًا، فلماذا ناداه؟!:

تحكي لنا الآيات مناداة نوح عليه السلام لابنه لما شاهد الغرق الذي يوشك يهلكه مع الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة هود:٤٢).

وكان ابنه في الحقيقة لقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾. ونوح أيضًا نص عليه فقال ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾. وقد استبعد البعض أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرًا، وصرفوا الكلام عن حقيقته وأن نوحًا هو الذي رباه، وقيل: كان كافرًا واسمه كنعان وقيل: يام، ولا يبعد أن يكون الولد كافرًا والأب مسلمًا أو العكس فوالد إبراهيم عليه السلام كان كافرًا بنص القرآن، وقد استشكل البعض كيف ناداه مع كفره، وهو عليه السلام قد قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (سورة نوح:٢٦). فأجابوا عنه من وجوه:

الأول - أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته.

والثاني - أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، ولكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان فصار وقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾. كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكيد هذا بقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾. أي: أترك متابعتهم في الكفر واركب معنا.

والثالث ـ أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء، والذي تقدم من قوله: ﴿إلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (سورة هود: ٤٠). كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه. ويروي أن عليًا رضي الله عنه قرأ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾. والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: ﴿ابنَها﴾. بفتح الهاء يريد ﴿أن ابنها﴾. إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿نَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (سورة هود:٤٥). وأنت تقول: ما كان ابنًا، فقال: لم يقل إنه مني ولكنه قال: من أهلي وهذا يدل على قولي. والأشبه بالصواب والصحة ما ذهب إليه جمهور العلماء من أنه ولده لصلبه.

(١٢) *لم يُغني عن امرأته من الله شيئًا:*

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (سورة التحريم: ١٠). ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يغني أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب، بل ولا يستطيع دفع الهلكة عنه في الدنيا، وكان اسم امرأة نوح والهة قاله مقاتل، وذكر الضحاك أن اسمها واغلة، ومعنى فخانتاهما أي بالكفر كما قال عكرمة والضحاك.

وورد عن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، وعنه أيضًا رضي الله عنه ما بغت امرأة نبى قط، وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين، وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئًا افشياه إلى المشركين، قاله الضحاك.

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل ضيف دخّنت لُتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف، لما كانوا عليه من إتيان الرجال ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (سورة التحريم: ١٠). أي:

لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما ـ لما عصتا ـ شيئًا من عذاب الله، تنبيهًا بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة ويقال: إن كفار مكة استهزءوا وقالوا: إن محمد ﷺ يشفع لنا.

فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، ومع قربهما لهما لكفرهما، وقيل لهما: ﴿ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (سورة التحريم: ١٠). في الآخرة، كما يقال لكفار مكة وغيرهم.

(١٣) *لا جبل ولا غيره يعصم اليوم من أمر الله إلا من رحم:*

كان كنعان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق، أو أنه كان في معزل عن أبيه وإخوته وقومه وقيل: إنه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم، واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعاه إلى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (سورة هود: ٤٣).

وهذا يدل على أن الابن كان متماديًا في الكفر مصرًا عليه مكذبًا لأبيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (سورة هود: ٤٣). أي لا مانع، فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار، أو لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، أي إلا الله وهذا اختيار الطبري.

وقد ذكر العلماء أنه تعالى رحيم، وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق، وأنه لا فرار من الله إلا إلى الله، وهو نظير قوله ﷺ في دعائه: «وأعوذ بك منك».

وقال البعض وكأن في الكلام مضمر في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه والتقدير: لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم، ويبقي أن الذي رحمه الله معصوم، وقد حصل ذلك لنوح ومن آمن معه وهم الذين خصهم الله تعالى برحمته.

وقد ورد في كتب التفسير: أن الموج حال بين نوح وابنه كنعان ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (سورة هود:٤٣). قيل: أنه كان راكبًا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها، فلما رأى الماء جاء قال: يا أبت فار التنور، فقال له أبوه: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ (سورة هود:٤٢). فما استتم المراجعة حتى جاءت موعظة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق.

وقيل: أنه اتخذ لنفسه بيتًا من زجاج يتحصن فيه من الماء، فلما فار التنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك. وقيل: أن الجبل الذي آوى إليه «طور سيناء».

(١٤) لا داعي للهزيمة النفسية أمام قوة الأعداء:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة:٢٤٩).

وهذه الأمة لا تنتصر بكثرة عدد أو عتاد، وإنما تنتصر بالإيمان وقوة اليقين ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (سورة الأنفال: ١٠).

فنحن إن وثقنا صلتنا بالله تعالى لن ترهبنا ولن تهزمنا قوة مادية مهما كانت، فمن كان الله معه، كان معه الفئة التي لا تغلب والهادي الذي لا يضل والحارس الذي لا ينام ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٠). والواجب علينا أن لا ننخدع بتبجيل الأعداء وغزوهم الفكري ومبالغتهم في تضخيم قوتهم، فالقوة النووية قد تنقلب ضدهم كما حدث في تشرنوبل وأمريكا لم تستطع إيقاف إعصار أندور وفيضان المسيسبي وزلزال سان فرنسسكو. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (سورة المدثر:٣١).

فإذا أتى أمر الله قيل لهم كما قيل لكنعان ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ (سورة هود:٤٣). فبدلاً من الضعف والتخاذل والهزيمة النفسية أمام قوة الأعداء المادية، علينا أن نرجع إلى أخية الإيمان ونأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (سورة محمد:٧).

(١٥) أمره سبحانه نافذ في الجمادات فكيف لا يستسلم العقلاء لحكمه؟!:

لما انتهي أمر الطوفان ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود:٤٤). الأرض مأمورة، والسماء مأمورة والبحر مأمور، والجبل الذي آوى إليه كنعان مأمور، والسفينة التي جرت بهم إلى أن تناهى الأمر هي الأخرى مأمورة ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (سورة الحاقة:١١). فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك وأمر الأرض بالابتلاع.

قال ابن العربي: التقى الماء أن على أمر قد قدر، ما كان في الأرض، وما نزل من السماء، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ (سورة هود:٤٤).

ولو فُتِّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة وصفها، واشتمال المعاني فيها، وغيض الماء، أي نقص وما بقي منه شيء، وقُضِيَ الأمر أي أُحكِم وفُرِغ منه، يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام، تنبيهًا على أنَ كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته، وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه، ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم، أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير، وهذا قول بعض المفسرين، وهذا لو حدث لكان آية عجيبة قاهرة، ولا يبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر فكم من آية ومعجزة باهرة يمر عليها الكفار وهم معرضون.

والأشبه بالصحة أنه أهلك الولدان بالطوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم وحكى أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه، وكانت تحبه حبًا شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي ولا اعتراض على الله تعالى في أفعاله ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (سورةالأنبياء:٢٣). فضلاً وعدلاً، إذ

لا ظلم بين العباد لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد رجح النووي، أن أولاد الناس في الجنة بما فيهم أولاد الكفار، وقال هذا قول المحققين من العلماء.

وهذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ (سورة هود: ٤٤). مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه، فكلمة قيل تُشعر أنه تقرر في الفطر والعقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ (سورة هود: ٤٤). يدل على أن الله قاهر لهذه الأجسام العظيمة، متصرف فيها كيف يشاء وأراد، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وإذا كان أمره سبحانه نافذًا في الجمادات فلأن يكون أمره نافذًا على العقلاء فمن باب أولى وأحرى فسبحان من له الخلق والأمر، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى.

(١٦) *استوت السفينة على الجُودي، فأين هي الآن؟:*

بعد أن غرق أهل الأرض، أُمرت السماء أن تكف عن المطر، وأُمرت الأرض أن تبتلع المياه التي غمرتها، وعادت الحياة كما كانت على ظهر الأرض، وكانت السفينة قد وصلت إلى جبل (الجودي) إلى جانب دجلة عند الموصل في العراق، قال تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: ٤٤).

قال القرطبي: استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء، فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والطير والدواب وغيرها فصاموا شكرًا لله تعالى. وقيل: كان ذلك يوم الجمعة.

ورويُ أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت وبقى الجودي لم يتطاول تواضعًا لله، فاستوت السفينة عليه، وبقيت عليه أعوادها وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لقد بقى منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة».

وقال مجاهد: شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعًا وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه.

ولا يخفي عليك أن الانشغال بالبحث عن آثار السفينة، ومع إغفال العظة والعبرة الموجودة في قصتها، كالانشغال بالبحث عن اسم ورسم صاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فرعون، وكالانشغال المريب بالبحث والتنقيب عن آثار الفراعنة لكي نشيد بحضارة الفراعنة!! ومبلغ الرقى العمراني الذي كانوا عليه!!.

إن الواجب علينا أن نسير في الأرض سير اتعاظ مستبصرين بالسنن الشرعية والسنن الكونية. وفي معنى ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: ٤٤). وجهان:

الأول ـ أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد.

والثاني ـ أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا اهلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق.

(١٧) لما تواضع الجودي وخضع عز:

أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر، الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد قال مجاهد: شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعًا، وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه، ولذلك قيل: لما تواضع الجودي وخضع عز، ولما ارتضع غيره واستعلى ذل، وهذه سنة الله في خلقه، ويرفع من يخشع، ويضع من ترفع، ولقد أحسن القائل:

وإذا تذللت الرقاب تخضعًا ★ منا إليك فعزها في ذلها

فما ارتفع شيء من الأرض إلا وضعه الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ (سورة طه: ١٠٥-١٠٧).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمى العَضْباء وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سبُقت العضباء! فقال رسول الله ﷺ: «إن حقًا على الله ألا يرفع من الدنيا إلا وضعه»[1]. وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2]. وقال ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[3].

(١٨) رغم قربه من ابنه إلا أنه لا يعلم حقيقته:

سأل نوح ربه نجاة ابنه من الغرق معتمدًا أنه من أهله الذين وعده الله أن ينجيهم من الغرق قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ (سورة هود:٤٥) . يعني الصدق قال علماء التفسير: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ (سورة هود:٤٥). وترك قوله: ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ (سورة هود: ٤٠). فلما كان عنده من أهله قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (سورة هود:٤٥) . يدل على ذلك قوله: ﴿ وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة هود:٤٢). أي لا تكن ممن لست منهم، لأنه كان عنده مؤمنًا في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (سورة هود:٤٥). إلا وذلك عنده كذلك، إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم، وكان ابنه يُسر الكفر ويظهر الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحًا بما هو منفرد به من علم الغيوب، أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت، وقال الحسن: كان منافقًا، ولذلك استحل نوح أن يناديه، وعنه أيضًا: كان ابن امرأته، دليله قراءة على ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ وقد وصف القرطبي هذه القراءة بالشذوذ وقال: «فلا نترك المتفق عليها لها».

---

(١) رواه البخاري (٢٨٧٢) في الجهاد والسير، وأحمد (١١٥٩٩) وأبي داود (٤٨٠٢) والنسائي (٣٥٨٨) في الخيل.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨) في البر والصلة والأداب، والترمذي (٢٠٢٩) في البر والصلة، وأحمد (٧١٦٥) في المسند.

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها وأبو داود (٤٨٩٥).

﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة هود:٤٥). أي حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق، ولا راد لقضائك ولا معقب لحكمك.

(١٩) *العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب:*

حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (سورة هود:٤٦). ولما ثبت بالدليل أنه كان ابنًا فيكون المراد أنه ليس من «أهلك» دينك ولا ولايتك وهذا قول الجمهور، أو أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ولا يصح القول بأنه ولد زنا فهو باطل قطعًا، وهذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (سورة هود:٤٦).

وقد قرأ ابن عباس وعُروة ويعقوب والكسائي ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ ﴾ أي من الكفر والتكذيب واختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون ﴿ عَمَلٌ ﴾ أي ابنك ذو عمل غير صالح والولد قد يُسمى عملاً كما يسمى كسبًا. قيل لسعيد بن جبير يقول نوح: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (سورة هود:٤٥). أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً، ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدًا ﷺ أنه ابنه، وتقول: إنه ليس ابنه! نعم كان ابنه، ولكن مخالفًا في النية والعمل والدين؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (سورة هود:٤٦). ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية.

قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (سورة المجادلة:٢٢). إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والإخوان والعشائر.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (سورة التوبة:٧١). وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (سورة الحجرات:١٠). فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير رابطة الإسلام كالقومية . . . لا يجوز ولا شك

أنه ممنوع بإجماع المسلمين . . إن الإسلام رفع سلمان فارس ووضع النسيب أبا لهب، فالرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله».

وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من الأقارب إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بإخوة الإسلام ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، وهذا لا يمنع من أن ينتفع المسلم بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب، وكما انتفع شعيب برهطه كما قال تعالى عن قومه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (سورة هود:٩١). وهذا كله من هدى القرآن للتي هي أقوم.

(٢٠) قصة نوح مع ولده تسلية للخلق في فساد أبنائهم:

الواجب على الآباء أن يتعاهدوا الأبناء بطاعة الله، ولا يخفى أن الوالد قدوة لابنه، وأن الأولاد ينتفعون بصلاح الآباء إلا من سبق عليه القضاء وغلب عليه الشقاء.

ففي الحديث: «احفظ الله يحفظك»، وكان سعيد بن المسيب يطيل في صلاته ويقول لابنه: والله إني لأطيل في صلاتي رجاء أن أحفظ فيك، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (سورة الكهف:٨٢). قيل حفظ الأبناء بصلاح الآباء، والأب المذكور في الآية قيل: هو الجد الصالح، وهذا كله في الأعم الأغلب، وإلا فنبي الله أحد أولى العزم من الرسل، وهو من الصلاح والتقى بمكان، ولا يمكن أن ينُسب إلى إخلال أو تفريط في تربية ولده كنعان، أو تعاهده، ولذلك فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (سورة هود:٤٦). تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين، وقد حسد أولاد نبي الله يعقوب عليه السلام أخاهم يوسف، وكادوا له، لإبعاده عن أبيه فألقوه في غيابة الجب على غير جريرة ارتكبها، وكذبوا على والدهم إلى غير ذلك مما فعلوه.

وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس، فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات، فعلينا أن نأخذ بالأسباب ولا ندخر وسعًا، وندعوه سبحانه أن يعصمنا وأولادنا وسائر المسلمين من موجبات غضبه وسخطه.

(٢١) عتاب لا يقدح في عصمة نبي الله نوح عليه السلام:

الأنبياء معصومون من الكبائر ومن الإصرار على الصغائر، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، ولهذا لما قال نبي الله نوح: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة هود:٤٥). حصل العتاب ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة هود:٤٦) أي: أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون أو كراهية أن تكون من الجاهلين، أي: الآثمين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ (سورة النور:١٧). أي يحذركم الله وينهاكم، وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحًا عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ (سورة هود:٤٧).

وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام فشكر الله تذلله وتواضعه ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾. ما فرط من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾. أي بالتوبة ﴿أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة هود:٤٧). أي أعمالاً وقد ذكر البعض أن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام، كافر يظهر كفره، ومؤمن يعلم إيمانه، وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلومًا، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفيًا، وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (سورة هود:٤٣). وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصون عن الغرق.

وقول نوح: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (سورة هود:٤٣). لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضًا لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كافرًا فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن

مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق، إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة، وإما أن يحفظه على قمة جبل، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه، فالزلة الصادرة عن نوح ﷺ هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد لأنه كان كافرًا، وليس ذلك من باب الكبائر، وعلى كل حال فقد أتبع نبي الله نوح ذلك بالندم والتوبة والعزم على عدم العودة فيه مرة ثانية فقال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة هود:٤٧). وهذا إخبار عما في المستقبل، أي لا أعود إلى هذا العمل وبيَّن أنه لا يقدر على الاحتراز منه إلا بإعانة الله وهدايته، فلهذا بدأ أولاً بقوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ . ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقال: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة هود:٤٨).

(٢٢) *هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض:*

استقرت السفينة بجبل «الجودي» أمر الله نوحًا ومن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات منه سبحانه: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (سورة هود:٤٨). وكان نزولهم من السفينة يوم عاشوراء من المحرم، قيل بعد أن بقوا فيها (١٥٠) يومًا فصام نوح ذلك اليوم شكرًا لله وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه، وقد توارث بنو إسرائيل صيام ذلك اليوم وجاء الإسلام فأقر صيامه وقد صح أن النبي ﷺ لما قدم المدينة رأي اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نجي الله تعالى فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه[(١)].

وأخرج الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله» وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس أنه كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يومًا،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤) في الصوم، ومسلم (١١٣٠) في الصيام، وأبو داود (٢٤٤٤) في الصوم، وابن ماجه (١٧٣٤) في الصوم.

وأن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه. اهـ.

وبعد هبوط أهل السفينة إلى الأرض بدأوا في عمارة الأرض بشرع الله.

(٢٣) جميع الخلائق من نسل نوح عليه السلام:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من ذريته. على قول قتادة وغيره قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ (سورة الصافات:٧٧). فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة.

روى أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».**

وروى البزار في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج».

ذكر النقاش عن سليمان بن أرقم عن الزهري: أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح، والسِّنْد والهند والزنج والحبشة والزُط والنوبة وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح، والترك وبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يافث بن نوح، والخلق كلهم ذرية نوح.

ولهذا يسمى نوح عليه السلام (أبا البشر الثاني) لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح، حتى ابن نوح الذي لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه في السفينة كان من الهالكين.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (سورة هود:٤٨) . كل مؤمن إلى يوم القيامة، ودخل في قوله تعالى: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة هود:٤٨). كل كافر إلى يوم القيامة، وروى ذلك عن محمد بن كعب.

وعلى القول بأن الخلق كلهم من نسل نوح وذريته يكون بموت كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته أو بأنه لم يكن في سفينة نوح عليه السلام إلا من نسله وذريته، ويكون هذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (سورة الإسراء:٣). وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة.

وقال قتادة: والناس كلهم ذرية من أنجى الله من تلك السفينة.

قال مجاهد: بنوه ونساؤهم ونوح، وقيل هم ثلاثة عشر رجالاً ونساء والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم.

★ *معالم الانتصار في قصة نوح:*

ذكر د. ناصر بن سليمان العمري في كتابه [حقيقة الانتصار] ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الروم:٤٧)، أن نبي الله نوح قد حقق أعظم الانتصارات، وأن ذلك يتمثل فيما يلي:

(١) صبره وثباته طوال هذه القرون وعدم ميله إلى محاولات قومه ـ وحاشاه من ذلك ـ أو تأثيره باستهزائهم وسخريتهم. ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (سورة هود:٣٨).

(٢) حماية الله له من كيدهم ومؤامراتهم ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (سورة الشعراء:١١٦).

(٣) إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف:٦٤).

(٤) نجاة نوح ومن آمن معه ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (سورة القمر:١٥). ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (سورة الإسراء:٣). ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي

﴿الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الصافات:٧٩). ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران:٣٣).

وهكذا تتضح حقيقة النصر، من خلال قصة نوح وقومه .... إن الانتصار هو انتصار المنهج لا الأفراد، والعبرة ليس بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في المنهج الذي يحمله أولئك سواء أقلوا أم كثروا، ولذا فإن بضعة نفر أو يزيدون، ولا يتجاوزون ثلاثة عشر فردًا يحملون الإسلام ويحققون معنى العبودية، يهلك أهل الأرض جميعًا حماية لهؤلاء وللمنهج الذي يمثلونه ويحملونه مادام أن هناك خطرًا يهدد بزوالهم، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه. ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (سورة نوح:٢٧). اهـ.

★ *موازنة بين فضائل نوح وفضائل رسول الله ﷺ*[(١)]:

قال أبو نعيم: فإن قيل: فقد سمى الله نوحًا عليه السلام باسم من أسمائه الحسنى فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (سورة الإسراء:٣). قلنا: وقد سمى الله محمدًا ﷺ باسمين من أسمائه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة:١٢٨).

قال: وقد خاطب الله الأنبياء بأسمائهم: يا نوح، يا أبراهيم، يا موسى يا داود، يا يحيى، يا عيسى بن مريم، وقال مخاطبًا لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ (سورة المائدة:٤١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (سورة الأحزاب:١)، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ (سورة المزمل:١)، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (سورة المدثر:١). وذلك قائم مقام الكنية بصفة الشرف.

ولما نسب المشركون أنبياءهم إلى السفه والجنون، كلٌ أجاب عن نفسه، قال نوح: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف:٦٧).

وكذا قال هود عليه السلام، ولما قال فرعون: ﴿لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (سورة الإسراء:١٠١). قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (سورة الإسراء:١٠٢).

---

(١) من كتاب شمائل الرسول لابن كثير باختصار وتصرف.

وأما محمد ﷺ فإن الله تعالى هو الذي يتولى جوابهم عنه بنفسه الكريمة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الحجر: ٦-٧). قال الله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ (سورة الحجر: ٨). وقال تعالى: ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة الفرقان: ٥-٦) . . . . . . وساق الكثير من النصوص للتدليل على ذلك.

قال أبو نُعَيم: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فبلغ جميعُ من آمن به رجالاً ونساءً الذين ركبوا معه سفينته، دون مائة نفس، وآمن بنبينا ـ في مدة عشرين سنة ـ الناسُ شرقًا وغربًا، وانت له جبابرة الأرض وملوكها، خافت زوال ملكهم، ككسرى وقيصر، وأسلم النجاشي والأقيالُ رغبة في دين الله، والتزم من لم يؤمن به من عظماء الأرض الجزية والإيادة عن صغار، أهل نجران، وهجر، وأيْلة، وأنذَر دومةَ، فذلوا له منقادين، لما أيده الله به من الرعب الذي يسير بين يديه شهرًا، وفتح الفتوح، ودخل الناس في دين الله أفوجًا كما قال الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (سورة النصر: ١-٢).

قال ابن كثير: فكما عمت جميع أهل الأرض النقمة بدعوة نوح عليه السلام، لما رآهم عليه من التمادي في الضلال والكفر والفجور، فدعا عليهم غضبًا لله ودينه ورسالته، فاستجاب الله له، وغضب لغضبه وانتقم منهم بسببه وكذلك عمت جميع أهل الأرض بركة رسالة محمد ﷺ ودعوته، فآمن من آمن من الناس وقامت الحجة على من كفر منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧). وكما قال ﷺ: «إنما انا رحمة مهداة»[1].

وقال الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد في كتاب دلائل النبوة: ذِكْر ما أوتي نوح عليه السلام من الفضائل، وبيان ما أوتي محمد ﷺ مما يضاهي فضائله ويزيد

(١) رواه الدارمي (١٥) في المقدمة.

عليها: إن قوم نوح لما بلغوا من أذيته والاستخفاف به وترك الإيمان بما جاءهم به من عند الله، دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (سورة نوح:٢٦). فاستجاب الله دعوته، وغرق قومه، حتى لم يسلم شيء من الحيوانات والدواب إلا من ركب السفينة، وكان ذلك فضيلة أوتيها، إذ أجيبت دعوته، وشفى صدره بإهلاك قومه قلنا: وقد أوتي محمد ﷺ مثله، حين ناله من قريش ما ناله من التكذيب والاستخفاف، فأنزل الله إليه ملك الجبال وأمره بطاعته فيما يأمره به من إهلاك قومه، فاختار الصبر على أذيتهم، والابتهال في الدعاء لهم بالهداية. قلت: وهذا أحسن.

وقد تقدم الحديث بذلك عن عائشة عن رسول الله ﷺ، في قصة ذهابه إلى الطائف، فدعاهم فآذوه فرجع وهو مهموم، فلما كان عند قرن الثعالب ناداه ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد أرسلني إليك لأفعل ما تأمرني به، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، يعني: جبلي مكة اللذين يكتنفانها جنوبًا وشمالاً، أبو قُبيس وثَور فقال: «بل استأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك بالله شيئًا».

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في مقابلة قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ⑩ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⑪ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (سورة القمر:١١-١٢). أحاديث الاستسقاء عن أنس وغيره . . . وكذلك استسقى في غير ما موضع للحدث والعطش فيجاب كما يريد على قدر الحاجة المائية، ولا أزيد ولا أنقص، وهكذا وقع أبلغ في المعجزة، وأيضًا فإن هذا ماء رحمة ونعمة، وماء الطوفان ماء غضب ونقمة، وأيضًا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستسقي بالعباس عم النبي ﷺ فيسقون، وكذلك ما زال المسلمون في غالب الأزمان والبلدان، يستسقون فيجابون فيسقون، وغيرهم لا يجابون غالبًا ولا يسقون ولله الحمد، وقد نقل بن كثير - رحمه الله - قصص الأولياء ممن مشى على متن الماء، وفي قصة العلاء بن زياد الحضرمي، صاحب رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك، وهذا كله لا يقل عن نجاة نوح عليه السلام في السفينة بالمؤمنين.

★ *وختامًا: فالعلم والصلاح رحم بين أهله:*

نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ أطول الأنبياء عمرًا وهو شيخ المرسلين وأول نذير عن الشرك، وقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وسماه الله عبدًا شكورًا وجعله بعد محمد في الميثاق وقيل أنه دفن بقرب المسجد الحرام بمكة المكرمة، والمتتبع سيجد أن الله جل ثناؤه لم يقصص علينا أخبار المرسلين، وإنما ذكر بعضهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (سورة غافر:٧٨). ولم تُخل أمة من أمم الأرض من بعثة رسول لها: وبين نوح وآدم ـ عليهما السلام ـ فتة تقدر بألف عام، وبعد نوح ـ عليه السلام ـ لم يُذكر إلا الرسل الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ من ذرية نوح لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (سورة الصافات:٨٣-٨٤). وقد جعل الله تعالى في ذرية نوح وإبراهيم النبوة والرسالة فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (سورة الحديد: ٢٦).

وقصة نوح ـ عليه السلام ـ من الأخبار التي كانت غائبة من الخلق، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرفها بل قومه أيضًا ما كانوا يعرفونها نعم كانت مشهورة على جهة الإجمال، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة، ولذلك فبعد ما ذكرها سبحانه بالتفصيل في سورة هو قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة هود:٤٩). والمعنى: يا محمد فاصبر أنت ومن أمن معك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح والمؤمنون على أذى أولئك الكفار، وفيه تنبيه أن الصبر عاقبه النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح ـ عليه السلام ـ ولمن آمن معه.

مهما اشتد الأذى، وطال الطريق، فالنصر آت بإذن الله، والغمة ستنقشع، وسفينة النجاة ستطفو، حتى وإن كان الطوفان مدمرًا ومهلكًا: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الروم:٤٧).

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين


قصص الأنبياء عظات وعبر
قصة
لوط عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٧٥). والتوسم من السمة وهي العلامة، فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين. وفي الترمذي عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1]، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٧٥). فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين، وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار كما قد عرف ذلك فيهم وشوهد منهم وكان ثواب المعتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار وهذا مناسب لذكر آية النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة النور: ٣٥). عقيب غض الأبصار: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (سورة النور: ٣٠). ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ (سورة النور: ٣١)[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

(٢) راجع تفسير سورة النور لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١٥).

وكل ناظر ومتأمل في الأحداث من حوله، وكل متعظ ومعتبر بالسنن الشرعية والكونية لابد وأن يلمح بوادر الهلاك ونذر الدمار تتوالى أمام عينيه، عندما يرى الفوضى الأخلاقية والشذوذ الجنسي والإباحية تنتقل من أمريكا والغرب لبلاد المسلمين بسبب الإنبهار والهزيمة النفسية التي تعيشها الأمة حتى أخذنا النجاسات الموجودة في أمعائهم من حضارة القلق الزائفة الكاذبة، فعقدنا المؤتمرات التي يُطالب فيها بإباحة الشذوذ الجنسي وسارت مجموعات من الشاذين والمخنثين تطالب بحرية الفسق والفجور، وتواكبت معهم أبواق الضياع في وسائل الاعلام وساعد على ذلك غياب الشريعة الإلهية واستبدالها بنعرات التحلل كالديمقراطية وغيرها، ويكفي أن نعلم أن أول إصابة اكتشفت بالإيدز كانت عام ١٩٧٩ في مدينة نيويورك عند رجل شاذ جنسيًا ثم تتابعت الإصابات وكان معظمها عند رجال شاذين، اتصفت هذه الإصابات بسيرها السريع نحو الموت.

والشذوذ الجنسي «عمل قوم لوط» يعتبر أوسع الطرق لانتشار مرض الإيدز إذ بلغت نسبة الذين أصيبوا به عن هذا الطريق {٧٣%} من مجموع حالات الإيدز التي اكتشفت حتى الآن لذلك أطلقوا عليه: «طاعون الشذوذ».

لقد تناسى هؤلاء قول ربهم: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (سورة الزمر: ٥١).

وقول رسول الله ﷺ: «يا معشر المهاجرين خمس، إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم يَنقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنعوا القطرَ من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم يَنقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم،

فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله - عزَّ وجلَّ - ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[١].

إن الذنوب على اختلافها هي في نفسها أمراض تُحدث خللاً في الدين وفساداً في الأخلاق مما لا تستقيم معه أحوال المجتمع ولذلك حذر الله تعالى من المعاصي ونهي عن كل أنواع الفواحش والآثام فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣).

وقال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٠).

وقال سبحانه: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل: ٩٠). وفي الحديث: «ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش»[٢]، «وإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[٣].

ليس الأمر في ذلك مقصوراً على الذنوب الكبار، بل قد حذرنا ﷺ حتى من الذنوب الصغار التي يحقرها الناس ولا يبالون بها وهي سموم قتالة فتاكة بالقلوب، فإياكم ومحقرات الذنوب؛ ففي الحديث: «... وإن من محقرات الذنوب متي يؤخذ بها صاحبها تهلكه»[٤].

---

(١) انفرد به ابن ماجه (٤٠١٩) في كتاب «الفتن».
(٢) رواه البخاري (٧٤٠٣) في التوحيد، ومسلم (٢٧٦) في التوبة، والترمذي (٣٥٣٠) في الدعوات.
(٣) رواه مسلم (٢١٦٥) في السلام، وأبو داود (٤٠٨٩) في اللباس.
(٤) رواه أحمد (٢٢٣٠٢).

قال المناوي: إن الصغائر إذا اجتمعت ولم تكفر أهلكته. والذنوب كلها مشؤومة وعواقبها وخيمة، وقد جرت سنته تعالى في خلقه، كما مضى قضاؤه في كتابه، أن يعامل عباده حسب ما عملوا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(سورة الشورى: ٣٠).

وقال جل جلاله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة الأنفال: ٥١). فكل ما حصل أو سيحصل من بلاء وحوادث وكوارث وفساد في الأرض فبسبب الإسراف في الإجرام. قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(سورة الأنفال: ٥٣).

فالله عزَّ وجلَّ لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة فيبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والزلازل والفتن حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيعصون ربهم ويجحدون فضله عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(سورة النحل: ١١٢).

وشؤم هذه الذنوب قد يتسرب لغير المباشرين من سائر خلق الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (سورة الأنفال: ٢٥). كما حدث يوم أحد بسبب مخالفة الرماة، ودخول نبي الله موسى وأخوه هارون في التيه أربعين سنة بسبب مخالفة بني إسرائيل، فهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنه كاد الجُعْلُ ليعذب في جُحْره بذنب ابن آدم».

ولذلك كانت هذه النصيحة من قبل أن يأتي الطوفان، فاركب سفينة النجاة وقم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبر بمن مضى. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(سورة يوسف: ١١١).

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

★ *قصة لوط عليه السلام في القرآن:*

لوط عليه السلام من الرسل الكرام، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في «الأعراف» وهود والحِجْر، والأنبياء، والشعراء، والنمل والعنكبوت، وغيرها من سور القرآن، وذكرت قصته مع قومه مفصلة في بعض السور ومجملة في البعض الآخر.

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٨٠-٨٤).

وفي سورة هود بيان ما دار بين الملائكة ونبي الله إبراهيم عليه السلام من بشارتهم له بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وإخبارهم إياه بإهلاك قوم لوط.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (سورة هود: ٧٧-٨٣).

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٤-٧٥).

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٠-١٧٥).

وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة النمل: ٥٤-٥٩).

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٨-٣٥).

كما ذكرهم جل وعلا في سورة الحجر فقال: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الحجر: ٥٧-٧٧) .

وفي سورة القمر يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (سورة القمر: ٣٣-٤٠) .

★ *نسب نبي الله لـوط عليه السلام:*

هو لوط بن هاران بن تارح. . . هكذا إلى آخـر نسب نبي الله إبراهيم عليه السلام وقد بعـثه الله في زمن إبـراهيم الخليل، وهو ابن أخـيه، وإبراهيم عـمـه، فلوط هو ابن (هاران)، وإبراهيم وهاران وناحـور إخـوة وكلهم أولاد آزر، وقـد آمن لوط بعـمـه إبراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٦) .

ثم هاجر معه من العراق، وتبعه في جميع أسفاره، ثم أرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) في دائرة الأردن، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود وشعيب فقد كانوا من نفس العشيرة.

قال الفراء: لوط مشتق من قولهم بقلبي، أي ألصق، وقال النحاس: قال الزجاج: زعم بعض النحويين ـ يعني الفراء ـ أن لوطًا يجوز أن يكون مشتقًا من لطت الحوض إذا ملسته بالطين. قال: وهذا غلط، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق كإسحاق فلا يقال: إنه من السُّحق وهو البُعد، وإنما صُرف لوط لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط. قال النقاش: لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية فأما لُطت الحوض وهذا أليط بقلبي من هذا فصحيح ولكن الاسم أعجمي كإبراهيم وإسحاق.

وعلى هذا فالفاحشة التي عمل بها قوم لوط، والتي يُطلق عليها اسم اللواط ـ أو اللوطية ـ لا ينبغي أن تشتق من اسم نبي الله لوط عليه السلام لأن كلمة لوط أعجمية كما وضحنا أما اللوطية فهي لوثة وجريمة وانحراف خلقي لاتُنسب لنبي الله لوط عليه السلام، وقد ذُكرت هذه الفاحشة باسم اللوطية في بعض الروايات عند أحمد وأبو داود[1] كما ذُكرت في كتب الفقه، وهذه الكلمة لها أصل لغوي صحيح من قولهم لاط، يلوط حوضه، كما قال النقاش وغيره.

★ ***قصة قوم لوط بإيجاز كما وردت في كتب التفسير:***

أُمر نبي الله لوط عليه السلام أن يتوجه إلى (سدوم) في أطراف شرق الأردن وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم نفسًا، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في

---

(١) ذكر في حديث أبي داود برقم (٤٤٦٣)، وأحمد (٢٩٠٩).

ناديهم المنكر، وقد ارتكست فطرهم، وانتكست في الرذيلة قلوبهم وكانوا بالإضافة لكفرهم يرتكبون جريمة من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي (إتيان الذكور) دون النساء، وكانوا لجرأتهم يرتكبونها علانية أمام بعضهم البعض، فلا يستقبحون قبيحًا ولا يستترون من منكر، قد قست قلوبهم وفسدت أخلاقهم، فبعث الله إليهم لوطًا عليه السلام فدعاهم إلى الله وذكرهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى وقال لهم فيما قاله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦). فلما ألح عليهم هددوه بالطرد والإخراج: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٧).

وقالوا في معرض الاستهزاء والاستخفاف به: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (سورة النمل: ٥٦). وهذا هو منطق الطغيان والفجور في كل زمان ومكان.

وحين أراد الله عزَّ وجلَّ إهلاك أولئك الخبثاء الأشرار من قوم لوط، أرسل إليهم الملائكة وكانت لهم قرى خمسة ويزيد عددهم على (٤٠٠ ألف)، كما يذكر المفسرون، فمروا في طريقهم على إبراهيم الخليل فبشروه بغلام حليم وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل (سدوم وعامورة) فتخوف إبراهيم على لوط، وقال: إن فيهم لوطًا، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٣٢).

ولما جاءت الملائكة إلى لوط أشفق عليهم وخاف من قومه أن يسمعوا بقدومهم فيعتدوا عليهم بفعل الفاحشة، وكانت الملائكة في منتهى الحسن والجمال، وسرعان ما علم أهل القرية بمجيئهم، وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى لصرفهم عن غيهم، ولكنهم صارحوه بغرضهم السيء ورغبتهم الدنيئة، التي اعتادوها، فازداد همه وغمه، فأخبرته الملائكة بحقيقة الأمر وأنهم ليسوا بشرًا، وقد قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمر من الله لأن أهلها كانوا ظالمين.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (سورة هود: ٧٧ـ٨١).

وقد هلكت زوجة لوط مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله، وكان هلاك قوم لوط بالصيحة وقلبت بهم القرية فجعل عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل منضود، وأصبحوا بذلك عبرة للمعتبرين وآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وقد ذكر البعض أن البحر الميت، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجداً قبل أن تقلب القرية، وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه»[1]. ونخشى أن تنطمس الأبصار والبصائر، فننسى ما كان من قوم لوط وما نزل بساحتها ولا نكاد نتذكر إلا الآثار التي تدل على عظمة الأجداد وحضارتهم كمسلات وأهرامات الفراعنة!!

---

(١) البداية والنهاية (جـ١ ص١٨٢).

★ **ترسيخ الإيمان وتقويم الإنحراف:**

ما من نبي إلا وبعث بلسان قومه ليبين لهم، وما من رسول إلا وقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥).

ولم يكن نبي الله لوط عليه السلام بدعًا من الرسل فقد دعا قومه إلى الصراط المستقيم ونهاهم عن الانحراف وعالج الآفات التي استشرت في قومه، وكان أعظمها بعد الكفر بالله جريمة اللواط التي كانوا يمارسونها جهاراً، ولذلك كان هذا التركيز: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (سورة النمل: ٥٤). ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ (سورة الأعراف: ٨٠-٨١).

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ (سورة الشعراء: ١٦٥). ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٨٠).

بل بلغت بهم الوقاحة والجرأة عندما علموا بوجود الملائكة عند نبي الله لوط، أن جاءوا يهرعون ويسرعون إليه لمواقعة الفاحشة، فما كان منهم إلا أن ذكرهم بالله، وأمرهم بتقواه، ولوط عندما حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه شابه في ذلك غيره من الأنبياء في تقويمهم الانحرافات الشائعة في أقوامهم فنبي الله نوح أنكر على قومه عبادة الأصنام، كذلك إبراهيم وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وصالح أنكر عليهم الإفساد في الأرض واتباع المفسدين وشعيب قاوم جريمة التطفيف في المكيال والميزان... وهكذا. فعلى الدعاة إلى الله أن يحسنوا التأسي بالأنبياء والمرسلين في إبلاغهم الحق إلى الخلق وتوضيح المفاهيم للناس وإزالة شبهاتهم وتخولهم بالموعظة وتبشير من آمن بالجنة وتخويف من كفر بالعذاب وذلك كله لا يتحقق إلا بتعليمهم أوامر ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته ودلالتهم على السبيل التي توصلهم إلى محبته وتوضيح ما ينفعهم وما يضرهم.

قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة النساء:١٦٥). فعلى الدعاة إلى الله أن يتعرفوا على واقع المدعوين، وأنواع الافات والعلل التي تستشرى في وسطهم، وأن يصفوا لكل داء دواءه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أنزل الله داءً إلا وأنزل له دواء، وقد جعل سبحانه كتابه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وعلينا أن نعلم أن ترسيخ معاني الإيمان والعقيدة في النفوس أعظم علاج لأمراض الشهوات والشبهات، فالإنسان الذي يخشى الله ويحبه ويعلم قربه منه واطلاعه عليه... ويؤمن أن الموت حق والجنة حق والنار حق وأن الله يبعث من في القبور... ويرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً... كيف تطيب نفس مثل هذا الإنسان بعمل قوم لوط؟

★ *بعض القبائح التي نسبها أهل الكتاب إلى لوط والأنبياء:*

في التوراة المحرفة ـ التي كتبها اليهود بأيديهم... ما نصه: «فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه، وخاف أن يسكن صاغر، وآوى إلى كهف هو وابنتاه ـ فقالت الكبيرة منهما للصغرى ـ إن أبانا قد شاخ وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا، فهلمى نسقيه خمراً، ونضطجع معه، ونقيم من أبينا خلفًا، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لايعلم عند اضطجاع ابنته ولا نهوضها... ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: هو ذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقيه خمراً في ليلتنا هذه أيضًا، فادخلى فاضطجعى معه فنقيم نسلاً من أبينا فسقيا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضًا ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها، ولم يعلم عند اضطجاعها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، وولدت الكبرى ابنًا ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابيين إلى يومنا هذا وولدت الصغرى أيضًا ودعت اسمه (عمان) فهو أبو العمانيين إلى اليوم «سفر التكوين ١٢٨».

وأن نبي الله هارون صنع عجلاً وعبده مع بني إسرائيل، إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج.

وأن إبراهيم الخليل قدم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها، إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين.

وأن يعقوب سرق مواشي من حميه وخرج بأهله خلسة دون أن يعلمه «سفر التكوين إصحاح (٣١) عدد (١٧)».

وأن راوبين زني بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب علم بهذا الفعل القبيح وسكت «سفر التكوين إصحاح (٣٥) عدد (٣٢)».

وأن داود زني بزوجة رجل من قواد الجيش ثم دبر حيلة لقتل الرجل، وبعد ذلك أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه فولدت له سليمان... سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١).

وأن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبني لها المعابد، سفر الملوك الأول اصحاح (١١) عدد (٥).

هذه بعض القبائح التي نسبها اليهود للأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ.

وأما النصارى فإنهم لا يعتقدون بعصمة الأنبياء وذلك بناء على عقيدتهم بألوهية المسيح عليه السلام فهو وحده المعصوم، وكل البشر بما فيهم الأنبياء يخطئون، وليس هناك شفيع ولا مخلص سوى المسيح، لأن المخطئ لا يخلص المخطئين، على حد تعبير الإنجيل المغير والمبدل.

إن إيمان هؤلاء بحاجة لإيمان، وإلا فهم لم يؤمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر... ولذلك كانت سلوكياتهم فاسدة كأفكارهم وعقائدهم المنحرفة والسلوك كما يقولون مرآة الفكر، ثم هؤلاء لم يأخذوا درسًا وعظة من قوم لوط ولا

من غيرهم ممن أهلكهم الله، معاذ الله أن يفعل ذلك لوط وغيره من الأنبياء، مما نسبه إليهم اليهود والنصارى، فقد عاش الأنبياء حياة الإيمان وكانت دعوتهم للتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ما استحقوا به أن يكونوا أسوة البشر وقدوة الخلق ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠).

وفي مواجهة هذه العقائد الزائفة لايسعنا إلا أن نردد قول ربنا: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٨٠-١٨٢). فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين:

لم ينجومن العذاب الذي نزل بقوم لوط إلا من تبع نبي الله لوط ﷺ ولم يكن إلا ابنتاه، قال تعالى مخبراً عن قوم لوط: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ (سورة القمر: ٣٣-٣٤). أي ريحًا ترميهم بالحصباء وهي الحصى، قال تعالى: ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ (سورة القمر: ٣٤). والسحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ (سورة القمر: ٣٥) . أي إنعامًا منا على لوط وابنتيه ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ (سورة القمر: ٣٥). أي من آمن بالله وأطاعه.

وهذا المعنى المذكور في سورة القمر ورد مثله في سورة الذاريات يقول الله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات: ٣٥) . أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين، لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ (سورة الحجر: ٦٥).

قال تعالى ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة الذاريات: ٣٦). يعني لوطًا وابنتيه، فسماهم في الآية الأولى مؤمنين وفي الآية الثانية مسلمين.

وقيل الإيمان تصديق القلب والإسلام الإنقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه وقد يتواجد أصل الإيمان الذي يمنع الإنسان من الدخول في عداد المنافقين كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (سورة الحجرات: ١٤). وهذا على أحد التفسيرين، ولكن ليس معه الإيمان المطلق الذي يستحق به هذا الوصف: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (سورة الحجرات: ١٥).

وعمومًا فالإسلام والإيمان إذا اجتمعا في نص افترقا في المعنى، وإذا افترقا ـ أي جاءت كلمة الإسلام أو الإيمان في نص بمفردها ـ اجتمعا في المعنى ودخلت أركان الثانية في معنى الكلمة الأولى كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (سورة آل عمران: ١٩). فالإسلام الذي يرضي عنه ربنا يدخل في معناه أركان الإيمان.

﴿ بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢٦ـ٢٨).

وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال له: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاد فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (سورة التوبة: ١١٢). وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (سورة القصص: ٥٦)[١].

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٦٠) في الجنائز، ومسلم (٢٤) في الإيمان، والنسائي (٢٠٣٥) في الجنائز، وأحمد (٢٣١٦٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي يا معاذ: «أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»[(١)] .

فمن أراد السلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة فعليه بالإستقامة على شرع الله، أما من حاد عن أمره وكفر بشرعه سبحانه فلا يلومن إلا نفسه، وعليه أن يضع هذه الأمثلة المضروبة نصب عينيه ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف:٨٣).

★ *نتن الفعل وانتكاس الفطرة:*

تجمع في قوم لوط عدة قبائح ورذائل بالإضافة لكفرهم فكانوا كما وصفهم ربهم جل وعلا: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة العنكبوت:٢٨).

يعني إتيان الذكور دون الإناث، وهي فعلة اللواط التي وجدت فيهم ولم يسبقهم في فعلها أحد. ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (سورة العنكبوت:٢٩). قيل: كانوا قطع طرق، قاله ابن زيد، وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة، حكاه ابن شجرة، وقيل: إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال، قاله وهب بن منبه، أي استغنوا بالرجال عن النساء.

قال القرطبي: ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ويستغنون عن النساء بذلك. ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ (سورة العنكبوت:٢٩).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦) في الجهاد والسير، ومسلم (٣٠) في الإيمان، والترمذي (٢٦٤٣) في الإيمان، وأحمد (٢١٥٠١).

النادي: المجلس واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذفون النساء بالحصى ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم، وقيل: إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به، يعني يذهب به للفاحشة، وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضًا.

وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

قال ابن عطية: وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد ﷺ فالتناهي واجب.

قال مكحول: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحناء، ووصل الإزار، وتنقيض الأصابع (فرقعتها)، والعمامة التي تلف حول الرأس، والتشابك، ورمى الجُلاَهق (كعلابط البندق) والصفير والخذف، واللوطية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضًا، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ويتنافرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويطرِّفون أصابهم بالحناء، وتتشبه الرجال بلبس النساء والنساء بلبس الرجال، ويضربون المكوس (الضرائب) على كل دابر ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق، فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج.

الاعتراف بالحق فضيلة وجحده رذيلة، والتوحيد طهارة والشرك نجاسة ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (سورة التوبة:٢٨). وذلك لدنس قلوبهم حتى وإن تنظفت أبدانهم، فلا طهارة حقيقية لهم إلا بالرجوع لمعاني الإيمان، فكيف إذا ما انضاف لكفرهم هذه القبائح، ومن المعلوم أن المعاصي قاذورات كما ورد في الحديث: «من أتى شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»[1]. لقد أتوا هذه النجاسات على الملأ دون استتار وبلا خوف من خالق أو حياء من مخلوق، وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت، والحياء والإيمان قرنا جميعًا فإذا رفُع أحدهما رفُع الآخر.

*** نكسوا لانتكاسهم وأبدوا بحيرة منتنة لنتن خصالهم:**

ارتكست عقولهم وانتكست فطرهم، وأظلمت قلوبهم، وكان منهم فاعل ومنهم راضٍ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه، وهي حكمة الله وسنته في عباده، وكان جزاؤهم من جنس عملهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ (سورة هود:٨٢).

قيل: إن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس «سدوم - وهي القرية العظمى - وعاموراء، ودادوما، وضعوه، وقتم» فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رءوسهم وأتبعهم الله بالحجارة، قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (سورة هود:٨٢) . قال قتادة وعكرمة: السجيل الطين بدليل قوله: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ (سورة الذاريات:٣٣).

---

(١) موطأ مالك (١٥٦٢) في الحدود من رواية زيد بن أسلم.

وقال الحسن: كان أصل الحجارة طينًا فشددت، والسجيل عند العرب كل شديد صلب.

قال ابن عباس منضود أي متتابع، وقال قتادة: نُضد بعضها فوق بعض، وقال الربيع: نُضد بعضه على بعض حتى صار جسدًا واحدًا.

يقول تعالى: ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (سورة هود:٨٣). أي معلمة وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمى به، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض. ثم لما كانت فعالهم نتنة أبدلوا بهذه القرى التي عاشوا فيها بحرة منتنة كما يقول ابن كثير: «وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودنائتها، فصارت عبرة ومثلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه».

كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه سنة من سنن الله في خلقه ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد:١١) . وقال: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ (سورة الرحمن: ٦٠).

وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك».

وفي الحديث: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء.

وقالوا: من أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال سفيان الثوري: إن ذنوبًا ولت علينا هؤلاء لذنوب جسام: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام:١٢٩). ولما قال البعض للحسن: لا أستطيع قيام الليل، قال: قيدتك خطاياك، وقالوا: من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يفعله. ولما تساءل البعض يوم أحد بسبب كثرة القتل وتحول النصر إلى هزيمة، قالوا: ﴿ أَنَّىٰ هَذَا ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥). كانت الإجابة: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (سورة التوبة: ٤٦).

وهكذا فشواهد ذلك كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وبذلك نطقت أقوال أهل العلم.

*** آية للذين يخافون العذاب الأليم:**

لما أهلك سبحانه قوم لوط قال: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ (سورة الذاريات: ٣٧). أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم والآية المتروكة هي نفس القرية الخربة أو الحجارة التي رُجموا بها ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (سورة الذاريات: ٣٧). لأنهم المتفعون.

كان سُمَيط يقول: أتاهم من الله وعيد وقذهم (أمرضهم) فناموا على خوف وأكلوا على تنغيص، وكان الحسن يقول: إن لله عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وقال البعض: أكلهم أكلُ المرضى ونومهم نوم الفرقى (الخائفين)، وقال أحمد بن حنبل: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وقيل: صلى زُرارة بن أبي أوفى بالناس فقرأ «المدثر» فلما بلغ: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ (سورة المدثر: ٨). خر ميتًا وكان عتبة الغلام طويل البكاء فقيل له: ارفق بنفسك فقال: إنما أبكي على تقصيري وقال مالك بن دينار: رأيت جويرية تطوف بالبيت وتقول: يارب كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها، يارب ما كان لك عقوبة إلا بالنار؟ فما زالت كذلك إلى الصباح.

ياعجبًا كيف تنام عين مع مخافة، أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة.

ذكرت نفوس القوم العذاب فأنَّت، وتفكرت في شدة العتاب فأرنّت، أزعجها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنت.

قال مالك بن دينار: وددت أن الله عزَّ وجلَّ أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم أنه قد رضي عني ثم يقول: يا مالك كن ترابًا.

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلب؟ أيـن الكثير المال الطويل الأمل؟ أما خلا في لحده وحَده بالعمل، أين من حبس ذيل الخيـلاء غافلاً ورفل؟ أما سافر عنا وإلى الآن ما قفل؟ أين من تنعم في قصره وفي قبره قد نزل؟ فكأنه في الدار ما كان وفي اللحد لم يزل، أين الجبابرة الأكاسرة العتـاة الأول؟ ملك أموالهم سواهم والدنيا دُوَل، خلا والله منهم النادى الرحـيب، ولـم ينفـعهم طول البكاء والـنحيب، وعـاينوا من هول المطلع كل عجـيب، وسئل عاصـيهم فلم يدركـوا كيف يجيب، أين قـوم نوح وعاد وثمود؟ أين قوم لوط؟ رحلوا إلى البلى أفواجًا بعد أفواج وسارت بهم الليالي والأيام سيرًا حثيثًا، فأسلمـتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (سورة هود:١٠٢-١٠٦).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم وهم خائفين» [١].

فتـدبروا الأمور تدبر ناظر، واصـغوا إلى ناصـحكم والقلب حاضـر، واحذروا غضب الحليم وهتك الساتر، وتأهبوا للحِمـام فسيوفه بواتر، وهاجروا إلى دار الإنابة بهجران الجرائر، وصـابروا عدوكم مصابرة صابر، وتهيأوا للـرحيل إلى عسكر المقابر قبل أن ينـدم العاصي ويخسـر الفاجـر وتصعد القـلوب إلى أعلى الحناجر، فـتأملوا عواقب مصيركم فاللبيب يرى الآخر.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢١) في تفسير القرآن، ومسلم (٣٥٩) في الفضائل.

★ **وما هي من الظالمين ببعيد:**

أعقب الله سبحانه ذكر عذاب قوم لوط عليه السلام بقوله: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (سورة هود:٨٣). وفيها للمخالفين فالشرع لا يخالف بين المتساويين، وكما أنزل العذاب بساحة قوم لوط ينزل بغيرهم ممن عمل بعملهم.

وقد ذكر القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: (يعني قوم لوط أي لم يكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرهب قريشًا المعنى ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (سورة هود:٨٣). وفي رواية عنه عليه السلام: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك») ا هـ.

فما من ظالم إلا وهو معرض لحجر يصيبه من ساعة إلى ساعة عذاب قريب ليس ببعيد عن الظلمة، حتى وإن ادعوا القوة والتطور المادي والتقدم التكنولوجي، فليسوا معجزين ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة يس:٨٢).

وقد رأينا ماذا عمل إعصار أندرو وفيضان المسيسبي بالأمريكان، فهل استطاعوا دفعًا لهذه النذر؟ والزلازل تدك مدنًا بأكملها في اليابان وتركيا وغيرها فهل منعها مقياس ريختر أو معامل الأمان الزلازلي.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (سورة الطلاق:٩).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (سورة الإسراء:١٦).

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (سورة النساء: ١٢٣).

عن كردوس التغلبي، قال: حدثني رجل من أهل المسجد ـ مسجد الكوفة ـ كان أبوه ممن شهد بدراً قال: مررت على قرية تتزلزل فوقفت قريبًا أنظر فخرج معي رجل فقُلت: ما ورائك فقال: تركتهـا تزلزل وإن الحائطان ليصطكان ويُرمى بعضها ببعض، فقلت: وماكانوا يعملون؟ قال: كانوا يأكلون الربا.

وعن هشام قال: اغتم ابن سيرين مرة فقيل له: يا أبا بكر ما هذا الغم؟ قال هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

قال محمـد بن كعب القرظي: إنما الدنيا سوق خـرج الناس منها بما يضرهم وبما ينفعهم، وكم اغتر ناس فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لايعذرهم، فيحق لنا أن ننظر إلى ما نغلبـهم به من الأعمال فنعملها وإلى ما نتخوف فنجتنبها.

وقال ابن يحيى بن معاذ: المغـبون من عطل أيامه بالبطالات وسلط جوارحه على الهلكات ومات قبل إفاقته من الجنايات.

وقال ابن الجوزي: إنما يقـع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقي غـداً رغبً أفعالك وقد قصدنا إصلاح حالك، فإن كنت متيقظًا فاعمل لذلك وإن كنت نائمًا فانتبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (سورة النساء: ١٢٣).

★كان يأوي إلى ركن شديد:

لما رأى نبي الله لوط عليه السلام استـمرار قومـه في غيهم، وضـعف عنهم ولم يقدر على دفعـهم، تمنى لو وجد عونًا على ردهم، فقـال على جهة التفـجع والإستكانة ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (سورة هود: ٨٠)، أي الالتجاء والانطواء إلى

العشيرة والمنعة بالكثرة لرد فساد قومه والحيلولة بينهم وبين ما يريدونه من مواقعة الفاحشة مع أضيافه وقد بلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى، فيروي أن الملائكة وجَدت عليه حين قال هذه الكلمات وقالوا إن ركنك لشديد.

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[1]، وخرجه الترمذي وزاد: «**ما بعث الله بعده نبيًا إلا في ثروة من قومه**»[2] حديث حسن قال محمد بن عمرو والثروة الكثرة والمنعة.

ويروي أن لوطًا عليه السلام لما غلبه قومه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرسل تنح عن الباب، فتنحى وانفتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون النجاة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ (سورة القمر: ٣٧).

وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوُّر الجدار، فلما رأت الملائكة مالقى من الهد والكرب والنصب، قالوا يالوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقًا ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قومًا هم أسحر من على وجه الأرض وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى، يتوعدونه.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥١) في كتاب الإيمان.

(٢) رواه الترمذي (٣١١٦).

قال تعالى مخبرًا عن الملائكة: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (سورة هود: ٨١).

فكان الصبح ميقاتًا لهلاكهم لأن النفوس فيه أودع والناس فيه أجمع، وخرج لوط هو وابنتاه وطوى الله لهم الأرض حتى نجوا.

★ وأنت كذلك لست وحدك:

مهما كثر الأعداء من حولك، واشتدت بك الخطوب، وكثرت من حولك الفتن، فلا تجزع ولاتيأس، بل استمسك بحبل الله المتين وبذكره الحكيم وصراطه المستقيم ووثق صلتك بالله، واستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله. واعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (سورة النحل:١٢٨). فمن كان الله معه فمن عليه، معه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل، فلو كادتك السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، لجعل الله لك من بينهن فرجًا ومخرجًا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (سورة الطلاق:٢-٣). ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (سورة الطلاق:٤). وتحسس معية التوفيق والتسديد والإحاطة، وأحسن التأسي بالأنبياء والمرسلين، فإنه لما قالت بنو إسرائيل: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (سورة الشعراء:٦١). وكان البحر أمامهم وفرعون ورائهم، قال لهم نبي الله موسى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (سورة الشعراء:٦٢). ولما قال عندما وجهه سبحانه لفرعون: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ (سورة طه:٤٥). قال سبحانه: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (سورة طه:٤٦).

ويوم الهجرة لما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحزن إن الله معنا، مابالك باثنين الله ثالثهما».

إنه اليقين في نصرة الله لعباده المؤمنين، والثقة في وعده سبحانه الذي لا يتخلف عن المتقين، ولذلك ارتبطت القلوب بخالقها في جلب النفع ودفع الضر، وعلمت أن الله كافيها ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (سورة الزمر:٣٦). ولذلك قال نبي الله إبراهيم عليه السلام: حسبي الله ونعم الوكيل يوم ألقى في النار، فكانت بردًا وسلامًا عليه وكان هو أمة، وقالها رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وصحابته الكرام يوم حمراء الأسد: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران:١٧٣-١٧٤).

وكان هذا هو شأنهم يوم الأحزاب لم يتزعزع يقينهم على الرغم من شدة البرد وشدة الجوع وكثرة جموع الكفر الذين أتوا بخيلهم وخيلائهم.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (سورة الأحزاب:١٠-١١). ما كان قولهم يومئذ إلا أن قالوا: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب:٢٢). وكان من نتيجة ذلك ما حكاه سبحانه: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (سورة الأحزاب:٢٥). لله جنود السموات والأرض، وهو سبحانه رب كل شئ ومليكه، هو سبحانه القادر النافع الضار المعطي المانع المحي المميت، مالك الملك وخالق الخلق ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة يس:٨٢).

فأنت لست وحدك، فاعتز بإيمانك حتى لو كنت وسط جحافل الكفر، واهتف بأمتك أن تثبت على الحق وتطبق الشرع وترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا تلتفت لقوى الشر المادية من الأمريكان وغيرهم، فكل هؤلاء في قبضته، والله غالب على أمره ومتم نوره ولو كره الكافرون.

★ التوبة من عمل قوم لوط:

لقد فتح سبحانه أبواب الرجاء حتى لمن قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ (سورة المائدة: ٧٣). وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (سورة الأنفال: ٣٨).

فالتوبة النصوح تمحو كل ذنب كفرًا كان فما دونه عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو آتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لآتيتك بقرابها مغفرة»[(١)].

يقول ابن تيمية في تفسير سورة النور ما نصه: وقال عن قوم لوط: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٤).

وقال اللوطي عن لوط وأهله: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٨٢).

قال مجاهد: عن أدبار الرجال، ويقال في دخول الغائط: أعوذ بك من الخبث والخبائث ومن الرجس والنجس والخبيث والمخبث وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها، وهي لاتزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها، فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن اغتسل بالماء من الجنابة فذلك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه، فإن تلك نجاسة لا يرفعها الاغتسال بالماء، وإنما يرفعها الإغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات.

عن مجاهد قال: لو أن الذي يعمل يعني عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسًا.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني والترمذي (٣٥٤٠) في الدعوات، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٣٣٨) عن أنس رضي الله عنه.

ورواه ابن الجوزي: وروى القاسم بن خلف في كتاب ذم اللواط بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو أن لوطيًا اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقى الله غير طاهر، وقد روى أبو محمد الخلال عن العباس الهاشمى ذلك مرفوعًا، وحديث إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود «اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا» ورفع مثل هذا الكلام منكر وإنما هو معروف من كلام السلف.

وكذلك روى عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته: **«من نكح امرأة في دبرها أو غلامًا أو رجلاً حُشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم، ويحبط الله عمله، ولايقبل منه صرفًا ولا عدلاً ويجعل في تابوت من نار ويسمر عليه بمسامير من حديد فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده»**، قال أبو هريرة: هذا لمن لم يتب، وذلك أن تارك اللواط متطهر، كما دل عليه القرآن، ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجسًا، فإن ضد الطهارة النجاسة. اهـ.

التوبة من اللواط ونحوه تكون بأن يستغفر الإنسان باللسان ويندم بالقلب ويقلع بالجوارح، وعلى الإنسان أن يتباعد بنفسه عن الأماكن والأسباب التي تعينه على معصية الله وأن يكثر من التفكر في الموت والقبور والآخرة ويسابق الريح في طاعة الله ومرضاته «واتبع السيئة الحسنة تمحها» ويقول بلسان حاله قبل مقاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (سورة طه: ٨٤).

وأن يعلم أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء، فيستعصي على وساوس شياطين الإنس والجن، ويلزم الصالحين من عباد الله، ويكثر من التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويعرض نفسه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وينظر للمعصية والفاحشة على أنها لذة ساعة وألم دهر فيستحى من اطلاع الله عليه وقربه منه وقدرته عليه.

خل الذنوب صغيرها ◘★◘ وكبيرها فهو التقي
واصنع كماش فوق ◘★◘ أرض الشوك يحذر ما يرى
ولا تحقرن صغيرة إن ◘★◘ الجبال من الحصى

وكان الإمام أحمد ينشد ويقول:

إذا خلوت الدهر يومًا فلا تقل ◘★◘ خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ◘★◘ ولا أن ما يخفي عليه يغيب

فالله الله في نفسك، احذر أن يراك حيث نهاك وأن يفتقدك حيث أمرك فلست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، إليه المرجع والمآب، إن المعصية نذالة ومهانة، وكذلك قال البعض: رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة.

★ *أضرار اللواط:*

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم، وهي من الفواحش المفسدة للخلق وللفطر وللدين والدنيا، بل وللحياة نفسها، وقد عاقب الله عليها بأقسى عقوبة، فخسف الأرض بقوم لوط وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة، واللواط من جملة الكبائر المحرمة. وقد ورد في وصف رسول الله ﷺ أنه: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (سورة الأعراف:١٥٧).

واللواط من جملة الخبائث التي تترتب عليها أوخم العواقب وأشد الأضرار. ولذلك قال الشوكاني: ما أحق مرتكب هذه الجريمة، ومقارفي هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين، ويعذب تعذيبًا يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم من أحد من العالمين، أن يَصْلَى من العقوبة بما يكون في الشدة والشفاعة مشابهًا لعقوبتهم، وقد خسف الله تعالى بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم.

* **ومن أهم أضرار اللواط وأشدها خطورة::**

(أ) الإيدز (إنهيار وسائل الدفاع الطبيعية في الجسم):

هذا المرض هو طاعون الشذوذ وحصاد مخالفة الفطرة التي فطر الناس عليها، لقد ظهر هذا المرض ولا أحد حتى الآن ـ وقت كتابة السطور ـ يعرف كيف بدأ، ولا من أين يأتي، وما علاجه ـ إلا الله ـ على الرغم من ذيوعه وانتشاره وتضافر همم الحكومات والباحثين والعلماء على معرفة ذلك، فهو من أكبر التحديات للطب الحديث، وقد قاربنا على العشرين سنة منذ بدأ اكتشافه سنة ١٩٧٩، فالمصابون به يموتون أمام الأطباء دون أن يتمكن هؤلاء من إنقاذهم، وبإصطلاح الأطباء فإن نسبة الوفيات بين المصابين بهذا المرض تقرب من ١٠٠٪ ، ويعم الدنيا ـ وأمريكا وأوربا وجنوب شرق آسيا بصفة خاصة ـ موجة عارمة من الذعر والهلع بسبب هذا المرض الفتاك، الذي ظهر في أمريكا ثم انتشر منها بسرعة إلى كثير من البلدان، وقد قرر الباحثون أن عدد الحاملين للمرض في أمريكا يقارب مليون شخص وفي ألمانيا الغربية ١٠٠ ألف وأن ٩٨٪ منهم لا يزالون غير مكتشفين وغير معروفين.

إن معاناة المصابين بهذا المرض لم تقف عند حد آلامه والرعب من المصير المحتوم الذي سيؤلون إليه بل صار الناس يفرون من المطاعم والفنادق والأماكن التي يتواجد أو يخدم بها الشاذون جنسيًا، بل قد صار منبوذًا حيًا وميتًا وتعتبر الإصابة بالإيدز في الولايات المتحدة الأمريكية أعلى النسب إذا قورنت بغيرها من البلدان حيث يتواجد بها عشرة ملايين شاذ جنسيًا على الأقل، وأكبر تجمعاتهم ونواديهم في نيويورك وسان فرانسسكو وغيرها. . . والشذوذ عندهم ظاهرة اجتماعية يقف ورائها سياسيون واقتصاديون وعلماء اجتماع!!

أما الوسائل والطرق الرئيسية لانتقال فيروس ـ الإيذر ـ فهي:

أولاً ـ السائل المنوى، ويتم انتقال السائل المنوى من شخص إلى آخر بإحدى الطرق الآتية:

(١) الشذوذ الجنسي «عمل قوم لوط»: وتبلغ نسبة الذين أصيبوا بالإيدز عن هذا الطريق ٧٣٪.

(٢) الزنى الجماعي.

(٣) التلقيح الصناعي: فإذا كان الرجل مصابًا بالإيدز فإن الأنثى وجنينها يصابان بهذا المرض.

ثانياً ـ الحقن الوريدية الملوثة، وتدل الإحصائيات على أن الإدمان مسئول عن ١٧٪ من حالات الإيدز المعروفة إلى الآن، وأن إعطاء الدم الملوث يسبب ٢٪ من الحالات.

وقد ينتقل المرض من الأم المصابة لجنينها بواسطة الدم أو بواسطة الحليب بعد الولادة وهناك احتمال لانتقاله عن طريق التقبيل ـ أي مع اللعاب واحتمال أقل أن يكون للبعوض ـ في الدول الأفريقية ـ دور في نقل هذا المرض، من المصاب إلى السليم.

ويشكل الشذوذ الجنسي والزنى وإدمان المخدرات نسبة ٩٢-٩٥٪ من مجموع حالات الإيدز التي تم تشخيصها حتى الآن.

وليس كل من أصيب بفيروس الإيدز تظهر عليه أعراض المرض وإن أصبح ناقلاً لغيره ونسبة الذين تظهر عليهم أعراض مرض الإيدز قليلة جدًا وخطورتهم تعتبر أقل من الذين لا تظهر عليهم أعراضه، لتحذر الناس منهم، والأعراض التي تظهر كثيرة منها:

- إنهاك عام شديد وتضخم الغدد اللمفاوية.
- نقص شديد في الوزن، وارتفاع في درجة الحرارة وسعال جاف وصعوبة في التنفس.
- طفح جلدي مع التهابات في الفم والحلق وإسهالات شديدة ومزمنة وظهور الإنتانات الانتهازية التي ربما تكون المباشر للموت.

❑●★●❑

(٢) الرغبة عن المرأة[1]:

من شأن اللواطة أن تصرف الرجل عن المرأة، وقد يبلغ بـه الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتـعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتـزوج، فإن زوجتـه تكون ضحيـة من الضحايا، فـلا تظفر بالسكن ولا بالمودة، ولا بالرحمـة التي هي دستور الحياة الزوجـية، فتقضي حـياتها؟ معذبة معلقة، لا هي متزوجة ولا مطلقة.

(٣) التأثير في الأعصاب:

إن هذه العـادة تغزو النفس، وتؤثر في الأعـصاب تأثيـرًا خاصًـا: أحد نتـائجه الإصابة بالإنعكاس النفسي في خلق الفرد فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلاً، وينقلب الشـعور إلى شذوذ به ينعكس شعور اللائط إنـعكاسًا غريبًا، فيـشعر بميل إلى بنى جنسه، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية.

ومن هذا تستطيع أن تتـبين العلة الحقيـقة في إسراف بعض الشبـان الساقطين في التزين وتقـليدهم النساء، في وضـع المساحيق المخـتلفة على وجـوههم ومحـاولتهم الظهور بمظهر الجمال بتحمير أصداغهم، وتزجيج حواجبهم وتثنيهم في مشيتهم، إلى غير ذلك مما نشاهده جميعًا في كل مكان، وتـقع عليه أبصارنا في كثير من الأحيان، ولقد أثبـتت كتب الطب كـثيرًا من الوقـائع الغريبة التي تـتعلق بهذا الشـذوذ أضرب صفـحًا عن ذكـرها. ولا يقتـصر الأمـر على إصابة اللائط بالانعكاس النفـسي، بل هنالك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك، وما تحدثه من جعله عرضـة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسـية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفـة الإنسانية والرجولة، فتحيى فيـه لوثات وراثية خاصة وتظهر عليه آفات عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة، وتدعو إلى تسلطها عليه.

---

(١) انظر فقه السنة (جـ٩ ص١٥٧).

ومـثل هذه الآفات العـصبـية النـفسـية: الأمـراض السادية، والماسـوشيـة، والفيتشزم وغيرها.

(٤) التأثير على المخ:

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالاً كبيرًا في توازن عقل المرء، وارتباكا عامًا في تفكيره، وركـودًا غريبًا في تصوراته، وبلاهة واضـحة في عقله، وضعـفًا شديدًا في إرادته، وإن ذلك ليـرجع إلى قلة الإفـرازات الداخلية التي تفـرزها الغـدة الدرقيـة، والغدد فوق الكلى، وغيـرها مما يتأثر باللواط تأثرًا مباشرًا، فيـضطرب عملها وتختل وظائفها، وإنك لتجـد هنالك علاقة وثيقة بين «النيورستاتيـا» واللواط، وارتباطًا غريبًا بينهما، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد.

(٥) السويداء:

واللواط إما أن يكون سـببًا في ظهور مـرض السويداء أو يغدو عامـلاً قويًا على إظهاره وبعـثه ولقد وجـد أن هذه الفاحشـة وسيلة شديدة التـأثير على هذا الداء من حيث مـضاعفـتها له وزيادة تعـقيدها لأغـراض ويرجع ذلك للشذوذ الوظيـفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم.

(٦) عدم كفاية اللواط:

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشبـاع العاطفة الجنسية، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، ولا تقوم بإرضاء المجموع العصبي، شديدة الوطأة على الجهاز العضلي، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن.

وإذا نظرنا إلى فيسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المبـاشرة ثم قـارنا ذلك بما يحدث في اللواط وجـدنا الفرق بعـيدًا والبـون بين الحالتين شاسعًا، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للوضع الشاذ.

(٧) ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه:

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببًا في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه، وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعته القبض عليها، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور.

(٨) علاقة اللواط بالأخلاق:

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئى الخلق فاسدى الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل، ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسي عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيرًا ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب.

(٩) اللواط وعلاقته بالصحة العامة:

اللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ويرزؤهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأوصاب.

(١٠) التأثير على أعضاء التناسل:

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه، ويؤثر على تركيب مواد المنى، ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال.

(١١) *التيفود والدوسنطاريا:*

ونستطيع أن نقول: إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدوسنطاريا وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنتقل بطريق التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض.

(١٢) *أمراض الزنا*[١]:

ولا يخفي أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريق اللواط أو تصيب أصحابه فتفتك بهم فتكًا ذريعًا فتبلى أجسامهم... وتحصد أرواحهم.

مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريم اللواط، وتظهر دقة أحكامه في التنكيل بمقترفيه والأمر بالقضاء عليهم وتخليص العالم من شرورهم.

* *حكم اللواط:*

ذكر ابن قدامه في (المغني) جـ (٨) صـ ١٨٧ ما نصه: «أجمع أهل العلم على تحريم اللواط وقد ذمه الله تعالى في كتابه وعاب من فعله وذمه رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٨٠-٨١). وقال النبي ﷺ: «لعن الله من عَمِل عَمَل قوم لوط، لعن الله من عمِل عَمَل قوم لوط، لعن الله من عَمِل عَمَل قوم لوط»[٢].

واختلفت الرواية عن أحمد - رحمه الله - في حده، فروى عنه أن حده الرجم بكرًا كان أو ثيبًا، وهذا قول علي وابن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن عمر والزهري وأبي حبيب وربيعة ومالك وإسحاق وأحد قولي الشافعي وقتادة والأوزاعي

---

(١) مثل الزهري والسيلان ومرض هريس الجنس.

(٢) رواه أحمد (٢٨١٢).

وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وأبو ثور وهو المشهور من قولي الشافعي لأن النبي ﷺ قال: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان» ولأنه إيلاج فرج آدمي في فرج آدمي لا ملك له فيه ولا شبهة ملك وكان زنا كالإيلاج في فرج المرأة، إذا ثبت كونه زنا دخل في عموم الآية والأخبار فيه ولأنه فاحشة فكان زنًا كالفاحشة بين الرجل والمرأة.

وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه أمر بتحريق اللوطي وهو قول ابن الزبير لما روى صفوان بن سليم عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر فاستشار أبو بكر رضي الله عنه الصحابة فيه فكان عليٌّ أشدهم قولاً فيه فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فحرقه. وقال الحكم وأبو حنيفة: لاحد عليه لأنه ليس بمحل الوطء أشبه غير الفرج.

ووجه الرواية الأولى قوله ﷺ: «من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1] رواه أبو داود وفي لفظ: «فارجموا الأعلى والأسفل»[2] ولأنه إجماع الصحابة رضي الله عنهم فإنهم أجمعوا على قتله، وإنما اختلفوا في صفته واحتج أحمد رضي الله عنه بقول علي عليه السلام[3] وأنه كان يرى رجمه، ولأن الله تعالى عذب قوم لوط بالرجم فينبغي أن يعاقب من فعل فعلهم بمثل عقوبتهم.

وقول من أسقط الحد عنه يخالف النص والإجماع.

وقياس الفرج على غيره لا يصح لما بينهما من الفرق.

إذا ثبت هذا فلا فرق بين أن يكون في مملوك له أو أجنبي لأن الذكر ليس بمحل لوطء الذكر فلا يؤثر ملكه له. أهـ.

---

(١) رواه الترمذي (١٤٥٦) في الحدود، وأبي داود (٤٤٦٢) في الحدود، وابن ماجه (٢٥٦١) في الحدود، وأحمد (٢٧٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٦٢) في الحدود.

(٣) الأولى أن يقال: علي رضي الله عنه كقولنا في سائر الصحابة.

★ **حكم السحاق[1]:**

السحاق محرم باتفاق العلمـاء، لما رواه أحمد ومسلم، وأبو داود، والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**»[2].

قال ابن قدامة في المغنى: وإن تدالكت امرأتان فهما زانيتان ملعونتان لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا اتت المراة المراة فهما زانيتان**»، ولا حد عليهمـا لأنه لا يتضمن إيلاجًا فأشـبه المباشرة دون الفرج وعليـهما التعزير لأنه زنا لاحـد فيه فأشبه مـباشرة الرجل المرأة من غير جماع ولو باشر الرجل المرأة فاستمتع بها فيما دون الفرج فلا حد عليه لما روى أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إني لقيت امرأة فأصبت منها كل شئ إلا الجماع فـأنزل الله تعالى: ﴿أقم الصلاة﴾. فقال الرجل: إليَّ هذه الآية؟ فقال: «**لمن عمل بها من أمتي**»[3].

★ **إتيان البهيمة:**

أجمع العلماء على تحريم إتيان البهيمة، واختلفوا في عقوبة من فعل ذلك.

قال ابن قدامة: اخـتلفت الرواية عن أحمد في الذي يأتي البهيـمة فروى عنه أنه يعزر ولا حـد عليه، وروى ذلك عن ابـن عباس وعطاء والشـعبي والنخـعى والحكم ومالك والثورى وأصحاب الرأى وإسحاق وهو قول الشافعي، والرواية الثانية ـ حكمه حكم اللائط سواء.

---

(١) إتيان المرأة المرأة.

(٢) رواه أبي داود (٤٠١٨) في الحـمام، والترمـذي (٢٧٩٣) في الأدب، ومسلم (٣٣٨) فـي الحيض، وأحمد (١١٢٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٣١١٤) في تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٢٥٤) في الزهد.

وقال الحسن: حده حد الزاني، وروى عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن: يقتل هو والبهيمة لقول رسول الله ﷺ: «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه»[(١)].

ووجه الرواية الأولى، أنه لم يصح فيه نص ولا يمكن قياسه على الوطء في فرج الآدمي لأنه لا حرمة لها، وليس بمقصود ويحتاج الزجر عنه إلى الحد، فإن النفوس تعافه وعامتها تنفر منه فبقى على الأصل في إنتفاء الحد، والحديث يرويه عمرو ابن أبي عمرو ولم يثبته أحمد، وقال الطحاوى هو ضعيف ومذهب ابن عباس خلافه وهو الذي روى عنه قال أبو داود هذا يضعف الحديث عنه.

قال اسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عن الرجل يأتي البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو أبي عمرو في ذلك، ولأن الحد يدرأ بالشبهات فلا يجوز أن يثبت بحديث فيه هذه الشبهة والضعف، وقول الخرقى أدب وأحسن أدبه يعني يعزر ويبالغ في تعزيره لأنه وطء في فرج محرم لا شبهة له فيه لم يوجب الحد فأوجب التعزير كوطء الميتة.

وقد ذهب علي ﷺ والشافعي وابن قدامة في المغنى والشوكاني في نيل الأوطار إلى وجوب قتل البهيمة وتحريم لحمها. قال في البحر: أنها تذبح البهيمة ولو كانت غير مأكولة لئلا تأتي بولد مشوه، كما روى أن راعيًا أتى بهيمة فأتت بمولود مشوه اهـ.

وذهبت القاسمية والشافعية في قول وأبو حنيفة وأبو يوسف إلى أنه يكره أكلها تنزيهًا فقط.

* حكم الاستمناء:

استمناء الرجل بيده مما يتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الأدب وحسن الخلق، واستخراج المني على هذا النحو يطلق عليه اسم الخضخضة والعادة السرية وجلد عميرة والاستمناء، وهو فعل محرم على قول جمهور العلماء.

---

(١) رواه أبي داود (٤٤٦٤) في الحدود، والترمذي (١٤٥٥) في الحدود.

فمن جملة القائلين بالتحريم، علماء المالكية والشافعية والزيدية، وقال الحنابلة: إنه حرام إلا إذا استمنى خوفًا على نفسه من الزنا أو خوفًا على صحته، ولم تكن له زوجة أو أمة، ولم يقدر على الزواج فحينئذ لا حرج عليه، فضبطوا الجواز باشتداد الشهوة مما يخشى معه الوقوع في الزنا، أو بحيث يخشى المضرة بتشقق الأنثيين لغلبة الشهوة عليه، ثم هو لا زوجة له ولا أمة ولا يستطيع الزواج لتصريف شهوته في المباح، ومن المعلوم أن الضرورات تبيح المحظورات والضرورة تقدر بقدرها في هذه المسألة وغيرها، وكل هذا يتنافى مع التهاون في انتهاك الحرام، واعتياد مواقعة هذا الفعل السيئ.

وقد استدل العلماء على تحريمه بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون:٥-٧). فأمر سبحانه بحفظ الفرج في كل الحالات إلا بالنسبة للزوجة وملك اليمين، فإذا تجاوز المرء هاتين الحالتين واستمنى كان من العادين المتجاوزين ما أحل الله لهم إلى ما حرمه عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (سورة النور:٣٣). فأمر بالاستعفاف ولم يأذن في الاستمناء، ولم يأذن النبي ﷺ لعثمان بن مظعون وغيره في الاختصاء لما شقت عليهم العزوبية، فلو كان الاستمناء مباحًا لوسع عليهم به.

وقل ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1] فقال: «عليه بالصوم»، ولم يقل: بالاستمناء.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) في النكاح، ومسلم (١٤٠٠) في النكاح، والترمذي (١٠٨١) في النكاح، والنسائي (٢٢٣٩) في الصيام، وأبي داود (٢٠٤٦) في النكاح، وابن ماجه (١٨٤٥) في النكاح، وأحمد (٣٥٨١)، والدارمي (٢١٦٥) في النكاح.

والاستمناء ضار بالصحة كما هو معلوم وخصوصًا إذا اعتاده الإنسان، ولا ضرر ولا ضرار فلا يحل لأحد أن يستلحق المضرة بنفسه، إذ الشرع لم يعطه هذا الحق، والمضرة قد تتعدى للزوجة في حالة زواجه.

وكان الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: لو أعلم أن شرب الماء البارد يخرم مرؤتى ما شربته.

والاستمناء فعل دنئ. فالواجب على العبد أن يتقي الله، وأن يعلم أن الله مطلع ورقيب لا تخفي عليه خافيه، وعليه أن يكثر من الصيام، ويغض البصر عن الحرام ولا يطالع صور النساء في الجرائد والمجلات، ويشغل نفسه بطاعة الله ويتعوذ بالله من الخواطر السيئة ولا يستجلب الشهوة وبواعث الإثارة، ويكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة، ولا يكونن خاليًا سبهللاً لا في عمل دين ولا في عمل دنيا كما يقول عمر ﷺ، ويكثر من ذكر الله ويحافظ على الأذكار الموظفة فنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، كما يكثر من الاستغفار والدعاء وقول لا حول ولا قوة إلا بالله وبصفة خاصة: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك».

«اللهم أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا تكلني إلى أحد من خلقك»، ويسعى طلبًا للزواج حتى وإن كان فقيرًا فليتوكل على الله ويعظم الرغبة فيما عنده سبحانه.

وكان عمر ﷺ يقول: «عجبًا لمن لم يلتمس الغنى في النكاح، والله يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (سورة النور: ٣٢)».

★ حكم إتيان النساء في أدبارهن:

الحكمة في خلق الأزواج بث النسل، وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر أن العلماء لم يختلفوا في الرتقاء التي لا يوصل إلى وطئها أنه عيب تُرد به إلا شيئًا جاء عن

عمر بن عبد العزيز من وجه ليس بالقوى أنه لا ترد الرتقاء ولا غيرها، والفقهاء كلهم على خلاف ذلك لأن المسيس هو المبتغى بالنكاح، وفي إجماعهم على هذا دليل على أن الدبر ليس بموضع وطء، ولو كان موضعًا للوطء ماردُت من لا يوصل إلى وطئها في الفرج وفي إجماعهم أيضًا على أن العقيم التي لا تلد لا ترد.

قال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (سورة البقرة:٢٢٣). أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد.

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هَلكت، قال: «وما أهلك»، قال: حولت رحلي الليلة، قال: فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا » قال: فأوحي إلى رسول ﷺ هذه الآية: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ . «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة»**[1] .

والأحاديث في هذا الموضع كثيرة وكلها نص في إباحة الحال والهيئات كلها إذا كان الوطء في موضع الحرث، أي كيف شئتم من خلف ومن قدام وباركة ومستلقية ومضطجعة، فأما الإتيان في غير المأتي فما كان مباحًا، ولا يباح، وذكرُ الحرث يدل على أن الإتيان في غير المأتي محرم، وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أُكثر عليك القولُ إنك تقول عن ابن عمر: أنه أفتى بأن يؤتي النساء في أدبارهن. قال نافع: لقد كذبوا عليَّ. . . الحديث.

وقد قال أصحاب أبي حنيفة: إنه عندنا ولائط الذكر سواء في الحكم، ولأن القذر والأذى في موضع النجو (ما يخرج من البطن) أكثر من دم الحيض فكان أشنع.

وقد وردت أحاديث صحيحة حسان شهيرة رواها عن رسول الله ﷺ إثنا عشر صحابيًا بمتون مختلفة كلها متواردة على تحريم إتيان النساء من الأدبار ذكرها أحمد بن

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٠) في تفسير القرآن، وأحمد (٢٦٩٨).

حنبل في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذي وغيرهم، وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزي بطرقها في جزء سماه «تحريم المحل المكروه».

قال القرطبي: ولشيخنا أبي العباس أيضًا في ذلك جزء سماه [إظهار إدبار، من أجاز الوطء في الأدبار] قال: وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يُعرِّج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، وقد حُذِّرنا من زلة العالم وقد رُوِي عن ابن عمر خلاف هذا وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به ﷺ، وكذلك كذب نافع من أخبر عنه بذلك... وأنكر ذلك مالك واستعظمه وكذب من نسب ذلك إليه.

وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحُباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري حين أُحمضٌ لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت له الدبر فقال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين!

وأسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن»[1] ومثله عن علي بن طلق، وأسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أتى امرأة في دبرها لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة»[2] وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «تلك اللوطية الصغرى»[3] يعني إتيان المرأة في دبرها.

وروى عن طاووس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النساء في أدبارهن.

قال ابن المنذر: وإذا ثبت الشيء عن رسول الله ﷺ استغنى به عما سواه.

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٤٧)، والدارمي (١١٤٤)، في الطهارة.

(٢) رواه الدارمي (١١٤٠) في الطهارة، وابن ماجه (١٩٢٣) وأحمد (٨٣٢٧).

(٣) رواه أحمد (٦٩٢٨).

★ *لجنة الفتوى تسئل عن: حكم وطء المرأة في الدبر:*

توجه هذا السؤال للجنة الفتوى بالسعودية، وهل على من فعل ذلك كفارة؟

فأجـابت: وطء المرأة في الدبر من كبائر الذنوب ومن أقـبح المعاصي لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ملعـون من أتى امـرأته فـي دبرها» وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها»[١].

والواجب على من فـعل ذلك البـدء بالتوبة الـنصوح وهي الإقـلاع عن الذنوب وتركه تعظيمًـا لله وحذرًا من عقابه والندم على ما قد وقع من ذلك والعـزيمة الصادقة على ألا يعود إلى ذلك مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة، ومن تاب توبة صادقة تاب الله عليه وغـفر له ذنبه كمـا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (سورة طه: ٨٢).

وقال عـزَّ وجلَّ في سورة الفـرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٨- ٧٠).

وقال النبي ﷺ: «الإسلام يهدمُ ما كان قبله، والتوبة تهدم ما كان قبلها»[٢]. والآيات والأحاديث كثيرة في هذا المعنى.

وليس على من وطأ في الدبر كفارة في أصح قولي العلماء ولا تحرم عليه زوجته بذلك، بل هي باقية في عصمته.

وليس لهـا أن تطيعـه في هذا المنكر العظيم، بل يجب عليـها الامـتناع من ذلك والمطالبة بفسخ نكاحها منه إن لم يتب نسأل الله العافية من ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٩٨٥٠)، وأبي داود (٢١٦٢) في النكاح.

(٢) رواه مسلم (١٢١) في الإيمان.

* النظر إلى الأمرد:

الأمرد هو من لم تنبت لحيته لصغره بأن لم يأت أوان نباتها لا من فات أوان نباتها وأيس منه فيسمى فظاً كما قال السفاريني في غذاء الألباب.

وقال ابن تيمية: «فالإماء والصبيان إذا كن حسانًا تخشى الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك (أي لابد من غض البصر عنهم)، كما ذكر ذلك العلماء، وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل: الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء» اهـ.

ويروي عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي شيطانيه.

وكان سفيان الثوري لا يدع أمرد يجالسه، وعن بشر قال: احذروا هؤلاء الأحداث، وقال يحيى بن معين: ما طمع أمرد أن يصحبني ولا أحمد بن حنبل في طريق، وكان البعض يوصي إخوانه عند مفارقتهم: اتق صحبة الأحداث، اتق معاشرة الأحداث.

وروى ابن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه.

قال الحسن بن ذكوان: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورًا كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء.

وقال بعض التابعين: ما أنا بأخوف على الشاب الناسك من سبع ضار من الغلام الأمرد في بيت أو حانوتًا أو حمام قياسًا على المرأة لأن النبي ﷺ قال: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان».

وقال البعض: لأن أؤتمن على سبعين عذراء أحب إليَّ من أن أؤتمن على شاب أمرد. قال النووي في التبيان: هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء وقد نص

على تحريمه الإمام الشافعي ومن لا يحصى من العلماء، ودليله قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (سورة النور: ٣٠). ولأنه في معنى المرأة بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء ويتمكن من أسباب الريبة فيه، ويستسهل من طرق الشر في حقه مالا يستسهل في حق المرأة فكان تحريمه أولى. وأقاويل السلف منهم أكثر من أن تحصى وقد سموهم الأنتان لكونهم مستقذرين شرعًا» اهـ.

والنظر إلى الأمرد إن كان لحاجة كالبيع والشراء والأخذ والإعطاء والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة، ولايديم النظر من غير ضرورة وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذي يحتاج إليه، ويحرم عليهم في كل الأحوال النظر بشهوة.

قال ابن تيمية: وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهًا كما يتوجه إليه الأمر بحفظه فرجه.

* **نظر الرجل إلى الرجل:**

قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة»[١]. وقال أيضًا: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك»[٢] رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم والبيهقي وأخرج الحاكم عن رسول الله ﷺ: «ما بين السرة والركبة عورة»، وعند الحاكم: «غط فخذك فإن الفخذ عورة»، وعند الترمذي: «الفخذ عورة»[٣]. وهذا هو الأحوط كما قال البخاري ـ رحمه الله ـ.

---

(١) رواه مسلم (٣٣٨) في الحيض، وأحمد (٧-١١٢)، والترمذي (٢٧٩٣) في الأدب، وابن ماجه (٦٦١) في الطهارة وسننها.
(٢) رواه الترمذي (٢٧٦٩) في الأدب، وأبي داود في الحمام، وابن ماجه في النكاح، وأحمد (١٩٥٣).
(٣) رواه الترمذي (٢٧٩٥) في الأدب.

فيحرم على الرجل أن ينظر إلى رجل آخر فيما بين سرته وركبته، ولا يجوز له كشف ذلك ولا جزء منه لا في رياضة أو تدريب أو حمام، وإن أمن الشهوة.

ولا يجوز طاعة من يأمره بذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولا يصح القول بأن العورة من الرجل بالنسبة للنظر السوأتان فقط.

وقد نهى النبي ﷺ: «أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد» وفي رواية النسائي «لا تباشر المرأة المرأة ولا الرجل الرجل»[(١)].

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»[(٢)]. وفي الحديث الذي رواه مسلم وأصحاب السنن «.... ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»[(٣)].

والنظر إلى العورات حرام ـ كما ذكر ابن تيمية ـ داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣). وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المعاشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك وكما في قصة لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (سورة النمل: ٥٤). وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (سورة الإسراء: ٣٢). والفاحشة أيضًا تتناول كشف العورة، وإن لم تكن في ذلك مباشرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ (سورة الأعراف: ٢٨).

وهذه الفاحشة هي طوافهم فيها بالبيت عراة، فليتق الله هؤلاء الذين يتكشفون ويتعرون بزعم أنهم رجال مع رجال!!!!.

---

(١) رواه أحمد (٨١١٩).

(٢) رواه النسائي والترمذي وحسنه الحاكم وصححه.

(٣) رواه النسائي (٤٠١)، رواه أحمد (٨٠٧٦).

★ نظر المرأة إلى المرأة:

في صحيح البخاري عن ابن مسعود بلفظ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[(١)].

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من إناث أمتي فلا تدخل الحمام إلا بمئزر»[(٢)].

قال ابن تيمية: «وقال العلماء يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة كما يرخص للرجال مع غض البصر وحفظ الفرج وذلك مثل أن تكون مريضة أو نفساء أو عليها غسل أو لا يمكنها إلا في الحمام، أما إذا اعتادت الحمام، وشق عليها تركه، فهل يباح لها على قولين في مذهب أحمد وغيره» اهـ.

والحمامات أماكن كان الرجال والنساء يرتادونها ويكشف بعضهم عن عورته أمام بعض، ولذلك ورد النهى كما في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته - زوجته - الحمام»[(٣)].

وعورة المرأة بالنسبة للمرأة ما بين سرتها إلى ركبتها، وليس معنى ذلك أن تستر ما بين سرتها إلى ركبتها فقط وتبقى شبه عارية أمام النساء بدون حاجة، وإنما معناه أن تغطية ما بين السرة والركبة واجبة عليها ويحرم النظر إليه من غيرها ولو كانت قريبة منها كابنتها وأختها وخالتها. . .

وصح عن عمر رضي الله عنه منع الكتابيات دخول الحمام مع المسلمات، وقد صرح ابن عباس رضي الله عنهما أنه ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا أن تبدى لكافرة إلا ما

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤٠) في النكاح، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبي داود (٢١٥٠).

(٢) رواه أحمد (٨٠٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٠١) في الأدب، وأحمد (١٤٢٤١).

تبدى للأجانب. ومحل ذلك في كافرة غير محرم للمسلمة أما هي فيجوز لها النظر إليها كما بحثه الزركشي في المحرم، وأفتى به النووي في المملوكة.

وقد ذكر ابن تيمية أن اليهوديات كن يدخلن على أم المؤمنين عائشة وهي مكشوفة الوجه.

وقال العز بن عبد السلام: «إن المرأة الفاسقة في ذلك حكمها حكم الذمية فيجب على ولاة الأمور منع الذميات والفاسقات من دخول الحمامات مع المحصنات من المؤمنات، فإن تعذر ذلك لقلة مبالاة ولاة الأمور بإنكار ذلك فلتحترز المؤمنة الحرة عن الكافرة والفاسقة» أهـ.

قال ابن تيمية: وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه، وابن أخيها، وابن أختها، ومملوكها عند من يجعله محرمًا متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجب الاحتجاب بل وجب، وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك أزكي لهم﴾ . . . ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار، ودون ذلك وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير، ونظر الغير إليه، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه. أهـ.

هذ ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين ولو محارم كأب وابنه وأم وابنتها وأخ وأخيه، وأخت وأختها في فراش واحد إذا كان كل منهما عاريًا أو شبه عار أو أن يلتحفا بلحاف واحد لخبر مسلم: «لا يفضى الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد».

★ *الخنثى:*

الخنثى مأخوذ من الخنث وهو اللين والتكسر، والخنثى شخص اشتبه في أمره ولم يدر أذكر هو أم أنثى، إما لأن له ذكرًا وفرجًا معًا، أو لأنه ليس له شئ منهما أصلاً

وتتبين الذكورة والأنوثة بظهور علامات كل منهما، وهي قبل البلوغ تعرف بالبول، فإن بال بالعضو المخصوص بالذكر فهو ذكر وإن بال بالعضو المخصوص بالأنثى فهو أنثى، وإن بال منهما كان الحكم للأسبق.

وبعد البلوغ، إن نبتت له لحية أو أتى النساء أو احتلم كما يحتلم الرجال فهو ذكر، وإن ظهر له ثدى كثدى المرأة أو در به لبن أو حاض أو حبل فهو أنثى، وهو في هاتين الحالتين يقال له خنثى غير مشكل. فإن لم يعرف أذكر أم أنثى؟ بأن لم تظهر علامة من العلامات أو ظهرت وتعارضت فهو الخنثى المشكل.

وبالنسبة للميراث فإن تبين أنه ذكر ورث ميراث الذكر، وإن تبين أنه أنثى ورث ميراث الأنثى والعبرة بالمبال قبل البلوغ وعلامات الذكورة والأنوثة بعده.

أما الخنثى المشكل فقد اختلف الفقهاء في حكمه من حيث الميراث، فقال أبو حنيفة إنه يفرض أنه ذكر ثم يفرض أنه أنثى ويعامل بعد ذلك بأسوأ الحالين، حتى لو كان يرث على اعتبار آخر لم يعط شيئًا وإن ورث على كل من الفرضين واختلف نصيبه أعطى أقل النصيبين، وقد أخذ القانون المصري برأى الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ.

وقال مالك وأبو يوسف: يأخذ المتوسط بين نصيبين الذكر والأنثى.

وقال الشافعي: يعامل كل من الورثة والخنثى بأقل النصيبين لأنه المتيقن إلى كل منهما، وقال أحمد: إن كان يرجى ظهور حاله يعامل كل منه ومن الورثة بالأقل ويوقف الباقي، وإن لم يرج ظهور الأمر يأخذ المتوسط بين نصيبي الذكر والأنثى، وهذا القول هو الأشبه بالصحة والله أعلم.

★ لعن المخنثين ونفيهم لإفسادهم:

روت أم سلمة: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها: إن فتح الله لك الطائف غدًا، أدلك على ابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر

بثمان، فقال النبي ﷺ: «أخرجوهم من بيوتكم»[١]، وفي رواية في الصحيح: «لا يدخلن هؤلاء عليكم»، وفي رواية: «أرى هذا يعرف، مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم».

وروى الجماعة إلا مسلمًا أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم وأخرجوا فلانًا وفلانًا يعني المخنثين»[٢]. وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة - بهم وهيت وماتع - على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى إنما كان تخنيثهم وتأنيثهم لينًا في القول وخضابًا في الأيدي والأرجل كخضاب النساء ولعبًا كلعبهن.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ أتي بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء فقال: «ما بال هذا؟»، فقيل: يا رسول الله، يتشبه بالنساء، فأمر به فنفى إلى النقيع، فقيل: يا رسول الله ألا تقتله، فقال: «إني نُهيت عن قتل المصلين»[٣] والنقيع: ناحية عن المدينة وليس بالبقيع.

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم، فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٢٩) في الأدب، والبخاري (٤٣٢٤) في المغازي، ومسلم (٢١٨٠) في السلام، وابن ماجه (١٩٠٢) في النكاح.

(٢) رواه البخاري (٦٨٣٤) في الحدود، وأبي داود (٤٩٣٠) في الأدب.

(٣) رواه أبو داود (٤٩٢٨) في الأدب.

وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهنا يكون نفيه بحبسه في مكان واحد ليس معه فيه غيره، وإن خيف خروجه فإنه يُقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس وهذا نوع من الهجرة، فالزناة واللوطية مخالطتهم مضرة على دين الإسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى فمن لم يهجرهم كان تاركًا للمأمور فاعلاً للمحظور، ومما يدخل في هذا أن عمر بن الخطاب نفى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء وتشبهه بهن وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الذي كان يفتن به النساء، ثم نفاه إلى البصرة لما استمرت فتنته، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها، لكن كان في النساء من يفتتن به، وهذا من باب التفريق بين الذين يُخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه وليس من باب المعاقبة.

★ *قرار مجلس المجمع الفقهي بشأن تحويل الذكر إلى أنثى وبالعكس:*

القرار السادس ـ «الحمد لله والصلاة والسلام على من لانبى بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» أما بعد:

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الحادية عشرة المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من يوم الأحد ١٣ رجب ١٤٠٩هـ الموافق ١٩ فبراير ١٩٨٩م إلى يوم الأحد ٢٠ رجب ١٤٠٩هـ الموافق ٢٦ فبراير ١٩٨٩م قد نظر في موضوع تحويل الذكر إلى أنثى وبالعكس. وبعد البحث والمناقشة بين أعضائه قرر ما يلي:

أولاً ـ الذكر الذي كملت أعضاء ذكورته والأنثى التي كملت أعضاء أنوثتها لا يحل تحويل أحدهما إلى النوع الآخر، ومحاولة التحويل جريمة يستحق فاعلها العقوبة لأنه تغيير لخلق الله، وقد حرم سبحانه هذا التغيير بقوله تعالى مخبرًا عن قول الشيطان:

﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (سورة النساء:١١٩). فقد جاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عزَّ وجلَّ، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عزَّ وجلَّ يعني قوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (سورة الحشر:٧).

ثانياً ـ أما من اجتمع في أعضائه علامات النساء والرجال فينظر فيه إلى الغالب من حاله فإن غلبت عليه الذكورة جاز علاجه طبيًا بما يزيل الاشتباه في ذكورته ومن غلبت عليه الأنوثه جاز علاجه طبيًا بما يزيل الاشتباه في أنوثته سواء أكان العلاج بالجراحة أو بالهرمونات لأن هذا مرض والعلاج يقصد به الشفاء منه، وليس تغييراً لخلق الله تعالى. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً والحمد لله رب العالمين.

★ *اللوطيون أصناف ثلاثة:*

قال ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي سهل الصعلوكي قال: سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم اللوطيون على ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون ذلك العمل.

وفي المدخل لابن الحاج: اللوطية على ثلاث مراتب: طائفة تتمتع بالنظر وهو محرم لأن النظر إلى الأمرد بشهوة حرام إجماعًا، بل صحح بعض العلماء أنه محرم وإن كان بغير شهوة، والطائفة الثانية بالملاعبة والمباسطة والمعانقة، والطائفة الثالثة بفعل الفاحشة الكبرى» اهـ.

فمس الأمرد لشهوة والتلذذ بمصافحته ونحو ذلك حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات المحارم والمرأة الأجنبية، كما أن الجمهور على أن عقوبة اللوطى أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية، فيجب قتل الفاعل والمفعول به سواء كان

أحدهما محصنًا أو لم يكن جاء ذلك في السنن وعمل به الصحابة من غير نزاع يُعرف بينهم، قال ابن تيمية: وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط.

قال: والنظر إلى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو كانت شهوة التلذذ بالنظر كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية، وإذا كان معلومًا لكل أحد أن هذا حرام فكذلك النظر إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة.

وقول البعض النظر إلى الوجه الجميل عبادة ـ حتى لو كان وجه امرأة أجنبية أو أمرد ـ قول باطل ويدل على فسق وفجور، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف:٢٨).

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر، وهو نوعان، غض البصر عن العورة، وغضها عن الشهوة وقد قسم ابن تيمية النظر إلى الأمرد إلى ثلاثة أقسام:

أحدهما ـ ما تقترن به الشهوة فهو محرم بالاتفاق.

والثاني ـ ما يجزم أنه لا شهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة وأمه الحسنة فهذا لا تقترن به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ومتى اقترن به الشهوة حرم، وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان كما كان الصحابة وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره، وصبى أجنبى، لا يخطر بقلبه شئ من الشهوة لأنه لم يعتد ذلك، وهو سليم القلب من قبل ذلك.

والقسم الثالث من النظر ـ هو النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها، ففيه وجهان ورجح عدم الجواز وهذا قول الشافعي والأصح في مذهب أحمد ـ رحمه الله ـ.

★ **هل تنتشر الحرمة باللواط؟:**

اختلف العلماء في مسألة اللائط، فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: لا يحرم النكاح باللواط.

وقال الثوري: إذا لعب بالصبي حرمت عليه أمه، وهو قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوط بابن امرأته أو أبيها أو أختها حرمت عليه امرأته، وقال الأوزاعي: إذا تلوط بغلام ثم ولُد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها، لأنها بنت من قد دخل به، وهو قول الإمام أحمد.

★ **ديمقراطية قوم لوط:**

الديمقراطية كما يعرفونها هي حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، وهي نظام قديم، يصطدم بدين الله بداية ونهاية، في المنشأ والطريق والهدف والغاية والديمقراطية دين عند أهلها، ووثن يُعبد من دون الله، وكما أن الإسلام عقيدة وشريعة، فكذلك الديمقراطية عبارة عن نظم تقف خلفها عقيدة لادينية والأكثرية والأغلبية في النظم الديمقراطية حكمها نافذ ورأيها يجب النزول عليه من قبل الأقلية، حتى لو كان هذا الرأى مصادمًا لشرع الله.

ونحن عندما ننظر في قصة لوط ستجد أن كلمتهم قد اتفقت على ممارسة اللواط ولم يخالف في ذلك إلا نبى الله لوط وابنتاه، ومؤدي ذلك وفق النظم الديمقراطية أن لا تنزل الأغلبية على رأى الأقلية!! أو بمعنى آخر يستمر الكفر واللواط... طالما هو رأى الجماهير العريضة، والأصوات المطالبة بذلك وكانت هي الأكثرية!!!

إن نظرة سريعة على قصة قوم لوط لتدلك على مبلغ الدمار والعذاب الذي ينتظر الديمقراطية في الدنيا والآخرة فكل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير ذهبت اللذات، وأتت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات تمتعوا قليلاً،

وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعًا وخيمًا فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الطور:١٦).

ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفًا لهم بأعظم الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (سورة هود:٨٣).

ولقد تخوف رسول ﷺ من أن يسرى ذلك الداء إلى هذه الأمة وينتشر بين صفوفها ذلك الوباء الفتاك الذي يفسدها ثم يفنيها، ويجعل منها أمة ساقطة من عين الله، قد جرت على نفسها الخزى والمذلة والعار، والوبال والهلاك فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»[(١)].

* الديمقراطية المعاصرة[(١)] تبيح اللواط والزنى...:

الديمقراطية نظام يقوم على إطلاق الحريات، التي هي أشبه بالسيارات التي تنطلق دون فرامل، فالإنسان في ظل هذا النظام يزني ويزُني به ولا اعتراض عليه لأنها حرية شخصية!!! ويكفر بالله ويرتد على الملأ بلا رادع لأنها حرية رأى وتعبير وفكر...!!! ويتملك بالربا بلا حياء لأنها حرية تملك.. ويتباهون بالفساد في أشنع صوره باسم الحرية والديمقراطية التي أوصلت الإنسان إلى أسفل سافلين.

لقد سار عدد كبير من طلبة الجامعات ولاسيما طلبة جامعة «اكسفورد» مع خمسمائة من كبار الشخصيات البريطانية، بينهم أساقفة وقساوسة وأساتذة الجامعات مطالبين بإباحة الشذوذ الجنسي، ولبى «مجلس العموم» البريطاني رغبة قادة الفكر والتوجيه في بريطانيا، بأغلبية ١٦٤ صوتًا ضد ١٠٧ أصوات.

---

(١) رواه الترمذي (١٤٥٧) في الحدود، وابن ماجه (٢٥٦٣) في الحدود.
(٢) راجع كتابنا (الديمقراطية في الميزان).

هذه هي الديمقراطية بأغلبيتها المدمرة، وللأسف تابعنا هؤلاء حذو النعل بالنعل وتركنا ديننا[1]. وراءنا ظهريًا واستبدلنا بشرع الله نظم ودساتير ومناهج كفرية، فأصبحنا في واد وديننا في واد آخر ويقابل ذلك أعداء يدركون سر قوتنا، ويبذلون مزيدًا من المكائد والمؤمرات لتخريب مجتمعاتنا وتقطيع أواصرها فتفككت الأسر وشاع التبرج والاختلاط وصار الزوج عند قطاعات بمثابة قيد للحرية فانتشر الزنى ونوادي العراة وظهر الشذوذ الجنسي وإدمان المخدرات والخمور وانتشرت حبوب منع الحمل وأصبح القتل والاغتصاب والانتحار من الأمور العادية وقد ساعد على ذلك الدور السيئ الذي تقوم به أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفزيون، لقد عمل أعداء الإسلام على تحرير المرأة... لكن ممن؟! إنهم حرروها من عقيدتها ودينها... حرروها من أخلاقها وحيائها.. حرروها من بيتها وأولادها... فانطلقت تكشف ما أمر الله به أن يُستر تزاحم الرجل في المصنع والجامعة... في مجتمع أصبح الاختلاط شعاره، والتعاسة مصيره.

إن الإسلام هو أملنا الوحيد في التخلص من هذه المعاناة وتلك اللوثة التي تهدد العالم بالدمار الشامل وهو الطريق الوحيد لإصلاح الدنيا مما حل بها من عللٍ وأدواء به نستمطر الرحمة ونستدفع النقمة ونُرضي مولانا وخالقنا حكموا إسلامكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل.

وطبقوا شرع ربكم ولا تتبعوا سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، واسلكوا سبيل الاستقامة وإياكم وصراط المغضوب عليهم والضالين.

★

---

(١) قال فرويد: «إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي وكل قيد من دين أو أخلاق أو تقاليد هو قيد باطل.. ومدمر لطاقة الإنسان... وهو كبت غير مشروع..»!! لقد أراد هذا اليهودي مجتمعًا بلا دين بلا أخلاق.. بلا عقيدة وتم له ذلك في ظل الحضارة المادية ونظمها الإلحادية.

★ **الديمقراطية اللوطية تطارد المتطهرين:**

الديمقراطيـة لوثة في العقل وانتكاس في الفطرة وطمس في البصـيرة ونظام من النظم الأرضيـة الوضعية الفـاجرة، وبينما هي تبـيح اللواط والزنى. . . بزعم الحرية الشخصـية وتقنن الكفر والإلحاد والزندقـة بزعم حرية الرأى والفكر. . . نراها تطارد مظاهر الطهر والعفـاف وتحارب معاني الإيمان والتدين بزعم أنه لا ديمقـراطية لأعداء الديمقراطية!!! وكـأن هذه الحريات الديمقراطية لا يُسمح بها إلا للمـارقين والمفسدين في الأرض!!

فالديمقـراطية أشبـه شئ بصنم العجـوة الذي كان المشركـون يصنعونه فـإذا جاع الواحد منهم أكله، وقوم لوط في سـفههم وفجورهم لم يكتفـوا بالصدود والإعراض عن دعـوة نبيـهم، وإنما هددوه بالإخـراج من قريتـهم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (سورة الشعراء:١٦٧). بل لم يخلصوا في بيان سبب التهديد والطرد والإبعاد فقالوا: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل:٥٦).

وآل لوط كانوا يتطهـرون عن الشرك والكفـر ويجتنبون الفـواحش والبغى والإثم وصدعـوا بالحق فأمـروا القوم بالمعـروف ونهوهم عن المنكر فـكان جزاؤهم التـهديد بالطرد، وهذا هو منطق الطغيان والإجرام في كل عصر ووقت.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (سورة إبراهيم:١٣). وقال سبحـانه حاكيًا عن فرعون وشـيعته: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (سورة الأعراف:١٢٧). وقال قوم شعيب له: ﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾.

وقال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠). وقال: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ (سورة التوبة: ٤٠). الآية وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا

بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سورة البروج:٨). وقد هاجر الصحابة ﷺ مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة فرارًا بدينهم.

وقد صدق القوم في وصف نبي الله لوط ومن آمن معه بأنهم ﴿ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل:٥٦). ولعلهم قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء والسخرية، بل لا نستبعد أن تُستهجن معاني التطهر وتبعث الكلمة على النفرة بعد حين، وخصوصًا عند من سفهت نفسه.

يقول صاحب كتاب (منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، جـ (١) ص١٦٤) ما نصه: «إن الذي لا تعرفه عن الطغاة أنهم يقلبون الحقائق، ويلصقون بالدعاة أعمالاً قبيحة، ويزعمون أنهم دعاة إصلاح، أما قوم لوط، فقد قالوها صريحة واضحة مجلجلة: لا مقام لمن يتطهر في أرضنا!! ولا نؤمن بشئ اسمه الشرف أو العفة!!».

إن طغاة عصرنا يشبهون قوم لوط في جوانب كثيرة من أهمها: مطاردة الدعاة إلى الله، وتشجيع دعاة الفاحشة، والتعاون مع المجرمين وتجار المخدرات والخمور، وإسناد أرفع المناصب للملاحدة والمنحرفين والشاذين من الناس، ورحم الله من قال:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ★ فما قوم لوط منكم ببعيد

ويختلف هؤلاء الطغاة عن قوم لوط في جانب واحد، فهم لا يسمون الأمور بتسمياتها، ولهذا فهم يزعمون بأنهم رواد إصلاح ونهضة، أما الدعاة إلى الله فهم مجرمون وقطاع طرق لم ينفرد قوم لوط بوصف نبيهم لوط ومن آمن به بقولهم: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل:٥٦).

فقديمًا قال قوم شعيب له: ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (سورة هود:٨٧).

ومازلنا نسمع على سبيل الاستخفاف والتنقص كلمة: سنُيين، حنبلي، الجهاد . . . ولا يبعد أن يسلك الطغاة والمنحرفون مسالك متعددة ومتنوعة في الصد عن سبيل الله والتنفير من طاعة الله.

★ *تهمة لا ننفيها، وشرف لا ندعيه:*

أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يتابع الأنبياء والمرسلين فيما كانوا عليه من هدى فقال جل وعلا: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠). والأمة مأمورة بذلك في شخص رسول الله ﷺ، ولذلك فنحن نُحسن التأسي، ونقوم بواجب الدعوة إلى الله، ونقول للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥). ونذكركم بما قاله نبي الله لوط عليه السلام ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (سورة الشعراء: ١٣١). وننهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا يبعد أن نُتهم ويقال عنا ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل: ٥٦). فحينئذ لا يسعنا إلا أن نقول: تهمة لا ننفيها وشرف لا ندعيه، فالواجب علينا أن نتطهر من الدنس دقه وجله ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (سورة التوبة: ١٠٨).

وإذا كان هؤلاء الذين تلبسوا بالشرك والمعاصي يريدون منا أن نخجل من إظهار شعائر الدين، أو أن نتوارى بمعاني الإيمان، فهذا الكيد إنما يزيدنا إصراراً واستمساكاً بدعوتنا، وأن نصدع بما نؤمر ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥). ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (سورة الحجر: ٩٤-٩٥). بل ويكون شأننا كما قال القائل: كن كالشجر يقذف بالحجر فيلقى الثمر.

إن من تعامل مع الله وأخلص أمره لله لا يستحثه المدح والثناء كما لا يثنيه الاستخفاف والاستهزاء فهو سائر في طريقه، عمله في الأرض ونظره في السماء، عليه البلاغ المبين، وقلوب العباد بيد الله يصرفها كيف يشاء، فضلاً وعدلاً ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة فصلت: ٤٦).

قد يترك الدعاة إلى الله دخول البرلمان ويتجنبون ترويع الأبرياء ولا يتورطون في مسالك الغلو في التكفير، ومع ذلك سيتهمون حتمًا لا محالة بأنهم قالوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٦٥).

فهنيئًا لهم، فهم على درب الأنبياء يسيرون وإلا فما هي تهمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . . . عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وما هي تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود. . .

تهمة تتكرر من مبطلين يصرون على باطلهم فهل يترك أهل الحق دعوتهم!!!

كان أويس بن عـامر ـ رحمه الله ـ يـقول: نأمرهم بالمعـروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم.

الخاتمة

دعوة الأنبياء والمرسلين ترسم الطريق لكل من جاء بعدهم في علو الهمة والصدق والإخلاص والتجرد، وشأن نبى الله لوط ﷺ كشأن إخوانه الأنبياء، عندما وجه دعوته لقومه، قال لهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٠٩). واجه الإساءة بالإحسان، والكفر بالإيمان، والفاحشة وفعل المنكرات بدعوتهم قولاً وفعلاً للتطهر والعفاف فازدادوا غيًا وسفهًا وقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة العنكبوت:٢٩). وشابهوا في ذلك قريش عندما قالت: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الأنفال:٣٢). وهكذا يُحدث الكفر والضلال طمسًا للقلب والبصيرة فينحرف اللسان ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج:٤٦). ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء:٧٢).

يتخيل ويتُصور ممن كان عنده مسحة من عقل فيرجع عن غيه ويُسلم وجهه، قبل حلول العذاب ولكن هؤلاء يبدو أن نفوسهم الأمارة بالسوء حدثتهم بأن لوطًا ليس صادقًا ولن يحل بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون، وهنا دعا نبى الله لوط ﷺ ربه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة العنكبوت:٣٠). قالها لوط بعد أن ازدادت جرأة قومه، وتمادوا في فجورهم قالها يشكو ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على قومه، قالها بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، قالها وهو مؤمن بأن الله لن يتخلى عنه ولن يخذله ولن يضيعه، فلم ترهبه صولة الباطل ولا كثرة أهله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الروم:٤٧). ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (سورة غافر:٥١). ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة المجادلة:٢١). علق قلبه

بالله وأناب إليه وتوكل عليه، وشابه نبى الله نوح في قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (سورة القمر: ١٠). فكيف يشقى أو يهلك مع الدعاء، بل كانت الإجابة معه، فقد افترقوا أكبر الظلم بكفرهم بالله، وظلموا أنفسهم بفعل الفاحشة والصد عن سبيل الله، وظلموا نبيهم لوط ومن آمن معه وكل ذلك عجل بدمارهم في الدنيا، ثم هم يوم القيامة من المقبوحين المعذبين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (سورة هود: ٨٢-٨٣).

وقال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٧٠-١٧٣).

لم يكن مطر رحمة وإنما مطر عذاب، طالما استنكفوا عن معاني الرحمة والطهر، وطويت بذلك صفحتهم في الدنيا، وختمت قصتهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الشعراء: ١٧٤-١٧٥).

وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة النمل: ٥٩).

وبقيت العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

كان بعض العلماء يقول: أنتم تنتظرون المطر وأنا أنتظر حلول العذاب. ولم يكن متشائمًا، بل رأى مقدمات الشر فخاف نتائج العذاب.

ونسأل الله أن يجعل صمتنا فكرًا ونطقنا ذكرًا ونظرنا عبرًا، وأن يتوفنا مسلمين ويلحقنا بالصالحين إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين


قصص الأنبياء عظات وعبر
قصة
سليمان عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (سورة النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

تعيش الأمة فترة عصيبة في تاريخها، تتطلب وقفة صدق، ونصيحة خالصة لإبراء الذمة بين يدى الله، فاليهود وهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا لم يكتفوا بانتزاع الحق من أهله، والاستيلاء على المقدسات في غفلة من أصحابها، بل استطاعوا أن ينتزعوا الإعتراف بدولة إسرائيل من المسلمين، وأن يقيموا علاقات طبيعية معهم، ويفرضوا سياسة الأمر الواقع في صورة سلام ذليل مهين، أصبح بمقتضاه، من لا يملك يعطي من لا يستحق.

وقد جاءت هـذه الدولة ثمرة لأمور عديدة، فـهى ثمرة الجهد اليـهودي المنظم، وثمرة الأمم المتحدة المشـبوهة، وثمرة الخيانة لبعض زعماء العـرب، وهي ثمرة التآمر الماسوني الصهيـوني الذي أقصى السلطان عبد الحميد وجـاء بأتاتورك والحرب العالمية الأولى، وهي ثمرة التآمـر البريطاني ووعد بلفور، ثم هي انتقام رباني بسـبب نسياننا لديننا، فما تمكن اليهود من رقابنا إلا بعـد أن صار ديننا وراءنا ظهريا، واستبدلنا شرع الله بنظم وضعية، وأشربنا حب الدنيا وكراهية الموت، فـما كان يضيرنا تحالف اليهود مع الأمريكان، إن نحن وثقنا صلتنا بخالق الأرض والسماوات.

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠).

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٦).

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ (سورة المجادلة: ٢١).

ومن كان الله معه فمن عليه، مـعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (سورة النحل: ١٢٨).

ولكن ضيعـنا أمر الله، فتلاعب بنا أعـداء الإسلام، وصرنا كاليتـيم على موائد اللئام، فالتقوى زائلة، والصبر ضعـيف، والضعفاء مهملون، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم.

والمتتـبع للأحداث يجـد أن اليهود لا يكتـفون باغتـصاب فلسطين، بل يسـعون جاهـدين لإقامة الـدولة اليهـودية العالميـة، التي تمتد من النيل إلى الفـرات، وتكون عاصـمتهـا القدس، فقـد عقدوا مـؤتمر بال بسويسرا عـام ١٨٩٧م بزعامة الصـحفي اليـهودي هرتزل، وطالبـوا في هذا المؤتمر بإقامـة هذه الدولة، وحـددوا عام ١٩٤٧م لإقامة الوطن القومي في فلسطين، كما تم تحديد عام ١٩٩٧م لإقامة الدولة العالمية.

وهم ينبثقــون في تصوراتهم من التوراة المحرفة، والتلمود الذي كـتبوه بأيديهم، كمــا يصدرون عن بروتوكـولات حكماء صـهيـون، فهى دولة عـقائدية في نشـأتها وأهدافها وتوسعاتهــا، والعلم المرفوع عليها وتصريحات ساستها وزعــمائها، عقائدية في حربها وسلمها.

وقد جرت محــاولات عديدة لهدم المسجد الأقصى، وكــان آخرها شق ما يسمى بنفق البراق تحت المســجد تمهيداً لهــدمه لإقامة هــيكل سليمان على أنقاضــه، وحتى يصبح الحلم بإقامة دولة إسرائيل الكبرى واقعًا ملموسًا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يوسف: ٢١).

فمن هو سليمــان الذي يحرص اليهود على إقامة هيكله؟ ومــا هي قصته؟ وهل يسلم لهم هذا الادعاء؟

هذا ما نحاول أن نجيب عليه، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

❏●★●❏

★ **نسب سليمان ﷺ:**

هو سليمان بن داود من سبط يهوذا بن يعقوب، وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعقوب هو المسمى «إسرائيل» ﷺ ، وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى ﷺ ،أما داود فقد أعطاه الله الزبور كما قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٥٥).

وجمع له سبحانه وتعالى بين النبوة والملك، وأعطاه خيرى الدنيا والآخرة، فكان نبيا ملكا كما كان ولده سليمان ﷺ . وقد كان نبى الله سليمان ﷺ عظيم الحكمة، ولذلك يسميه أهل الكتاب «سليمان الحكيم» ولا يلقبونه بالنبى أصلاً.

★ **ذكره في القرآن:**

ذكر اسم سليمان ﷺ في ست عشرة آية، ووردت قصته في مواضع كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (سورة البقرة: ١٠٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (سورة النساء: ١٦٣).

وقال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٨٤).

وقال جل وعلا: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩).

وقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨١-٨٢).

وقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة النمل: ١٥-١٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (سورة سبأ: ١٢-١٤).

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (سورة ص: ٣٠-٤٠).

★

★ **ثناء القرآن عليه:**

جمع الله تبارك وتعالى لنبيه سليمان ﷺ بين الملك والنبوة، كما جمعها لوالده داود ﷺ ، وكان ملكه واسعا وسلطانه عظيمًا، وقد أثنى عليه سبحانه وتعالى في عدة مواضع من كتابه فوصفه بأنه من عباده المحسنين.

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٨٤).

وأثنى عليه بالعلم والفهم والحكمة فقال: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩). ووصفه سبحانه بأنه من عباده الشاكرين فقال: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سورة سبأ: ١٣).

وقد حقق سليمان مقام العبودية فكان نعم العبد المطيع لربه، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص: ٣٠). الأواب: هو المطيع ولما كان الجزاء من جنس العمل أثابه سبحانه، وجعل له المكانة العالية عنده فقال: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (سورة ص: ٤٠) .

★ **وراثة سليمان لداود في الملك والنبوة لا في المال:**

قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ (سورة النمل: ١٦). هي وراثة الحكم والنبوة، لا وراثة المال إذ أن الأنبياء لا تورث، وما تركوه صدقة كما صح الخبر بذلك.

قال ابن كثير: أي ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال لأنه كان له بنون غيره، وفي الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه»[١] . صدقة فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم بل تكون أموالهم صدقة على الفقراء اهـ.

---

(١) مسلم (١٧٥٧)، أحمد (٢٥٧٢٨).

قال الكلبي: كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولدًا، فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كانت وراثة مال لكان كل أولاده فيه سواء.

وقاله ابن العربي قال: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد، فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ولا يجوز القول بأن الوراثة كانت في المال بالنسبة لنبي الله سليمان أو غيره من الأنبياء عليهم السلام لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»[1].

قال القرطبي: فهو عام ولا يخرج منه شئ إلا بدليل، ونقل قول مقاتل: كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدًا من سليمان.

قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه، فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحدًا من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها.

★ بين العبد الرسول والنبي الملك:

النبوة اصطفاء واجتباء، لا تنال بالكسب والاجتهاد، بل هي نعمة إلهية.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤). وقال: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الحج: ٧٥).

وقد أجمعت الأمة على تفضيل الأنبياء على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين، والأنبياء يتفاضلون ويتفاوتون فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٥٥).

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبي داود من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم وأبي داود والنسائي من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، وهم كذلك يتفاضلون فيما بينهم قال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٣).

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥).

وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا ﴾ (سورة الشورى: ١٣).

والمشهور عند العلماء أن النبي يوحى إليه ولا يؤمر ببلاغ، فإن كلفه الله تعالى بإبلاغ وحيه إلى الناس يكون نبيا رسولا.

والتفضيل بين الأنبياء قد يحدث برفع درجة من فضل منهم أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه أو بإعطائه خيرًا لم يعطه غيره.

والتفضيل قد يكون لأسباب أخر، فالنبي قد يكون نبيا لا غير، وقد يكون نبيا ملكًا، وقد يكون عبدًا رسولاً.

في ذلك يقول ابن تيمية: فالنبي الذي كذب ولم يتبع ولم يطع، هذا نبي وليس بملك، أما الذي صدق واتبع، وأطيع، فإن كان لا يأمر إلا بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك، وإن كان يأمر بما يريده مباحًا له فهو نبي ملك، كما قال الله لسليمان: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة ص: ٣٩).

فالنبي الملك هنا قسيم العبد الرسول، كما قيل للنبي ﷺ: «إختر إما عبداً رسولاً، وإما نبياً ملكاً»[1].

---

(١) رواه أحمد (٧١٢٠)، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه والطبراني بإسناد حسن، البيهقي في الزهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وحال العبد الرسول أكمل من حال النبي الملك، كما هو حال نبينا محمد ﷺ، فإنه كان عبدًا رسولا، مؤيدا مطاعا متبوعا، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه، وينتفع به الخلق، ويرحموا به، ويرحم بهم، ولم يختر أن يكون ملكا، لئلا ينقص لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال عن نصيبه في الآخرة، فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف. اهـ.

★ بعض مظاهر النعمة وصور المنة على سليمان عليه السلام:

ورث سليمان داود في العلم والنبوة والخلافة في الأرض، وبالإضافة إلى ذلك فقد أكرمه الله تعالى بنعم عظيمة، وخصه بمزايا عديدة، ومنن كبيرة، ومن جملة ذلك:

أولاً- آتاه الله الحكمة على حداثة سنه:

قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (سورة الأنبياء:٧٨-٨٩).

ذكر المفسرون: أن زرعا دخلت فيه غنم لقوم ليلا فأكلته وأفسدته، فجاء المتخاصمون إلى داود وعنده سليمان، وقصوا عليه القصة فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضًا عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً، فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟.

فلما علم قال: انصرفا معي، فأتى أباه فقال: يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا، وأني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل

واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك، وقضى بما قضى به سليمان، قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما.

قال الكلبي: قوَّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم.

وهكذا قال النحاس، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضًا.

ومما يدل على حكمة سليمان، وجودة رأيه في الحكم والقضاء، ما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: ائتوني بسكين أشقه بينكما نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها»[1]؛ وذلك لما رأى الصغرى تندفع بعاطفة الأمومة تجاه الصبي، بينما سكتت الكبرى ولم تهتم.

★ اجتهاد الأنبياء:

يجوز للأنبياء الاجتهاد في الوقائع التي تعرض عليهم، وهم يحكمون وفق ما يبدو لهم، طالما لم ينزل الوحي في هذه الواقعة، وهذا قول المحققين من العلماء، فإذا حدث خطأ في إصابة الحق نبهوا عليه.

ومن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم، وتوفيق الله لابنه سليمان تلك المسألة.

---

(١) رواه الشيخان والنسائي.

ومن ذلك سؤال المرأة لرسول الله ﷺ عن العدة فقال لها: «اعتدي حيث شئت» ثم قال لها: «إمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»[١].

وقال له رجل: «أرأيت إن قتلت صابرًا محتسبًا أيحجزني عن الجنة شيء؟»، فقال: «لا»، ثم دعاه فقال: «إلا الدين كذا أخبرني جبريل عليه السلام»[٢].

ومن ذلك قبول النبي ﷺ الفداء من أسرى بدر ونزول قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (سورة الأنفال: ٦٧).

وروت أم سلمة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعضهم، فأحسب أنه صادق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»[٣].

وفي هذا الحديث دليل على أن الأنبياء قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء.

★ اجتهاد العلماء والقضاة:

روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[٤].

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الحكم قبل الإجتهاد، وقال الأصوليون: يجب على المجتهد أن يجدد النظر عند وقوع النازلة ولا يعتمد على اجتهاده السابق.

وإنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالمًا بالإجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى، فأما من لم يكن محلاً للإجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر.

---

(١) رواه الترمذي (١٢٠٤)، ومالك، وأبو داود، والترمذي، و النسائي، من حديث الفريعة بنت مالك.
(٢) رواه أحمد، والبزار، من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٢٤٥٨) ورواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(٤) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩).

قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذم داود.

وقال أيضًا: لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه أثنى على سليمان صوابه، وعذر داود باجتهاده.

وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكًا عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق في جميع أقاويلهم.

وهذا قول أكثر الفقهاء، أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين، فهم يقولون: ما الحق إلا واحد، والمخطئ مأجور على اجتهاده وبذله وسعه، فإذا أصاب الحكم كان له أجران، أجر على اجتهاده وأجر على إصابته الحق، ولا يصح القول بأن كل مجتهد مصيب.

ثم حكم الحاكم وقضاء القاضي وفتوى المفتي لا تجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حرامًا، ويجب على القاضي أو المجتهد الرجوع عما حكم به إذا تبين له الحق في غيره، وقديمًا قالوا: وما كل خلاف جاء معتبرًا، فهناك خلاف سائغ معتبر، لا يفسد للود قضية، كاختلاف الصحابة في الصلاة في بني قريظة فقد تخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قريظة، وقال الآخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال عمر رضي الله عنه فما عنف النبي ﷺ واحدًا من الفريقين.

وكانوا يتناظرون في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والأخوة الإيمانية، أما من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

★ ***القول في الحرث، والحكم في هذه الواقعة في شرعنا:***

عمل جمهور الأئمة بحديث البـراء: «أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقـضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط «البساتين» حفظهـا بالنهار، وإن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن «مضمون» على أهلها»[١].

قال أبو عمر: وهذا الحديث وإن كان مرسلاً، فـهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدث به الثقات، واستعمله فقهـاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث. اهـ.

وقد فـرق الحديث بين الإتـلاف الحاصل بالليل والنهـار، وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلـى إرسال مواشـيهم ترعى بالنهـار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعهده بالنهار، ويحفظه عمن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع، لأنه وقت التصرف في المعـاش. فإذا جاء الليل ورد أهل المواشي مواشيهم إلى مـواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الإنتشار بالليل حتى أتلفت شيئًا، فعليه ضمان ذلك.

ومن هذا يتضح أن على أصحاب الحوائط حـفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمان في المثل بالمثليات، وبالقيمة في ذوات القيم.

ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتـادة عن الشعبي «أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شريح، فقال الشعـبي: انظروه فإنه سيسألهم ليلاً وقعت فيه أو نهارًا، ففعل ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ (سورة الأنبياء:٧٨). قال: والنفش بالليل والهمل بالنهار.

---

(١) رواه أبو داود من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

★ **اللهم يا مفهم سليمان فهمنا، فالفهم نعمة:**

ذكر الإمام ابن القيم مراتب الهداية أثناء تفسيره لسورة الفاتحة، فأوصلها إلى عشرة مراتب وهي باختصار:

١ ـ مرتبة تكليم الله عزَّ وجلَّ لعبده يقظة بلا واسطة.

٢ ـ مرتبة الوحى المختص بالأنبياء.

٣ ـ إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشري.

٤ ـ مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحى الخاص وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٥ ـ مرتبة الإفهام.

٦ ـ مرتبة البيان العام.

٧ ـ البيان الخاص.

٨ ـ الإسماع.

٩ ـ مرتبة الإلهام.

١٠ ـ الرؤيا الصادقة.

فاعتبر الإمام مرتبة الإفهام هي الخامسة وسط مراتب الهداية مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩).

قال ابن القيم: فذكر هذين النبيين الكريمين، فأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال على بن أبي طالب وقد سُئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ دون الناس؟ فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤته الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[1].

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن علي، وبنحوه لأبي داود والنسائي عن علي رضي الله عنه.

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : «والفهم فيما أدلى إليك».

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد.

فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (سورة النصر:١). وما خص به ابن عباس من فهمه.

منها: أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله؟! لولا الفهم الخاص.

ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء عن النصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها. ا.هـ.

اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمني ويا مفهم سليمان فهمني.

★ ثانيًا - تسخير الريح لسليمان:

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٨١).

أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة أي شديدة الهبوب، وكانت تجرى بأمره عليه السلام.

وقد بين سبحانه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ (سورة سبأ:١٢). وقوله: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (سورة ص:٣٦).

فتسخير الريح لسليمان من نعم الله عليه، حيث كانت تنقله إلى أي أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في وقت يسير.

قال الحسن: كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغدى، ويذهب رائحًا منها فيبيت بكابل، وبين دمشق واصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر.

وذكر ابن كثير: أنه كان له بساط تحمله الريح فيه الدور المبنية والخيام والأمتعة والخيول والجمال والرجال وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفر حملته الريح.

والأرض التي بارك ربنا فيها هي الشام، ويروي أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد ثم ترده إلى الشام.

وما ورد في النصوص، وقاله العلماء في تسخير الريح، لا يبعد، فإن الله قادر على كل شئ لا يعجزه شئ، والرياح مأمورة، تسير وفق أمر ربها، والمعجزات والكرامات ثابتة، وضابطها الإستقامة.

وبذلك فرق أهل السنة والجماعة بين الكرامة الرحمانية وبين الخارقة الشيطانية، فمن كان مستقيمًا على شرع الله لا يبعد أن يطير في الهواء أو أن يمشي على الماء، وشواهد ذلك كثيرة.

★ *الجمع بين كون الريح عاصفة ورخاء وبين كونها تجري إلى الأرض المباركة وحيث أصاب:*

وصف الله الريح في سورة الأنبياء بأنها عاصفة، أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء، وقد أجيب على ذلك بأنها عاصفة في بعض

الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

أو أنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سورة سبا:١٢). فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان.

وقد خص سبحانه جرى الريح بسليمان إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وذلك في سورة الأنبياء، وفي سورة «ص» قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (سورة ص:٣٦). ولا تعارض فقد كانت تجرى بأمره حيث أراد من أقطار الأرض ثم ترده إلى الشام لأن مسكنه فيها، وهي الأرض المباركة المذكورة في سورة الأنبياء، ذكر معناه الشنقيطي والقرطبي وغيرهما.

★معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة لمعجزات نبي الله سليمان عليه السلام:

ما من معجزة ثابتة لنبي من الأنبياء إلا وقد ثبت ما هو أعظم منها لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن ذلك تسخير الريح لسليمان.

يقول ابن كثير في «شمائل الرسول ﷺ» ص٥٥٧: أما تسخير الريح لسليمان فقد قال الله تعالى في شأن الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (سورة الأحزاب:٩).

وقد تقدم في الحديث الذي رواه مسلم من طريق شعبة عن الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدَّبور»[1]. ورواه مسلم من طريق الأعمش عن مسعود بن مالك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ مثله، وثبت في الصحيحين: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»[2].

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠)، وأحمد (١٩٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) النسائي (٤٣٢)، وأحمد (٢٧٣٧).

ومعنى ذلك أنه ﷺ كان إذا قصد قتال قوم من الكفار ألقى الله الرعب في قلوبهم قبل وصوله إليهم بشهر، ولو كان مسيرة شهرًا.

فهذا في مقابلة: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سورة سبأ:١٢). بل هذا أبلغ في التمكين والنصر والتأييد والظفر، وسخرت الرياح تسوق السحاب لإنزال المطر الذي امتن الله به حين استسقى رسول الله ﷺ في غير ما موطن كما تقدم.

وقال أبو نعيم: فإن قيل: فإن سليمان سخرت له الريح، فسارت به في بلاد الله، وكان غدوها شهر ورواحها شهرًا، قيل: ما أعطى محمد ﷺ أعظم وأكبر، لأنه سار في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس مسيرة شهر، وعُرج به في ملكوت السموات مسيرة خمسين ألف سنة، في أقل من ثلث ليلة، فدخل السموات سماءًا سماءًا، ورأى عجائبها، ووقف على الجنة والنار، وعُرض عليه أعمال أمته، وصلى بالأنبياء وبملائكة السموات، واخترق الحُجب، وهذا كله في ليلة قائمًا، أكبر وأعجب اهـ.

★ ثالثًا - تسخير الجن لسليمان:

وهذه نعمة بينة، ذكرها سبحانه في موضع الإمتنان على نبيه سليمان فقال: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٢).

أي أنه سبحانه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين، أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان.

والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أيضًا أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك، أي سوى ذلك الغوص المذكور، أي كبناء المدائن والقصور، وعمل المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٨٢). أي من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، وهذه المعاني التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في غير هذا الموضع، كقوله في الغوص والعمل سواء: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (سورةص:٣٧) . وقوله في العمل غير الغوص: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (سورةسبأ:١٢) . وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ . وكقوله في حفظهم ممن أن يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورةسبأ:١٢) . وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (سورة ص:٣٨).

★ هذا التسخير لم يكن لأحد إلا سليمان:

لم يكن تسخير الجن لأحد من الأنبياء غير سليمان عليه السلام وهذه نعمة كبيرة فقد سُخرت له الشياطين تعمل ما يشاء من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عفريتا من الجن تفلت عليَّ البارحة، (أو كلمة نحوها)، ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى يصبحوا وينظروا إليه، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (سورة ص:٣٥)».

قال روح: «فرده الله خاسئا»[1] . ولمسلم عن أبي الدرداء نحوه، قال: «ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح يلعب به ولدان أهل المدينة» .

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد عن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعيَّ هاتين،

(١) البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١)، وأحمد (٧٩٠٩).

(الإبهام والتي تليها)، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به د بيان أهل المدينة».

★ معجزات مماثلة لرسول الله ﷺ:

أنزل الملائكة[١]. المقربين لنصرة عبده ورسوله ﷺ في غير ما موطن، يوم أحد وبدر ويوم الأحزاب ويوم حنين، وذلك أعظم وأبهر، وأجل وأعلى من تسخير الشياطين، وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصُفدت الشياطين»[٢]. وفي رواية: «مردة الجن»، فهذا من بركة ما شرعه الله له من صيام شهر رمضان وقيامه، ومن ذلك دعاء رسول الله ﷺ لغير ما واحد ممن أسلم من الجن فشفى، وفارقهم خوفًا منه ومهابة له، وامتثالاً لأمره صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بعث الله نفرًا من الجن يستمعون القرآن فآمنوا به وصدقوه، ورجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى دين محمد ﷺ وحذروهم مخالفته، لأنه كان مبعوثًا إلى الإنس والجن، فآمنت طوائف من الجن كثيرة، ووفدت إليه منهم وفود كثيرة، وقرأ عليهم سورة الرحمن، وأخبّرهم بما لمن آمن منهم من الجنان، وما لمن كفر من النيران، وشرع لهم ما يأكلون، وما يطعمون دوابهم[٣]. فدل على أنه بين لهم ما هو أهم من ذلك وأكبر.

وقد امتنعت الغول كل الإمتناع خوفًا من المثول بين يديه ﷺ، وكانت الغول تسرق التمر من جماعة من أصحابه ﷺ، وأرادوا إحضارها إليه، ثم افتدت منهم بتعليمهم قراءة آية الكرسي التي لا يقرب قارئها الشيطان[٤].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ لابن كثير.

(٢) رواه مسلم (١٠٧٩) ومالك في الموطأ والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قصة وفود الجن وسماعهم القرآن رواها مسلم والترمذي وأبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) الترمذي من حديث أبو أيوب رضي الله عنه والبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والغول: هي الجن المبتدي بالليل في صورة مرعبة.

ومن ذلك حماية جبريل له عليه الصلاة والسلام غير مرة من أبي جهل[1]، ومقاتلة جبريل وميكائيل عن يمينه وشماله يوم أحد[2].

★ **حكم استخدام الجن:**

بعض الناس قد يتوصل للتعامل مع الجن، ومنهم من يسلك المسالك المحرمة في سبيل ذلك كمناداة الغائب، وتعلق القلب بالجنى من دون الله في جلب النفع ودفع الضر.

وقد يحصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير، وإنما برضى الجنى. وهذا الأمر على صور ذكرها ابن تيمية فقال:

«فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه.

من كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حُرِّم عليهم ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك، وهذا إذا قُدرٍ أنه من أولياء الله، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهي الله عنه ورسوله إما في الشرك، وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك ومن

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه.

الظلم، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان.

ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص: إما فاسق، وإما مذنب غير فاسق، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة، فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج، أو يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات، ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به. اهـ.

***هل صنعوا لسليمان التماثيل المحرمة؟ وهل يجوز التصوير؟:**

قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ (سورة سبأ: ١٣).

والمحراب: هو المكان المرتفع المعظم أو هو الموضع الذي يُصلي فيه.

قال مجاهد: المحاريب دون القصور.

والتمثال: هو كل ما صُوِّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان، وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليسدى بحيوان وقيل غير ذلك.

وجفان كالجواب: قال مجاهد: كحياض الإبل، أو الحفرة الكبيرة تكون في الجبل فيها ماء المطر.

وقدور راسيات: هي قدور النحاس أو قدور تُعمل من الجبال.

ولا يجوز لأحد الاستدلال بهذه الآية لإباحة التماثيل والتصاوير، إذ يحتمل أن تكون التماثيل لغير ذوات الأرواح، وعلى افتراض أنها لذوات الأرواح، فهذا شرع من قبلنا ولا يجوز العمل به طالما خالف شرعنا حتى قال ابن عطية عن التصوير: «وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه، وذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم، أن قول جماهير العلماء سلفًا وخلفًا على حرمة تصوير ما لا ظل له».

ويستدل على حرمة التصوير وصناعة التماثيل بعدة استدلالات منها:

١ ـ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة»[(١)].

ويباح من ذلك ماله مصلحة راجحة كالبطاقات وجوازات السفر والتصوير للطب والجغرافيا وتعقب المجرمين... أما ما كان للذكرى وما شابه ذلك فلا يجوز.

٢ ـ روت عائشة رضي الله عنها: «انها نصبت ستراً فيه تصاوير، فدخل رسول الله ﷺ فنزعه»[(٢)].

وعنها: «انه ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاوير إلا نقضه»[(٣)].

وهذا يعم التصاوير المرسومة باليد أو الملتقطة بالفوتوجراف، وسواء كانت معلقة على الجدران أو في الثياب أو في الألبومات...

وعن علي رضي الله عنه: «ان النبي ﷺ امره أن لا يدع صورة إلا طمسها»[(٤)].

٣ ـ روى الدارقطني وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه» وورد النهي عن ثمن الأصنام، ولذلك قال أهل العلم: إن بيع الصور منهى عنه وثمنها حرام.

٤ ـ في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون»[(٥)] وفيه حديث ابن عمر وأبي هريرة، والأحاديث في تحريم التصوير كثيرة، ولفظ المصورون يشمل جميع أنواع التصوير، وقد استثنى بعض أهل العلم لعب البنات لأن أم المؤمنين عائشة كان عندها لعب البنات وحصان له جناحين.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥١)، مسلم (٢١٠٨)، النسائي (٥٣٦١)، أحمد (٥٧٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٠٧)، النسائي (٥٣٥٥).

(٣) رواه البخاري (٥٩٥٢) في اللباس، بلفظ: «تصاليب» بدلاً من تصاوير.

(٤) رواه مسلم (٩٦٩) في الجنائز وأبو داود (٣٢١٨) في الجنائز، والترمذي (١٤٩) في الجنائز.

(٥) رواه البخاري (٥٩٥٢) في اللباس، مسلم (٢١٩) في اللباس والزينة.

قال المُزَني عن الشافعي: إن دُعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورًا ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبة، وإن كانت توطأ فلا بأس، وإن كانت صور شجر.

رابعًا ـ أسال الله له عين القطر:

والقطر: هو النحاس المذاب، قيل: كان النحاس يتدفق له مذابًا من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منه ما شاء، قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (سورة سبا:١٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير القطر: بأنه النحاس، وعين القطر كانت باليمن أنبعها الله له، فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها.

وقال البعض: ولعل ذلك كان في أرض بركانية.

وهذه معدودة ضمن نعم الله على عبده سليمان، وقد وردت عقب ذكر تسخير الريح له قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (سورة سبا:١٢). فكما ألان الله لأبيه داود الحديد﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (سورة سبا: ١٠). فقد أسال له سبحانه النحاس.

خامسًا ـ تعليمه منطق الطير:

كان من نعم الله على سليمان، أن علمه منطق الطير، وسائر لغات الحيوان، فكان يفهم ما تقول وربما تحدث معها كما كان الأمر مع الهدهد والنملة...

قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النمل:١٦). ومن المعلوم أن النمل أمة والكلاب أمة... وما من أمة من هذه الأمم إلا وبينها لغة تخاطب ووسائل تفاهم، أودع ذلك فيها الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى، وقد أطلع سبحانه نبيه سليمان عليه السلام على منطق الطير كرامة له بل قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان

عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا، أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان. اهـ.

★ طرائف وعجائب ونصائح مهداة من الطير:

قال مقاتل: كان سليمان جالسًا ذات يوم مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملك المسلط والنبي لبني إسرائيل، أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمرّ بك الثانية، وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع، فقال: إنه يقول: السلام عليك أيها المسلَّط، إن شئت أن تأذن لي كيما اكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم آتيك، فافعل بي ما شئت، فأخبرهم سليمان بما قال، وأذن له فانطلق.

وقال فرقد السَّبخي: مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذيله، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يانبي الله. قال: إنه يقول: أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العفَاء.

ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبي فخًا، فقال له سليمان: إحذر يا هدهد، فقال: يا نبي الله، هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به، ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حبالة الصبي وهو يده، فقال: هدهد ما هذا؟ قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يانبي الله، قال: ويحك، فأنت ترى الماء تحت الأرض، أما ترى الفخ!! قال: يانبي الله إذا نزل القضاء عمى البصر.

وقال كعب: صاح ورشان عند سليمان بن داود، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: إنه يقول: لِدُوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: ليت هذا الخلق لم يُخلقوا، وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا.

وصاح عنده طاوس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كما تدين تدان. وصاح عنده هدهد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: من لا يَرحم لا يُرحم. وصاح صُردَ عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين، فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

وقيل: إن الصُّردَ هو الذي دل آدم على مكان البيت، وهو أول من صام، ولذلك يقال للصُّردَ الصوام، روى عن أبي هريرة.

وصاحت عنده طيطَوى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: كل حي ميت، وكل جديد بال. وصاحت خُطَّافة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: قدموا خيرًا تجدوه، فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها.

وقيل: إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف، وألزمها البيوت، فهى لا تفارق بني آدم أنسًا لهم.

قال: ومعها أربع آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ﴾ (سورة الحشر: ٢١). إلى آخرها وتمد صوتها بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهدرت حمامة عند سليمان فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما في سمواته وأرضه.

وصاح قُمْرى عند سليمان، فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن.

وقال كعب: وحدثهم سليمان، فقال: الغراب يقول: اللهم العن العشَّار [المكاس وجابي الضرائب دون حق]، والحِدَأة تقول «كل شئ هالك إلا وجهه» والقطاة تقول من سكت سلِم، والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقال مكحول: صاح درّاج عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (سورة طه:٥). وقيل: إن الديك إذا صاح قال: اذكروا الله يا غافلين، وأن النسر إذا صاح قال: يا ابن آدم عِش ما شئت فآخرك الموت، وإذا صاح العُقَار قال: في البعد من الناس الراحة، وإذا صاح القُنبر، قال إلهي العن مبغضي آل محمد، وإذا صاح الخطاف قرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخرها فيقول: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾. ويمد بها صوته كما يمد القارئ.

وما أحسن ما قيل من ذلك، لو كان مرفوعًا لرسول الله ﷺ، فهي أشبه بالإسرائيليات التي صحت معانيها، ولا يصح نسبتها لرسول الله ﷺ.

★ قصة سليمان مع النملة:

كان جند سليمان مؤلفًا من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شئونهم، وجعل عليهم من يرد ويزع من تقدم منهم ويكفونهم ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (سورة النمل:١٧).

تذكر كتب التفسير: أن ملكه كان عظيمًا ملأ الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وقد قص علينا القرآن الكريم قصته عندما خرج بجنده فمر على وادي النمل، فسمع نملة تتكلم مع بني جنسها ناصحة لهم، وفهم سليمان كلامها واعتذارها فتبسم ضاحكًا من قولها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل:١٨). وهذا دليل على أنه كان في موكبه راكبًا في خيوله وفرسانه، كما ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية».

وروى عن السدى أنه قال: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا للاستسقاء، فإذا بنملة قائمة على رجليها، باسطة يديها وهي تقول: «اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غني لنا عن فضلك»، فقال: ارجعوا فقد سقيتم من أجل هذه النملة.

*** وفي القصة فوائد منها:**

أدب النملة وشفقتها:

فهم سليمان ما خاطبت به النملة أسراب النمل حين أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم لئلا يتحطموا تحت وطأة الأقدام، وهذا من تمام نصحها وشفقتها على بني جنسها، ثم اعتذرت عن سليمان وجنده بذلك الإعتذار اللطيف لحسن ظنها بسليمان وجنده، فلم يدفعها الخوف إلى التهور في القول والجور في الحكم بل قالت: ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة النمل:١٨) أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا.

وهذا دليل على أدب النملة وحسن خطابها وتمييزها بين الأشرار والأبرار.

قال القرطبي: «فالنملة أثنت على سليمان، وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، ولذلك نهى عن قتلها» وهي المسألة التالية.

النهي عن قتل النمل:

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: **«أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح»**[(١)] وفي طريق آخر: **«فهلا نملة واحدة»**[(٢)].

فإن كان النمل مؤذيًا أو مفسدًا، ولم يندفع أذاه إلا بقتله جاز ذلك، وهذا شبيه بدفع الصائل.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٩)، ومسلم (٢٢٤١)، والنسائي (٤٣٥٨)، وأبي داود (٥٢٦٦)، وابن ماجه (٣٢٢٥)، وأحمد (٨٩٧٦).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروي عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتله، وقوله ﷺ: «ألا نملة واحدة»[١] دليل على أن الذي يؤذي يُؤذَى ويقتل. وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء.

وفي الحديث دليل على أن النمل أمة من الأمم، وله تسبيح، ولكن لا يعلم كيفيته إلا الله، وقد خرق جلٍّ وعلا العادة لنبيه سليمان ففهمه منطق النملة، وهذا معجزة له، وتبسم من قولها، وهذه هي المسألة التالية.

فتبسم ضاحكًا من قولها:

في الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: «أكنت تجالس النبي ﷺ، قال: نعم كثيرًا، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغداة ـ حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم»[٢].

فكان النبي ﷺ في أكثر أحواله يبتسم، وكان أيضًا يضحك في أحوال أُخر ضحكًا أعلى من التبسم وأقل من الإستغراق الذي تبدو فيه اللَّهَوات، وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه.

وقد كره العلماء الإكثار من الضحك كما قال لقمان لابنه: «يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة من النملة، ولذلك أكد التبسم بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾.

هداية الحيوانات:

قال القرطبي: «لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول»، وقد قال الشافعي: «الحمام أعقل الطير».

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم.

قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قوي شمام جدًا يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب قطعتين لئلا ينبت، ويشق الكريزة بأربع قطع، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقى سائره عدّة.

قال ابن العربي: «وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها» أهـ.

والنمل من أحرص الحيوان، وضرب بحرصه المثل، وهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر، أو بالسمع، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها، ويتميز النمل بعلو الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وقد ذكر ابن القيم في كتابه «شفاء العليل» هداية النمل فقال: وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء.

★ أعطى رسول الله ﷺ مثل معرفة منطق الطير وأكثر منه:

قال أبو نعيم: فإن قيل: سليمان عليه السلام كان يفهم كلام الطير والنملة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ (سورة النمل:١٦) الآية وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (سورة النمل:١٨-١٩).

قيل: قد أعطى محمد ﷺ مثل ذلك وأكثر منه، فقد تقدم ذكرنا لكلام البهائم والسباع، وحنين الجِذْع، ورُغَاء البعير، وكلام الشجر، وتسبيح الحصا والحجَر، ودعائه إياه واستجابته لأمره، وإقرار الذئب بنبوته، وتسبيح الطير لطاعته، وكلام الظَّبْيه وشكواها إليه، وكلام الضَّب وإقراره بنبوته، وما في معناه. أهـ[1].

---

(١) كل ما ذكر ورد بأسانيد صحاح وحسان في الصحيحين والسنن والمسانيد من الحديث وانظر كتب الشمائل.

قال ابن كثير في (شمائل الرسول): وكذلك أخبره ذراع الشاة بما فيه من السم، وكان ذلك بإقرار من وضعه فيه من اليهود[1].

وقل ﷺ: «إني لأعرف حجرًا كان يسلم عليَّ بمكة قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[2].

قال علي: «**خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة، فما مر بحجر ولا شجر ولا مدَر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله**»، فهذا النطق سمعه رسول الله ﷺ وعلي رضي الله عنه. أهـ[3].

وهذا كله أبلغ مما حدث لنبي الله سليمان عليه السلام.

★ *قصة نبي الله سليمان مع الهدهد:*

قال ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسًا يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يومًا بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره فقال: ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (سورة النمل: ٢٠).

روي أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس رضي الله عنهما: «كيف يرى الهدهد باطن الأرض، ولا يرى الفخ حين يقع فيه؟»، فقال له ابن عباس: «**إذا جاء القدر عمي البصر**».

ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم بالقرآن كما قال ابن العربي.

---

(١) رواه أبو داود حديثًا جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم والترمذي من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي من حديث علي رضي الله عنه.

ثم إن سليمان لما افتقد الهدهد قال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (سورة النمل: ٢١) يعني: نتف ريشه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال غير واحد من السلف: نتف ريشه وتشميسه ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ (سورة النمل: ٢١) يعني قتله ﴿لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة النمل: ٢١) بعذر بيّن واضح.

قال البعض: فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظًا على العاصين، وعقابًا على إخلاله بنَوْبه ورتبته، وكأن الله أباح له ذلك كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع.

قال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قالت له الطير: ما خلفك؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم، قال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة النمل: ٢١).

قال نجوت إذًا. قال مجاهد: إنما دفع الله عنه ببره بأمه.

وهذه القصة لا تخلو من دروس عديدة تتعلق بالتثبت، وعدم إنفاذ الوعيد والعقوبة إلا بعد ثبوت التهمة، وقيمة الصدق وبر الوالدين، فالطاعة نجاة والمعصية هلكة.

كما أن فيها دلالة واضحة على المسألة التالية.

★ تفقد الإمام أحوال رعيته:

في تفقد سليمان للطير دليل واضح على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم.

فإن سليمان على الرغم من كثرة إنشغاله من جهة، وصغر الهدهد من جهة أخرى، إلا أنه لم يخف على سليمان حاله، فكيف بما هو أعظم من ذلك.

وهذا الإهتمام لم يكن قاصرًا على سليمان عليه السلام، فإن عمر رضي الله عنه كان على سيرته، وكان يقول: لو أن شاة عثرت بوادي الفرات لسئل عنها عمر يوم القيامة لِمَ لمْ يمهد لها الطريق.

فما ظنك بحاكم تضيع على يديه البلاد والعباد!!

وكان عمر يتفقد أحوال رعيته بالليل والنهار، وكان يراجع أحوال أمرائه بنفسه كما في الصحيح عن ابن عباس: «أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغٍ [قرية بوادي تبوك] لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، وكان خروجه ذلك بعد ما فتح بيت المقدس سنَة سبع عشرة».

فينبغي على الإمام أن يتفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال، ورحم الله ابن المبارك حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ✶ وأحبار سوءٍ ورهبانها

*** قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ:**

قصة نبي الله سليمان عبارة عن مشاهد كثيرة، فقد عرف القرآن مظاهر النعمة وصور المنة على سليمان.

كما قص علينا ما كان منه عليه السلام مع النملة والهدهد، وانتقلت الآيات للحديث عن ملكة سبأ وقومها.

قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (سورة النمل:٢٢) أي أن الهدهد غاب زمانًا يسيرًا ثم جاء فقال لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من سبأ بنبأ يقين، أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن.

ثم قال الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النمل:٢٣) وهذه المرأة هي بلقيس، وكان معها ألف قَيْل، وتحت كل قيْل: مائة ألف مقاتل على قول ابن عباس، وكانت بلقيس من بيت مملكة، وأولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر رجلاً، وكانت بأرض يقال لها: مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء، قال ابن كثير: وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم.

رأى الهدهد بلقيس قد أوتيت الكثير من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، ولها عرش عظيم، يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ.

ثم هم لم يؤدوا شكر هذه النعم، ولذلك تعجب الهدهد وقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النمل: ٢٤).

أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (سورة فصلت: ٣٧).

لقد ضلت عقول القوم وسفهت أحلامهم، عندما صرفوا العبادة لغير ربهم، مما جعل الهدهد ينطق ويقول: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة النمل: ٢٥-٢٦).

فهو سبحانه يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وما جعل فيها من أرزاق المطر والنبات، كما يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

يقول ابن كثير: ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب: «النملة والنحلة والهدهد والصُّرَدْ»[1] وإسناده صحيح أهـ. ويستوقفنا هنا عدة مسائل نذكرها باختصار.

---

(١) رواه من حديث ابن عباس أبي داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، وأحمد (٣٠٥٧)، والدارمي (١٩٩٩).

★ الأنبياء لا تعلم الغيب:

المسافة ليست بعيدة بين سليمان وبلقيس ملكة سبأ، وقد ذكرنا أن نبي الله سليمان سُخرت له الجن والريح، وكان ملكه عريضًا، وعلى الرغم من هذا التمكين، إلا أنه لم يعلم بخبر ملكة سبأ وحالة قومها إلا من الهدهد، قال: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ (سورة النمل: ٢٢-٢٣).

وهذا دليل واضح على أن الأنبياء لا تعلم الغيب، ولسان حالهم ينطق كما قالت الملائكة: ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (سورة البقرة: ٣٢). فهو سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (سورة الجن: ٢٦-٢٧). وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٨). ولعل الله أخفى ذلك عن سليمان لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف، وكم من أشياء مخلوقة وموجودة مع عدم رؤيتنا لها كالجنة والنار ويأجوج ومأجوج والدجال مما دلت عليه نصوص الشريعة، فلا سبيل لإنكار وجود ذلك بزعم التطور والتقدم العصري.

والأمر كما يقولون: من علم حجة على من لم يعلم، وإذا جاء شرع الله بطل نهر معقل فهل من يعقل، وإلا فالميكروبات كانت موجودة ولم يشاهدوها إلا بعد اختراع الميكروسكوب، فهل كان من العقل والحكمة إنكار وجود الميكروبات!!

★ الحكمة ضالة المؤمن والحق مقبول من كل من جاء به:

قال الهدهد لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ (سورة النمل: ٢٢) ففي هذه القصة دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه كما قال القرطبي: هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالإستئذان، وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس، ولم يعلمه عمر ولا زيد ابن ثابت، وكان غسل رأس المحرم معلومًا عند ابن عباس وخفي عن المِسْوَر بن مخرمةَ.

قال ابن السمعاني: «متى ثبت الخبر، صار أصلاً من الأصول، ولا يحتاج إلى عرضه على أصل آخر لأنه إن وافقه فذاك وإن خالفه لم يجز رد أحدهما لأنه رد للخبر بالقياس وهو مردود بالإتفاق، فإن السنة مقدمة على القياس» أهـ.

وقد قرر علماء الحديث، أن زيادة الثقة مقبولة طالما معه زيادة علم، فالحق يُصار إليه وهو مقبول من كل من جاء به، ويجب على الكل سواء كانوا حكامًا أو محكومين أن يكونوا أسرى الشريعة، يدورون مع إسلامهم حيث دار، فلا اعتداد بقول يخالف شرع الله، ولا ثقافة ونحِلة نصادم بها دين الله.

★ **لن يُفلح قومٌ ولَو أمرهم امرأة:**

روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى ـ بعد موت أبيها ـ قال: «لن يُفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1].

قال القرطبي: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه.

ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم وإنما سبيل ذلك التحكم والإستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير.

وقد روى عن عمر أنه قدم امرأة على حِسبة السوق، ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث...

---

(١) رواه من حديث أبي بكرة: البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

قال ابن العربي: فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرزةً [الكهلة] لم يجمعها والرجال مَجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده أهـ.

وهذا أبلغ رد على من انبهر بزيف النظم الديمقراطية المعاصرة، وراح يبرر بالإسلام ويرقع به عوج الحياة.

ومن عجيب أمر هؤلاء المفتونين بالعفن الغربي، تكذيب بعضهم بهذا الحديث الذي رواه البخاري!!!!

★ سجدة التلاوة في سورة النمل:

قرأ البعض ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا ﴾ (سورة النمل: ٢٥). بالتشديد، وهذه قراءة أبي عمرو وعاصم وحمزة، وقرأها البعض ﴿ ألاَ يسجدوا ﴾ بالتخفيف.

قال الزمخشري: فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعًا، لأن مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحَ لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك. أهـ.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى استحباب السجود كما قال النووي وغيره، وقد سجد النبي ﷺ في الإنشقاق كما ثبت في البخاري وكذلك فعل في النجم، وقد ورد أن عمر قرأ بسورة النمل فسجد ثم قرأ بها في الجمعة التي تليها فلم يسجد، وقال إنا نمر بآية السجدة، فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه، وكان ذلك بحضرة الصحابة رضي الله عنهم. واستحباب السجود إنما هو في حق القارئ والمستمع، أما في الصلاة فيكون المأموم تبعًا لإمامه في السجود وعدمه، وبالنسبة للسجدة في سورة النمل، إنما تكون بعد قراءة قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة النمل: ٢٦).

★ المؤمن لا ينسى دينه مهما كانت الزخارف والزينات:

بعد أن قال الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾(سورة النمل:٢٣) عقب ذلك بقوله: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ (سورة النمل: ٢٤-٢٥).

رأى الهدهد امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، ولكنها كانت كافرة من قوم كفار، فلم يفُتن الهدهد بسبب هذه النقوش الدنيوية وهذه الزخارف المادية، ولم ينس واجب العبودية، بل تعجب من هؤلاء الذين جحدوا نعمة ربهم عليهم، وسجدوا لغيره سبحانه بعد أن انطمست فطرتهم وأظلمت عقولهم.

وشأن المؤمن كشأن هذا الهدهد في محبته الخير، وجريان معاني الإيمان والتوحيد منه مجرى الدم من العروق، واستعلائه على فتن الشهوات والشبهات، واعتصامه بجانب الله في كل آن وحين.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾(سورة الفرقان:٦٣). فهم قد علموا الغاية التي من أجلها خلقوا، كما أيقنوا أن الدنيا ظل زائل وعارية مسترجعة ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (سورةغافر:٣٩) . كما أنها سجن المؤمن وجنة الكافر ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(سورة محمد:١٢).

★ قال سليمان: سننظر. فهل في ذلك تجريح لعدالة الهدهد؟:

لما سمع سليمان خبر أهل سبأ وملكتهم قال للهدهد: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة النمل:٢٧) أي أصدقت في إخبارك هذا أم كذبت في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك.

قال القرطبي في تفسيره الآية: فيها دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذرًا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان حبب إليه الجهاد.

وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»[١] وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة كما فعل سليمان، فإنه لما قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النمل:٢٣). لم يستفزه الطمع، ولا استجرّه حب الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة النمل:٢٤) فغاظه حينئذ ما سمع، وطلب الإنتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة النمل:٢٧) ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مَخْرِمَة، حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة، وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنينها، فقال المغيرة بن شعبة «شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغُرّة عبد أو أمة» فقال عمر: ايتني بمن يشهد معك، قال: فشهد له محمد بن مسلمة. وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج من ذلك، فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد[٢]. ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره[٣]. أهـ.

★ قواعد هامة تتعلق بقبول الخبر ورده:

قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة»: «اتفق العلماء على وجوب العمل بكل ما صح، ولو لم يخرجه الشيخان»، واختار ابن الصلاح في الصحيحين، أن صحة

---

(١) رواه مسلم والدارمي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وبنحوه رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الحديث توجب القطع به، قال السخاوي في «فتح المغيث»: «وسبقه إلى القول بذلك في الخبر المتلقى بالقبول الجمهور من المحدثين والأصوليين وعامة السلف، بل وكذا غير واحد من السلف».

وفي «حصول المأمول من علم الأصول»: «اعلم أنه لا يضر الخبر الصحيح عمل أكثر الأمة بخلافه، لأن قول الأكثر ليس بحجة، وكذا عمل أهل المدينة بخلافه، خلافًا لمالك وأتباعه، لأنهم بعض الأمة، ولجواز أنهم لم يبلغهم الخبر، ولا يضره عمل الراوى له بخلافه، خلافًا لجمهور الحنفية وبعض المالكية، لأنا متعبدون بما بلغ إلينا من الخبر، ولم نتعبد بما فهمه الراوى، ولم يأت من قدم عمل الراوى على روايته بحجة تصلح للإستدلال بها، ولا يضر كونه مما تعم به البلوى، خلافًا للحنفية وأبي عبد الله البصري، لعمل الصحابة والتابعين بأخبار الآحاد في ذلك، ولا يضره كونه في الحدود والكفارات، خلافًا للكرخي من الحنفية، ولا وجه لهذا الخلاف فهو خبر عدل في حكم شرعي، ولم يثبت في الحدود والكفارات دليل يخصها من عموم الأحكام الشرعية، ولا يضره أيضًا كونه زيادة على النص القرآني، أو السنة القطعية، خلافًا للحنفية، فقالوا: إذا أورد بالزيادة كان نسخًا لا يقبل، والحق القبول، لأنها زيادة غير منافية للمزيد فكانت مقبولة. . . أهـ.

ويلزم قبول الصحيح وإن لم يعمل به أحد، قال الشافعي: «ليس لأحد دون رسول ﷺ أن يقول إلا بالاستدلال، ولا يقول بما استحسن، فإن القول بمااستحسن شئ يُحدِثه لا على مثال سبق».

ولا يضر صحة الحديث تفرد صحابي به كما بينه ابن القيم في «إغاثة اللهفان».

وللعالم أن يخص بالعلم قومًا دون قوم، كراهة أن لا يفهموا، ذكره البخاري، وقال النووي في «شرح مقدمة مسلم»: «نبه مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ على القاعدة العظيمة التي ينبني عليها معظم أحكام الشرع، وهو وجوب العمل بخبر الواحد، فينبغي الإهتمام بها، والإعتناء بتحقيقها». أهـ.

★تمكين يستثمر في الدعوة مع مراعاة حدود الأدب:

الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، فينبغي على من مُكِّن له في الأرض أن يسعى في نشر دين الله، وتعبيد الخلائق لله ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (سورة الحج:٤١). ولا يجوز للإنسان أن يتجاوز الحدود، ولا أن يطغى اعتدادًا بقدرته وتمكينه، فلابد من مراعاة حدود الأدب.

وهذا يستفاد من قصة سليمان مع ملكة سبأ وقومها، وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدبًا ورياسة، إمتثالاً لأمر نبي الله سليمان﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة النمل:٢٨).

أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم، قاله وهب بن منبه.

فتحيرت بلقيس مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النمل:٣٠-٣١). فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة النمل:٢٩). تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدبًا، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك.

لقد خُلقنا لغاية محدودة، ونحن أصحاب دعوة عالمية، وقد أوجب علينا سبحانه إبلاغ الحق للخلق، فلابد من استخدام كل الوسائل المستطاعة والمقدورة كالسفارات ووسائل الإعلام والتعليم... لتأدية هذه المهمة، كما يجب على الحاكم والمحكوم أن يرتفع لمستوى إسلامه ويجنِّد نفسه لخدمة هذا الدين، فهذا شرف وأي

شرف، بل هذه المهمة أشرف وأجل المهمات، وتستحق أن تتقدم على كثير من المصالح الإقتصادية والعمرانية.

★ آداب تراعى في كتابة الرسائل والخطابات:

١ - كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم، وقال ميمون بن مهران كان رسول الله ﷺ يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (سورة النمل: ٣٠). قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام.

٢ - اتفقوا على كتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها، لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختومًا فهو أغلف، وقال أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى العجم قيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتابًا عليه ختم، فاصطنع خاتمًا ونقش على فصه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكأني أنظر إلى وبيصه وبياضه في كفه[1].

٣ ـ كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار، وروى الربيع عن أنس قال: «ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم» وهذا على خلاف فعل أهل فارس فإنهم كانوا إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم، وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، إني أقر لك بالسمع والطاعة ما استطعت، وإن بني قد أقروا لك بذلك.

٤ ـ هذا الكتاب الكريم الذي بعث به سليمان كان في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، ومن المعلوم أن النبي ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، ومن ذلك رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، ومن

---

(١) رواه الترمذي (٢٧١٨)، والبخاري (٥٨٧٥).

طالع رسائل كثير من الأولين وجد فيها الوجازة مع وضوح العبارة، ومن ذلك رسالة هارون الرشيد لنقفور فقد كتب له يقول: أما بعد، فمن هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع.

٥ ـ قيل: وصفت بلقيس الكتاب بأنه كريم، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًا ولا لعنًا ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، ألا ترى إلى قول الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (سورة النحل:١٢٥). وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (سورة طه:٤٤). فأحسنوا التأسي في رسائلكم وكتاباتكم.

★أفتوني في أمري:

لما قرأت بلقيس على قومها كتاب سليمان، إستشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (سورة النمل:٣٢) أي حتى تحضرون وتشيرون والملأ هم أشراف القوم، والفتوى هي الجواب في الحادثة.

وقد قصدت بالانقطاع إليهم، واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم، فأخذت بحسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض، فكيف في هذه النازلة الكبرى، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة آلاف.

★المشاورة من الأمر القديم وهي من عزائم الأحكام:

قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (سورة آل عمران:١٥٩). وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى:٣٨). وكان النبي

ﷺ دائم المشاورة لأصحابه فيما لم ينزل فيه الوحي، وفي ذلك تعويد للأمة أن يسلكوا نفس السبيل، فما خاب من استخار الخالق واستشار المخلوق.

والمشاورة من الأمر القديم، وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (سورة النمل: ٣٢). لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم وإمضاءهم على الطاعة لها، وما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم، ففيها استعانة بالآراء ومداراة للأولياء، وربما كان في استبدادها برأيها وهم في طاعتها، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (سورة النمل: ٣٣). قال ابن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيه فحبسه بقوته.

وينبغي التنبه إلى أن الشورى في الأنظمة الديمقراطية المعاصرة تختلف عن الشورى في الإسلام[١]، فالذين يستشارون في الإسلام لا يجوز لهم مصادمة النصوص الشرعية وهذا يتطلب معرفة بالشرع والواقع، بعكس النظم الديمقراطية التي تكتفي برأي الأغلبية حتى لو جعلت الحرام حلالاً والحلال حرامًا!!

★ *هكذا يكون الرجال تحت ولاية وقوامة المرأة:*

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (سورة النمل: ٣٣). فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات، والمراد بالبأس النجدة والثبات في الحرب، أي منوا إليها بعددهم وقوتهم ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (سورة النمل: ٣٣) أي نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك مرى فينا رأيك نمتثله ونطيعه.

---

(١) راجع كتابنا «الديمقراطية في الميزان».

ويرى بعض المفسرين أن الملأ أحسنوا إجابة بلقيس، يقول القرطبي: فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع أهـ.

وشبيه به ما ذهب إليه الرازي قال: وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين:

احدهما ـ إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد.

والآخر ـ قولهم: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (سورة النمل:٣٣) وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، والله أعلم.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ (سورة النمل:٣٤).

لقد كانت بلقيس من الذكاء والفطنة بمكان، بل رأي بعض النساء قد يفوق الكثيرين حنكة ودارية، ولكن هذا لا يعطي المرأة الحق في أن تكون قوامة البيت لها فضلاً عن أن تختص بالإمارة العامة والحكم من دون الرجال، لما رواه البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1] ولعل من جملة مثالب تولية المرأة إمرة الرجال أن تورثهم الخنوعة والميوعة، يشهد لذلك قول الملأ حين استشارتهم بلقيس فأجابوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (سورة النمل:٣٤) هذا هو الذي أشار إليه الحسن بقوله: فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها.

---

(١) رواه من حديث أبي بكرة البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

★ **الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وللمسلمين شأن آخر:**

لما عرضت بلقيس الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم، أظهرت رأيها وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها أي خربوها وأذلوا أعزتها ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (سورة النمل: ٣٤). فذكرت لهم عاقبة الحرب قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدًا أفسدوه أي ربوه، وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٣٤). فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها، قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الرب عزَّ وجلَّ ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٣٤).

وما قالته بلقيس يصدق على الأعم الأغلب من الأحوال، ويشهد لذلك ما فعله التتار والصليبيون... عندما دخلوا ديار المسلمين، ولا يصح التعميم في كل حال، فقد دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح، وقال لأهلها: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ورد المفتاح لعثمان بن طلحة، وقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، واستقبل أهل مصر عمرو بن العاص عندما جاء لفتحها، وأعانوا على الرومان الذين كانوا على دينهم، وأحسن معاملة أهلها، كما تذكر كتب التاريخ والسير فتكون بلقيس قد أخبرت عن علمها، والأحكام أغلبية.

★ **الهدية تقع موقعًا من الناس:**

عدلت بلقيس إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٣٥). أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجًا نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا.

قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس، وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها، لأن سليمان عليه السلام قال لها في كتابه: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (سورة النمل:٣١). وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل، وأما الهدية للتجبب والتواصل فإنها جائزة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام ، وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة، وقد أهدت الأكاسرة والقياصرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل من البعض ورد على البعض الآخر، ومدار ذلك على تحقيق المصلحة، ودفع المضرة والمفسدة.

وبوَّب البخاري: «باب إهداء المشرك، باب إهداء الأب المشرك» كما بوَّب أبو عمر بن عبد البر «باب إهداء الأخ المشرك وإن كان حربيًا».

فالهدية من شأنها أن تزيل حزازات النفوس، وتكسر حدة العداوة، وهي داخلة ضمن قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ (سورة المؤمنون:٩٦).

★ نبي الله سليمان لا ينشغل بالدنيا عن الدين:

امتلك الدنيا مؤمنان وكافران، المؤمنان سليمان وذو القرنين، والكافران بختنصر والنمروذ.

وقد سُخرت الريح والجن لسليمان عليه السلام وأتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وهو نبي مصطفى ومجتبى، يعرف مهمته ودوره، وقد حُبب إليه الجهاد في سبيل الله،

فلما بعثت إليه بلقيس بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، قال منكراً عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ (سورة النمل:٣٦). أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ (سورة النمل:٣٦) أي الذي أعطاني الله من الإسلام والملك والنبوة خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (سورة النمل:٣٦) أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا.

وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد، كما ذكر ابن كثير ثم قال سليمان: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النمل:٣٧). أي بهديتهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ (سورة النمل:٣٧) أي لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (سورة النمل:٣٧) أي ولنخرجنهم من بلدتهم سبأ أذلة قد سُلبوا ملكهم وعزهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (سورة النمل:٣٨) أي مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره.

ما فائدة الإتيان بالعرش قبل مجئ بلقيس؟:

علم نبي الله سليمان أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (سورة النمل:٣٨) أو هكذا قال عطاء الخرساني والسدي وزهير بن محمد: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (سورة النمل:٣٨). فتحرم على أموالهم باسلامهم، وهذا قول أكثر العلماء، ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها.

وقيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة النمل:٢٣). قاله الطبري، وعن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه الهدهد.

وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان، فقالت لسليمان: في عقلها خلل، فأراد أن يمتحنها بعرشها.

وقال ابن زيد: استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله، ويجعله دليلاً على نبوته، لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ﴿ ومُسْلِمِينَ ﴾ على هذا التأويل بمعنى مستسلمين، وهو قول ابن عباس، وقال ابن زيد أيضًا: أراد أن يختبر عقلها، ولهذا قال: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ (سورة النمل:٤١).

★ الجن وظاهرة الأطباق الطائرة:

كثُر الرصد هنا وهناك لأطباق تظهر وتختفي، دون أن يستطيع أحد اللحاق بها، وعلى الرغم من ادعاءات التطور التي نعيشها إلا إننا لم نستطيع التعرف على هوية المخلوقات الموجودة فيها، ولا يبعد أن تكون هذه المخلوقات من عالم الجن والشياطين ويفسر ذلك عدة أمور منها:

١ - أن الجن عنده المقدرة على الحركة والانتقال، بل ولديه سرعات خيالية تفوق ما يعرفه البشر فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوس: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (سورة النمل:٣٩).

قال ابن عباس: أي قوى على حمله أمين على ما فيه من الجوهر.

٢ - للجن قدرة على التشكل والتلون، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك، ووعد المشركين بالنصر، وفيه أنزل: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ (سورة الأنفال:٤٨).

وعندما عاين الملائكة ولى هاربًا: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ (سورة الأنفال:٤٨).

وأتى الشيطان لأبي هريرة في صورة رجل يحثو من مال الصدقة، فلما همَّ برفعه لرسول الله ﷺ علمه آية الكرسي وقال: وإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٥). وقال لأبي هريرة: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شئ على الخير، قال النبي ﷺ: «أما أنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذاك الشيطان»[1]. وقد يتشكل الشيطان في صورة حية أو حمار أو كلب أو قط.

٣ - الجن عنده القدرة على التصنيع يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (سورة سبأ:١٢-١٣).

٤ - سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء، الجن عنده المقدرة على الوصول إلى أماكن متقدمة في السماء، قال تعالى حاكيًا عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (سورة الجن:٨-٩).

وقد كانت الجن تسترق السمع للتعرف على خبر السماء فلما بُعث رسول الله ﷺ زيدت الحراسة في السماء.

ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى

---

(١) رواه البخاري: كتاب الوكالة.

يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، قال سفيان: «حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا بكذا وكذا، فوجدناه حقًا للتي سمعت من السماء»[1].

الذي عنده علم من الكتاب أسبق وأسرع.

لما سمع سليمان عليه السلام قول العفريت، قال: أريد أعجل من ذلك.

قال ابن كثير: ومن هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (سورة النمل: ٤٠). قال ابن عباس وأكثر المفسرين: على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان صديقًا يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سُئِل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم، وليس ذلك كذلك، إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علمًا وفقهًا قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (سورة النمل: ٤٠). قال: هات، قال: أنت نبي الله ابن نبي الله فإن دعوت الله جاءك به، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش.

وقال النخعي: إنه جبريل عليه السلام، قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، روى أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله امدد بصرك فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده أ. هـ.

(١) رواه البخاري (٤٧٠١).

والدعاء الذي دعا به آصف هو: يا حي يا قيوم كما روى عن عائشة رضي الله عنها، أو هو: يا إلهنا وإله كل شئ، إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ايتني بعرشها، فمثل بين يديه كما يقول الزهري.

وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كل شئ يا ذا الجلال والإكرام، وقد سبق أن ذكرنا أن الكرامة ثابتة وضابطها الاستقامة، ولا يبعد ما حدث على يد عبد صالح ليس بنبى، وما أكثر الكرامات التي وردت في الكتاب والسنة وجاءت بها الآثار.

★ دواعي تغيير صفة عرش بلقيس:

لما جئ سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، فقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النمل: ٤١).

قال ابن عباس: نزع منه فصوصه ومرافقه، وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، غير كل شئ عن حاله، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا، وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ (سورة النمل: ٤٢) أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غُير وبُدل ونُكر، ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ (سورة النمل: ٤٢) أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

قال عكرمة: كانت حكيمة فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ (سورة النمل: ٤٢) وقال مقاتل: عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبَّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو.

وقوله: ﴿ وأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النمل:٤٢) قال مجاهد: يقوله سليمان، وقوله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (سورة النمل:٤٣) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد وسعيد ابن جبير وقاله ابن جرير أيضًا، فالذي صدها ومنعها من عبادة الله وحده أنها كانت من قوم كافرين.

ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عزَّ وجلَّ تقديره ومنعها ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (سورة النمل:٤٣). أي صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (سورة النمل:٤٣). والقول الأول أصح، فهي إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح.

وقوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ (سورة النمل:٤٤) وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان عليه السلام إلى هذا الصنيع، فقال الفراء وغيره: إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئًا فأراد أن يمتحنها، وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد، فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبدًا، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار، فقال: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ (سورة النمل:٤١). لنعرف عقلها.

وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال: كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال: أنا أجعل في هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجًا، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه، ذكره القرطبي.

وقيل: إنه عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه، وساءه ما علمه عن رجلها، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا، وهذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره، ونقله ابن

كثير في تفسيره، وقيل: اتُخذت النَّورة والحمامات من يومئذ، وكانت النورة لإزالة الشعر بدلاً من الموس. وقال وهب بن منبه: قال لها: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ ليريها ملكًا هو أعز من ملكها وسلطانًا هو أعظم من سلطانها.

* **المال والتقدم والذكاء والفطنة المزعومة ليست قرينة الهداية:**

الهداية هي أعظم نعم الله على عباده، والفضل المبين الذي يمتنُّ به على من يشاء من خلقه، ويخطئ من يظن أن المال والتقدم والذكاء والفطنة المزعومة قرينة الهداية، فإن بلقيس كانت من الذكاء والفطنة بمكان، فقد قادت قومها، وكانت صاحبة دراية وحنكة ومشورة، مما جعل الملأ ينصاعون لأمرها، وأقامت حضارة، وكانت في رغد من العيش، وأُوتيت من كل شئ، ومع ذلك كله كانت كافرة تعبد الشمس من دون الله!! مما جعل الهدهد يتعجب منها ومن قومها ويقول: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ (سورة النمل: ٢٥).

لقد كان الهدهد أعقل وأذكى منها ومن قومها.

إن العقل السليم والفطرة المستقيمة هي التي تستجيب للوحي المنزل، وتحرص على طاعة الله، لقد كانت بلقيس وقومها إلى الغباء والجهل أقرب منها إلى الذكاء والفطنة، وشأنها في ذلك كشأن فرعون وقارون وهامان وصاحب الجنتين... وكشأن حضارة القرن العشرين المزعومة، فهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (سورة الروم: ٧) لا بأس بأخذ ما هم عليه من تطور زراعي وصناعي وطبي... أما علوم الهداية فلا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة.

ما قيمة عقل لم يدل صاحبه على آيات الله؟

وما قيمة الدنيا إذا انسلخت عن دين ربها وكفرت بخالقها؟! ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (سورة التوبة: ٣٨) إن الحياة بغير الله سراب.

وما قيمة ذكاء ثعلبي يستطيع به الإنسان قهر الآخرين وإخضاعهم، في الوقت الذي لا يستطيع فيه قهر وإخضاع هواه لشرع مولاه؟!

سفهت العقول، وضلت الأفهام عندما عظمت ما حقره الله ورسوله.

★ **الناس على دين ملوكهم، والمرء بقرينه يقتدي:**

الناس تبع لعلمائهم وأمـرائهم ـ قديمًا وحديثًـا، في الأعم الأغلب، ولذلك قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ☆ وأحبار سوء ورهبانها

قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (سورة النمل:٤٣) فكان القـوم على شاكلـة بلقيس، وهم على شـاكلتـها في الشـرك وعبـادة الشمس من دون الله، فالمرء على دين خليله، ومـثل الجليس الصالح والجليس السوء كـحامل المسك ونافخ الـكير، والطيـور على أشكالهـا تقع، فـالحمـام مع الحمـام، والثعالب مـع الثعالب. . . ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (سورة الفرقان:٢٧-٢٩).

ونزلت بشأن عقبة ابن أبي معيط، فـقد كان يعامل النبي ﷺ معاملة حسنة على الرغم من كفره، فلما أتى صاحبه وقرينه من الشام أغراه بإيذاء رسول الله ﷺ ففعل.

وقد كان الإمـام ابن القيم يقول: نحن في زمان لا يصلح أن يولى علينا فيـه أمثال عمر بن عبد العزيز ولا معاوية بن أبي سفيان، فضلاً عن الشيخين أبي بكر وعمر، فنحن على قدر حكامنا وهم على قدرنا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ (سورة الأنعام:١٢٩).

ثم انظر كيف كان اقتراب بلقيس من سليمان سـبب رحمة وسعادة لها، فإنها لما رأت مـا آتاه الله، وجلالة مـا هو فيـه وتبصـرت في أمره انقـادت لأمر الله تعـالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عزَّ وجلَّ.

وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (سورة النمل:٤٤) أي بما سلف من كفرها وشركها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة النمل:٤٤) أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

شكر سليمان عليه السلام لربه جلَّ وعلا:

أخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة، وما جمع لهما من سعادة الدنيا والآخرة والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النمل: ١٥).

كتب عمر بن عبد العزيز: «إن الله لم يُنعم على عبده نعمة، فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النمل: ١٥) فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام.

ثم انظر لشكر لسليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ أي هذا من نعم الله عليَّ ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ أي ليختبرني ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (سورة النمل: ٤٠) كقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (سورة الجاثية: ١٥).

وقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (سورة النمل: ٤٠) أي هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٧) ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سورة سبأ: ١٣).

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: «اللهم اجعلني من القليل»، فقال عمر: «ما هذا الدعاء؟»، فقال الرجل: «أردت قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سورة سبأ: ١٣)»، فقال عمر رضي الله عنه: «كل الناس أعلم منك يا عمر».

وروي أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار (ما خشن من الطحين) ويطعم المساكين الدرمك (الدقيق الأبيض)، وروي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع، وهذا من الشكر ومن القليل.

قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سورة سبأ:١٣) وهذا يتطلب العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية.

ولما كان الشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقد تجمعت هذه المعاني في نبي الله سليمان، لذلك أثنى عليه سبحانه ووصفه بالشكر في أكثر من موضع من كتابه لاعترافه بالنعمة باطنًا وتحدثه بها ظاهرًا، واستعانته بها على طاعة الله.

★ بناء سليمان لبيت المقدس والهيكل[1]:

قام سليمان بن داود بعمارة بيت المقدس، تنفيذًا لوصية أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين من توليه الملك، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين، وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أي مدينة القدس.

وقد روي: «أن سليمان لما بنى بيت المقدس، سأل ربه عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثة فأعطاه اثنتين: سأله حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»[2].

---

(١) النبوة والأنبياء (٢٨٤).

(٢) رواه أحمد (٢٧٧٦٢)، والنسائي (٦٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٨).

قال ابن كثير: بعد أن أورد تلك الرواية فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا وأن الله قد أعطانا إياها. أهـ.

ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى (الهيكل) أي القصر الملكي، قال المؤرخون: وقد أتم بناءه في مدة ثلاثة عشرة سنة، وأنشأ مذبح القربان، وكان له اهتمام عظيم بالاصلاح والعمران، وكان له أسطول بحري، قالوا: وكانت السفن تجلب له من الهند الذهب والفضة والبضائع.

★ *اهتمامه عليه السلام بالخيل:*

عُرض على سليمان عليه السلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات، قال مجاهد، وهي كالتي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ (سورة ص:٣١) والجياد السراع، وكذا قال غير واحد من السلف، وروى ابن جرير عن إبراهيم التيمي قال: كانت عشرين فرسًا ذات أجنحة.

وورد عنه أيضًا: أنها كانت عشرين ألف فرس فعقرها، قال ابن كثير: وهذا أشبه، وساق حديث أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: **«قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت ريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال رسول الله ﷺ:** «ما هذا يا عائشة؟»، **قالت رضي الله عنها:** «بناتي»، **ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع فقال ﷺ:** «ما هذا الذي أرى وسطهن»، **قالت: فرس، قال:** «وما هذا الذي عليه»، **قالت: جناحان، قال:** «فرس له جناحان؟»، **قالت: «أما سمعت أن سليمان عليه السلام كانت له خيل لها أجنحة»، قالت: «فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه»**[1].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (سورة ص:٣٢) ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٣٢).

فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا كما شُغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين[١].

ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، فلما نسي سليمان الصلاة بسبب اشتغاله بالخيل، قال: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ (سورة ص: ٣٣).

قال الحسن البصري: والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها حبًا لها، وهذا القول اختاره ابن جرير قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها.

★ ***اختلاف العلماء هنا سائغ وفعل الصوفية غير سائغ:***

اختلف العلماء فيما فعله سليمان بالخيل، والسبب أنه لا نص في المسألة، فتكلم كل واحد بما أداه إليه اجتهاده، وهذه صورة من صور الخلاف السائغ المعتبر، الذي لا يفسد للود قضية.

قال ابن كثير: وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبًا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل . . .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر رضي الله عنه، والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه وللنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وساق الحديث الذي رواه الإمام أحمد: **«إنك لا تدع شيئًا إتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عزَّوجلَّ خيراً منه»**. أهـ.

وابن جرير له وجهه القوي، ومع قول ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن.

أما غير السائغ والمعتبر فهو ما تفعله الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها، ولا يجوز لهم بحال الإستدلال بفعل سليمان.

قال القرطبي: وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا، وهذا استدلال فاسد لأنه يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد.

والمفسرون اختلفوا في معنى الآية، فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكرامًا لها، وقال: أنت في سبيل الله، فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عرقبها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز .....

وعلى هذا فما فعل شيئًا عليه فيه جناح، فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز.

ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون في شرعنا، وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله عزَّ وجلَّ له ذلك. وقد قيل: إن مسحه إياها وَسْمُها بالكيّ، وجعلها في سبيل الله، فالله أعلم أهـ.

★ فتنة سليمان ونسج اليهود للأوهام:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (سورة ص: ٣٤).

ذكر البعض حكايات وخرافات حول (خاتم سليمان)، وضياعه في البحر ففقد سليمان ملكه!! وجلس الشيطان بدل سليمان على كرسي الملك!! وأن الشيطان تسلط على نساء نبيه فوطئهن وهن حيض... إلى غير ذلك من افتراءات وسفاهات اليهود قبحهم الله.

قال الألوسي: ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهنَّ حيض، الله أكبر!! هذا بهتان عظيم وخطب جسيم.

وقال أبو حيان في تفسيره: نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود والزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. أهـ.

وقال النسفي: وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود.

وقال ابن كثير: وقد أورد بعض المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة.

وقد ذكر بعض المفسرين كالرازي أن الفتنة المذكورة هي فتنته في جسده حيث أن سليمان ابتلي بمرض شديد حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح.

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (سورة ص:٣٤) أي رجع إلى حالة الصحة، وحكى النقاش وغيره: أن أكثر ما وطيء سليمان جواريه طلبًا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه.

وقد مال إلى هذا الرأي البيضاوي[١] والنسفي[٢] وغيرهما، وأن هذه هي الفتنة، والله أعلم.

★ قوة سليمان ومحبته الجهاد وعمله بمبدأ تعدد الزوجات:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقا له صاحبه: قل**

(١، ٢) من كتب التفسير بالرأي، وأفضل التفاسير، التفسير بالمأثور كتفسير الطبري وابن كثير.

إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيمُ الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[١].

وفي الحديث دليل على عظم قوة سليمان، ومحبته الجهاد في سبيل الله، وأهمية تعليق مثل هذه الأمور على مشيئة الله، مع الأخذ بأسباب تحقيقها، وفيه دليل على إباحة تعدد الزوجات لنبي الله سليمان.

فالتعدد نظام موجود قبل بعثة النبي ﷺ، وهذا معلوم من قصص الأنبياء كداود وسليمان وغيرهم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد كان التعدد معمولاً به في الجاهلية، فقد أسلم غيلان الثقفي وتحته عشرة نسوة، فأمره النبي ﷺ أن يُمسك أربعة ويفارق ستة[٢].

وقد استدل البعض بالحديث على أن عدم استثناء سليمان (قوله: إن شاء الله) كان هو فتنته المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (سورة ص: ٣٤) والله أعلم.

★ *إتهام اليهود لسليمان بعمل السحر:*

يزعم اليهود وأتباعهم الذي يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبي الله سليمان كان يستخدم الجنَّ به، وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر، وجعلتها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يستخدم الجن بهذه، فقال بعضهم: لولا أن هذا حق جائز ما فعله سليمان، فأنزل الله قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤)، والنسائي (٣٨٣١).
(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة:١٠١) ثم بيَّن أنهم اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وبرأ سليمان من السحر والكفر ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (سورة البقرة:١٠٢).

قال محمد بن إسحاق: لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبارهم: يزعم محمد أن ابن داود كان نبيًا! والله ما كان إلا ساحرًا، فأنزل الله هذه الآية، وفيها تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحد نسب سليمان إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولما كان السحر كفرًا صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر، وهذه عادة اليهود في اتهام الأنبياء، فقد آذوا موسى من قبل فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهًا، فلا يبعد إيذائهم لنبي الله سليمان واتهامهم إياه بالسحر!!.

* *وفاته عليه السلام دليل على أن الجن لا تعلم الغيب:*

كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ، فجعل الله موت نبيه سليمان دليلاً على كذب دعواهم.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (سورة سبأ:١٤).

روى ابن كثير عن وهب بن منبه أنه قال: إن سليمان عليه السلام قال لملك الموت، إذا أمرت بقبض روحي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمرتُ بك، فدعا الشياطين فبنوا عليه صَرْحًا من قوارير له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهومتوكىء على عصاه، والجن تعمل بين يديه، وينظرون إليه ويحسبون أنه حي، قال: فبعث الله دابة الأرض إلى منسأته(يعني عصاه) فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا، خر على الأرض فلما رأت الجن ذلك تبينوا أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين. أهـ.

قال ابن مسعود: «اقام حولاً، والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضُ مِنْسأته فسقط».

ومازال البعض يعتقد أن الجن تعلم الغيب، ويحاول أولياء الشيطان من العرافين والكهان تأكيد هذا الزعم.

فالغيب علمه عند الله، لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (سورة الجن: ٢٦-٢٧).

وفي الحديث: «من أتى عرافًا أو كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما انزل على محمد»[(١)].

وثبت في الحديث: «من اتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[(٢)].

فلا تصدق قارئي الكف والفنجان، وضاربي الرمل والودع، ولا تسأل عن يتعامل مع الجن من العرافين والكهان، فقد خاب السائل والمسئول.

---

(١) رواه أحمد (٩٢٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (٢٢٧١١, ١٦٢٠٢).

الخاتمة

نحن أحق بنبي الله سليمان ﷺ من اليهود، فقد أبطلوا نبوته، ونسبوه إلى السحر، ووصفوه بما يتنزه أحدهم عنه، وهذا لا يُستغرب منهم، فقد نسبوا لله جلا وعلا صفات النقص والعيب ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (سورة المائدة: ٦٤).

وهذا ديدنهم مع جميع الأنبياء والمرسلين، بل لا نغالي عندما نقول: نحن أحق بجميع الأنبياء كموسى وعيسى ممن يزعمون اتباعهم، وقد غيروا شرائعهم وبدلوا دينهم، فاتباع الحق والمحبة الصادقة تستوجب إسلام الوجه لله، والدخول في دين الله، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (سورة آل عمران: ١٩) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥) وهذا هو دين سليمان وجميع الأنبياء، ولذلك قالت بلقيس: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة النمل: ٤٤).

لقد ترك اليهود دين سليمان ﷺ واكتفوا بإقامة هيكله، وذهبوا يحاولون هدم المسجد الأقصى من أجل ذلك!! لإقامة دولتهم العالمية، عقائد فاسدة وهزيلة، برروا بها لأنفسهم اغتصاب البلاد والعباد، ولو أنهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا.

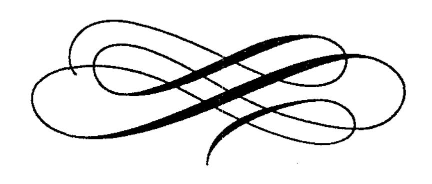
إن الحق لا يمكن أن يضيع مهما حاول اليهود التزييف، حتى لو وقفت خلفهم الأمم المتحدة وأمريكا وقوى الأرض، فالله غالب على أمره ومتم نوره ولو كره الكافرون، وكلنا يقين بأنه سيتم إجلاؤهم ـ بإذن الله ـ، وسيفتح بيتُ المقدس،

ويستنطق ربنا جلَّ وعلا الحجر فيقول: «يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١].

وهذا خبر الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولتعلمن نبأه بعد حين، وقل عسى أن يكون قريبًا.

اللهم مكِّن لدينك وكتابك وسنة نبيك، واجعلنا اللهم من حزبك المفلحين وجندك الغالبين، وتوفنا مسلمين غير خزايا ولا مفتونين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



(١) رواه البخاري، ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



قصص الأنبياء عظات وعبر
قصة
ذي النون عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

من رحمة الله بخلقه، أن ركب في العباد عقولاً، وأودع فيهم فطرًا، ولم يكتف سبحانه بالميثاق الذي أخذه عليهم وهم في ظهر أبيهم آدم.

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

بل أنزل لهم الكتب، وأرسل لهم الرسل، وقال: ﴿ **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) فهم يبشرون من آمن بالجنة وينذرون من كفر بالعذاب.

وهؤلاء الرسل الكرام، هم سفراء الله إلى عباده، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة المائدة:٦٧) ومهمتهم تعبيد الخلائق لله جلَّ وعلا ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل:٣٦)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء:٢٥).

وما من نبي إلا وقال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة المؤمنون:٢٣) وقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (سورة الشعراء:١٠٨).

الرسل هم الأسوة، والقدوة في إبلاغ الرسالة، وتأدية الأمانة، والنصح للأمة، وهدايتها بوحي الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (سورة الشورى:٥٢).

وقد بُعث كل نبي بلسان قومه ليبين لهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فتعاهد الأنبياء من تابعهم بالوحي المنزل تربية وتزكية، كما قال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الجمعة:٢).

وفي المقابل كان منهم السعي الحثيث في تقويم الإنحراف، وتفنيد العقائد الزائفة، وإقامة الحجة لله على الخلائق، وذلك لأنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ (سورة طه:١٣٤).

وذكر سبحانه حالة المخالفين يوم القيامة، وما تقوله لهم خزنة جهنم: ﴿ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ (سورة غافر:٥٠).

وقد حكم الأنبياء أممهم بشرع الله، وساسوا شعوبهم بدين الله كما جاء في الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي»[١].

وقال تعالى عن التوراة: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ (سورة المائدة: ٤٤).

وأوجب سبحانه على عباده طاعة الأنبياء والمرسلين ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (سورة النساء: ٨٠) وهذه الطاعة هي طريق نيل رضوان الله ومحبته ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

وهذه النبوة لا ينالها العبد بكسب واجتهاد في طاعة الله، أو بوفرة مال وجاه وسلطان بل هي فضل من الله تعالى واصطفاء واجتباء ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤)، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ (سورة مريم: ٥٨)، ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (سورة الحج: ٧٥).

وهم إن كانوا من جملة البشر، إلا أن الله أعدهم إعدادًا خاصًا لتحمل أعباء الرسالة، ولذلك قال سبحانه عن نبيه موسى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (سورة طه: ٤١).

وقال عن نبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (سورة الضحى: ٦-٨).

ولم يبعث الله رسولاً من النساء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (٢٨٤٢)، وابن ماجه (٢٨٧١).

والرسل أكمل الناس أجسامًا، وأعظمهم أخلاقًا، وخيارهم نسبًا، امتن عليهم سبحانه بالعقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان المبين، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لابد منها لتحمل تبعات الرسالة، وهم قبل ذلك أتم الناس عبودية لله تعالى، وتوقيرًا لمصدر الأمر، أوابين مخبتين منيبين، ومنهم نبي الله يونس، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا أوان الشروع في المقصود، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

★ **خبره في القرآن:**

ذُكر نبيُّ الله يونس - صلوات الله وسلامه عليه - في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (سورة النساء: ١٦٣).

وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٨٣-٨٦).

وقد سميت سورة باسمه عليه السلام وهي سورة يونس، وذكر فيها في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (سورة يونس: ٩٨).

وجاء ذكره أيضًا في سورة الصافات، في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (سورة الصافات: ١٣٩-١٤٨).

وقد ذكر بالوصف في موضعين حيث لقبه الله بـ (ذي النون).

والنون هو الحوت وذلك في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨).

ويلفظ صاحب الحوت في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة القلم:٤٨-٥٠).

فيكون قد ذكر في القرآن ست مرات، أربع مرات بالاسم، ومرتين بالوصف.

★ *قصته كما جاءت في كتب التفسير:*

أرسل الله تعالى نبيه يونس ﷺ إلى أهل (نينوي) من أرض الموصل بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام، ولهم صنم يسمونه عشتار، فذهب يونس ﷺ من بلاد الشام إلى (نينوي) فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ فكذبوه، ولم يستجيبوا لدعوته، فبقي معهم يذكرهم ويعظهم، ولكنه لم يلق منهم إلا آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فضاق بهم ذرعًا، ثم أوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم غاضبًا عليهم، متوعدًا لهم بالعذاب بعد ثلاث، ويظهر أن قومه توعدوه أيضًا وغضبوا منه ولاحقوه، فأبق فارًا منهم، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظن أن الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج ولن يضيق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج، فذهب مغاضبًا لقومه لا لربه.

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف: فلما خرج من بين أظهرهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم مع نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجو إلى الله عزَّ وجلَّ وتضرعوا، وبكى الرجال والنساء والكبار والصغار، وجأرت الأنعام والدواب، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب.

أما يونس ﷺ فإنه حين ترك قومه، سار حتى وصل إلى شاطىء البحر، فوجد سفينة على سفر، فطلب من أهلها أن يركبوه معهم، فتوسموا فيه خيرًا فأركبوه، ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب.

فاستهموا فيما بينهم علــى أن من وقع عليه السهم ألقوه في البحر، فوقع السهم على ويونس، فسألوه عن شأنه، وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح، فحدثهم بقصته، فأشفقوا أن يلقوه في البحر، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل، فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله، أو أنهم لم يجدوا بدًا من إلقائه.

وكانوا قد كرروا الإستهام، فخرج السهم في كل مرة على يونس عليه السلام فألقوه فالتقمه حوت عظيم بأمر الله، وسار به في الظلمات في حفظ الله، لم يمسه بسوء، والحوت في ذلك مأمور، لا يسعه إلا طاعة الله، وكان يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت يسبح الله ويستغفره، وينادي في الظلمات الثلاث ـ ظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت وظلمة البحر ـ: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فاستجاب الله له ونجاه من الغم، ثم أوحى الله إلى الحوت أن يقذف به في العراء على ساحل البحر، فألقى به وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظل بظلها، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه، وأرسله إلى قومه مرة ثانية، فعاد إليهم فوجدهم مؤمنين بالله، ينتظرون عودته ليأتمروا بأمره، فلبث فيهم يعلمهم ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس عليه السلام مائة وعشرين ألفًا على رواية ابن عباس، وقد متع الله أهل (نينوي) في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم آمنين مطمئنين إلى حين ما أقاموا الدين، ثم لما غيروا غيّر الله عليهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين، وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

★ لا تفضلوني على يونس بن متى:

أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكما فضل الله بعض النبيين على بعض، وكذلك الرسل متفاضلون فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٥٥).

وقال: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٣).

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وقد وردت الأحاديث تنهي عن تفضيل بعض النبيين على بعض.

فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ: **«لا تخيروا بين الأنبياء»**[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تفضلوا بين الأنبياء»**[2].

وفي الحديث: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متي»**[3].

ولا تعارض بين هذه الأحاديث، وبين الآيات القرآنية التي تدل على أن الله فضل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض.

قال القاضي عياض ما ملخصه: إذا تقرر من دليل القرآن، وصحيح الأثر وإجماع الأمة، كونه أكرم البشر وأفضل الأنبياء، فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل، كقوله ﷺ: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**.

وقوله ﷺ: **«لا تفضلوا بين الأنبياء»**.

وفي رواية: **«لا تخيروني على موسى»**.

■ **فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:**

أحدها - أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب.

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٦٨)، وأحمد (١٠٨٧٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤١٥).

(٣) رواه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧)، والترمذي (١٨٣)، وأحمد (٢١٦٨)، وأبو داود (٤٦٦٩).

الوجه الثاني ـ أنه قاله ﷺ على طريق التواضع ونفي التكبر والعجب، وهذا لا يسلم من الإعتراض.

الوجه الثالث ـ ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منه.

الوجه الرابع ـ منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطاف، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولوا عزم من الرسل، ومنهم من رفع مكانًا عليًا، ومنهم من أوتي الحكم صبيًا، وأوتي بعضهم الزبور، وبعضهم البينات، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (سورة الإسراء: ٥٥).

وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٣).

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال:

أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه.

وقد يتوجه على هذا الترتيب.

وجه خامس ـ وهو أن يكون «أنا» راجعًا إلى القائل نفسه أي لا يظن أحد وإن بلغ في الذكاء والعصمة والطهارة ما بلغ أنه خير من يونس لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار، لم تحطه عنها حبة خردل ولا أدنى أهـ.[1]

---

(١) الشفا.

قال ابن حجر: «قال العلماء: في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك من يقول برأيه، لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة»[1].

ونقل بعض أهل العلم أنه قال: «الأخبار الوردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الإزدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستندًا إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي».

وكأن الإزدراء الذي تخوف منه القائل هو ما ورد في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا ﷺ على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم فقال: «لا تخيروني على موسى...» الحديث[2].

*** *يونس من المرسلين والفرق بين النبي والرسول:***

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الصافات:١٣٩) وهو من جملة الرسل الذين قصهم الله علينا فذكرهم بأسمائهم، وعددهم خمسة وعشرون.

---

(١) فتح الباري.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٨)، ومسلم (٢٣٧٣)، وأحمد (٧٥٣٢).

وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٨٣-٨٦).

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً، ويجب الإيمان بسبعة آخرين مذكورين في عدة آيات وهم محمد وآدم وهود وصالح وشعيب وإدريس وذو الكفل صلوات الله عليهم أجمعين، ومن الرسل من لم يقصصه سبحانه كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (سورة النساء: ١٦٤) وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذر قال: **«قلت: «يا رسول الله، كم المرسلون؟» قال:** «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًا غفيرًا» . وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر: **«قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟» قال:** «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا»[1].

والواجب علينا الإيمان بالأنبياء والرسل جميعًا: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٨٤).

والإيمان بالرسل من أصول الإيمان الذي ندين به، ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضل وخسر: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء: ١٣٦).

والأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم، والرسل بعثهم الله برسالة معينة كالتوراة والإنجيل والقرآن، فهم مكلفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

---

(١) رواه أحمد (٢١٠٣٦، ٢١٠٤٢)، وقال الألباني: إسناده صحيح.

ولا يصح قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ويدل على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، والشائع عند العلماء أن الرسول أعم من النبي.

فالرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً كما جاء في (شرح العقيدة الطحاوية) واختار البعض: أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله.

★ *يونس - صاحب الحوت - ذو النون:*

اتفق المؤرخون على أن نبي الله يونس - هو يونس بن متى، قالوا: و(متى) هي أمه، ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير (يونس وعيسى) عليهما السلام، ويسمى عند أهل الكتاب (يونان بن أمتاي)، ويونس عليه السلام من بني إسرائيل، وقد وصف بـ (صاحب الحوت)، و (ذي النون) والنون هو الحوت، وذلك لدخوله في بطنه عندما ألقي في اليم.

قال تعالى عن نبيه يونس: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٤٢-١٤٤).

وقد يُعرف الإنسان باسمه أو بوصفه كالمسيح عيسى عليه السلام، وقد يغلب أحدهما على الآخر ولا يُعرف الإنسان إلا به كالأسود والأعمش والأعرج، ولا غيبة في ذلك طالما على سبيل التعريف، والمصلحة لا تتحقق إلا بذلك.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الألقاب المتواطىء عليها بين الناس[1].

فأجاب: وأما الألقاب فكانت عادة السلف الأسماء والكنى، فإذا كنوه بأبي فلان، تارة يكنون الرجل بولده، كما يكنون من لا ولد له، إما بالإضافة إلى اسمه أو اسم أبيه، أو ابن سميه، أو بأمر له تعلق به.

---

(١) مجموع الفتاوى جـ(٢٦)، ص: ٣١٤).

كما كنى النبي ﷺ عائشة بابن اختها عبد الله، وكما يكنون داود أبا سليمان، لكونه باسم داود عليه السلام الذي اسم ولده سليمان، وكذلك كنية إبراهيم أبو إسحاق، وكما كنوا عبد الله بن عباس أبا العباس، وكما كني النبي ﷺ أبا هريرة باسم هريرة كانت معه، وكان الأمر على ذلك في القرون الثلاثة. . . ثم بعد هذا أحدثوا الإضافة إلى الدين وتوسعوا في هذا.

ولا ريب أن الذي يصلح مع الإمكان: هو ما كان السلف يعتادونه من المخاطبات والكنايات، فمن أمكنه ذلك فلا يعدل عنه إن اضطر إلى المخاطبة، لاسيما وقد نهى عن الأسماء التي فيها تزكية، كما غير النبي ﷺ اسم بره، فسماها زينب، لئلا تزكي نفسها، والكناية عنه بهذه الأسماء المحدثة خوفًا من تولد شر إذا عدل عنها، فليقتصر على مقدار الحاجة، ولقبوا بذلك لأنه علم محض لا تلمح فيه الصفة، بمنزلة الأعلام المنقولة، مثل أسد وكلب وثور.

ولا ريب أن هذه المحدثات التي أحدثها الأعاجم، وصاروا يزيدون فيها فيقولون: عز الملة والدين، وعز الملة والحق والدين، وأكثر ما يدخل في ذلك من الكذب المبين، بحيث يكون المنعوت بذلك أحق بضد ذلك الوصف، والذين يقصدون هذه الأمور فخراً وخيلاء، يعاقبهم الله بنقيض قصدهم، فيذلهم، ويسلط عليهم عدوهم، والذين يتقون الله ويقومون بما أمرهم به من عبادته، وطاعته، يعزهم وينصرهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (سورة غافر: ٥١).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المنافقون: ٨).

وقد ذكر ابن القيم في كتاب (تحفة المودود بأحكام المولود) جواز تكنية الذكر والأنثى والصغير والكبير، وقال ص: ١٣٤: «ويجوز تكنية الرجل الذي له أولاد بغير أولاده، ولم يكن لأبي بكر ابن اسمه بكر، ولا لعمر ابن اسمه حفص، ولا لأبي ذر

ابن اسمه ذر، ولا لخالد ابن اسمه سليمان، وكان يكنى أبا سليمان، وكذلك أبو سلمة، وهو أكثر من أن يحصى، فلا يلزم من جواز التكنية أن يكون له ولد، ولا يكني باسم ذلك الولد» أهـ.

وينبغي أن يعلم أن باب الإخبار أوسع من باب الإنشاء، فقد نخبر ونقول عبد شمس وعبد مناف... لأن الأمر لا يُعرف إلا بهذه التسمية، إما إذا أردنا أن ننشيء اسمًا فينبغي أن يكون صحيحًا لعلمنا أنه لا يجوز تعبيد المخلوقات لغير الله.

⋆ رسالته عليه السلام قبل أن يلتقمه الحوت:

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (سورة الصافات:١٤٧)} قد يوهم أن بعثته عليه السلام كانت بعد أن نبذه الحوت، وقد روي عن ابن عباس مثل ذلك، ولا يصح، وأجود منه وأصح كما قال القرطبي في تفسيره ما رواه عمرو بن ميمون قال: حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن يونس وعد وقومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وخرجوا فجأروا إلى الله عزَّ وجلَّ واستغفروا، فكف الله عزَّ وجلَّ عنهم العذاب».

وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئًا ـ وكان من كذب ولم تكن له بينة قُتل ـ فخرج يونس مغاضبًا، فأتى قومًا في سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينًا وشمالاً، فقالوا: ما لسفينتكم؟ فقالوا: لا ندري.

فقال يونس عليه السلام: إن فيها عبدًا آبقًا من ربه عزَّ وجلَّ، وإنها لن تسير حتى تلقوه. قالوا: أما أنت يا نبي الله فإنا لا نلقيك، قال: فاقترعوا فمن قُرع فيقع، فاقترعوا، فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه، قال: فاقترعوا ثلاثًا فمن قُرع فليقع، فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال: ثلاثًا فوقع.

وقد وكل الله به عزَّ وجلَّ حوتًا فابتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧) قال: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت.

قال: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ (سورة الصافات:١٤٥) قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش.

قال: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها، فيبست فبكى عليها، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: أتبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم؟! قال: وخرج رسول الله يونس، فإذا هو بغلام يرعى، قال: يا غلام من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئت إليهم، فأخبرهم أنك قد لقيت يونس.

قال: إن كنت يونس، فقد علمت أنه من كذب قُتل إذا لم تكن له بينه، فمن يشهد لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فمرهما؟ قال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له. قالتا: نعم.

قال: فرجع الغلام إلى قومه، وكان في منعة وكان له إخوة، فأتى الملك، فقال: إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمر به أن يقتل، فقالوا: إن له بينة فأرسلوا معه، فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما: نشدتكما بالله عزَّ وجلَّ أتشهدان أني لقيت يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجع القوم مذعورين يقولون له: شهدت له الشجرة والأرض، فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا. قال عبد الله: فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة».

قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذي لا يؤخذ بالقياس، وفيه أيضًا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب، لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الصحيح في الباب.

★ هل بلغت دعوته المائة ألف أو يزيدون؟:

كيف وصلت دعوته ﷺ لهذا العدد الكبير؟! في وقت لم تكن فيه وسائل الإتصال ميسورة ـ مقارنة بعصرنا ـ ولم تكن الدنيا أشبه بقرية صغيرة، كما هو مشاهد الآن، وهل التقى مع كل واحد من المائة ألف أو يزيدون بعينه، أم أقام الحجة على البعض، وبلغ الشاهد منهم الغائب، فصدق بذلك أنها دعوة للجميع؟

وللإجابة على ذلك نقول: لا يخفى على أحد علو همة الأنبياء والمرسلين في إبلاغ الحق للخلق، فقد كان نبي الله نوح ﷺ يدعوا قومه سرًا وجهرًا، وليلاً ونهارًا، حتى قيل: كان يدخل لهم في بيوتهم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ⁽٥⁾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا⁽٦⁾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ⁽٧⁾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⁽٨⁾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ⁽٩⁾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (سورة نوح: ٥-١٠).

وكانت دعوتهم للقريب والبعيد كحالة نبي الله إبراهيم مع أبيه وقومه والنمروذ، وفي حلهم وترحالهم، وفي رخائهم وشدتهم كحالة نبي الله موسى وعيسى ويوسف عليهم السلام وكان رسول الله ﷺ وهو سيد الدعاة إلى الله ـ يعرض نفسه على القبائل، ويلقى الوفود في مواسم الحج، ويرتحل إلى الطائف وغيرها، ويلقى الرجال في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويصعد على الصفا وينادي في قومه حتى عم وخص، وواصل في ذلك الليل بالنهار جهاداً وهجرة في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

ولو أضفنا إلى ذلك معاني التأييد والتوفيق والتسديد والإخلاص التي كانوا عليها ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ لم نستبعد معنى البعثة لمثل هذا العدد الضخم وأكثر منه.

وقد كانت بعثة النبي ﷺ للإنس والجن والعرب والعجم والناس كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (الأمر بالمعروف) معنى جليلاً، وهو أنه لا يشترط أن تصل الدعوة إلى كل فرد بعينه، فهذا من التكليف بما لا يطاق، فإذا قام الداعي إلى الله بحقه ـ نصحًا وبيانًا ـ وعلم الناس بدعوته، وجب عليهم أن يسعوا إليه، ولا يجب عليه هو أن يسعى لأحادهم، بل هذا لا يجب على الأنبياء والمرسلين، إذ لا تكليف إلا بمستطاع ومقدور ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة:٢٨٦).

★ استمرار الدعوة مع التأكد من عدم التأثير:

في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (سورة الأعلى:٩).

يقول العلماء: معنى الآية: فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع فذكر أيضًا، فالمحذوف في الآية مفهوم مثل: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (سورة النحل:٨١). ومن المعلوم أنها تقي البرد كذلك.

ويرى الإمام النووي أن المرء مسئول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لو علم أن أمره ونهيه لا يفيد ولا يعود بطائل، فيقول: «قال العلماء: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه! بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي، لا القبول كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ (سورة المائدة:٩٩).

ويرى الغزالي: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الحالة يستحب ولا يجب، فيقول: «إن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، ولكنه لا يخاف، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين»[١].

وسواء قلنا بالوجوب أو بالاستحباب، فالدعوة مع التأكد من عدم التأثير مشروعة على كل حال، وخصوصًا وأن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، ووقت الاستجابة للدعوة لا يعلمه إلا الله، وحتى إن لم يستجب الأفراد، ويقوم المجتمع

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/٢٨).

الإسلامي، الذي يدين بدين الله، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يخلو من فوائد كإعذار النفس بالبلاغ وإقامة الحجة لله على الخلائق.

والأثر الذي نشده ولا نراه اليوم قد يظهر غداً بإذن الله، فلا يصح اليأس ولا القنوط من رحمة الله. وفي ذلك يقول الإمام محمد: «وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسعه الإقدام، وإن كان يعلم أن القوم يقتلونه وأنه لا يتفرق جميعهم بسببه، لأن القوم هناك مسلمون معتقدون لما يأمرهم به، فلابد من أن فعله ينكئ في قلوبهم وإن كانوا لا يظهرون ذلك»[1].

بل المشاهد أن التأثير قد يحدث حتى مع الكافر المعاند الذي يظهر إصراراً وثباتاً على باطله، فقد يتزلزل ويستريب فيما هو عليه، ويراجع نفسه، ولا نستبعد أن يُسلم، فما هو عليه من كفر وضلال أوهى من بيت العنكبوت، ولا أدل على ذلك من مشركي قريش، وغيرهم ممن دخل في الإسلام، فالتأثير والنكاية في القلوب لا تقتصر على المسلمين.

* شبهة وجواب:

استدل البعض على إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم يلمس تأثيره ببعض الأحاديث مثل: «**ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام**»[2].

وحديث: «**يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا**»، **فكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ فقال: «تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم**»[3].

---

(١) «شرح السير الكبير» (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٥٨)، وأبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤).

(٣) رواه أحمد (٧٠٢٣)، وأبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧).

كما استدلوا بما رواه أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله متى ندع الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت الفاحشة في كباركم، والملك في صغاركم، والعلم في أراذلكم»[١].

والذي تفيده هذه النصوص هو إباحة ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في الأحوال المذكورة، فليس هذا الترك واجبًا أو مندوبًا، ولا يخفي أن الأمر يتفاوت تفاوتًا عظيمًا مكانًا وزمانًا وشخصًا، فلا يجوز تعميم الترك، والأصل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإستثناء إنما يجوز في الحالات المذكورة في الأحاديث.

ولذلك قال بعض العلماء في شرح الأحاديث السابقة: هذا رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأشرار وضعف الأخيار، وذكروا أنها لا تدل على نفس الوجوب عند فوات الشرط بلزوم المفسدة وانتفاء الفائدة.

وقال الجصاص في شرح الحديث الأول: «يعني - والله أعلم - إذا لم يقبلوا ذلك واتبعوا أهواءهم وآراءهم، فأنت في سعة من تركهم».

وقد وردت النصوص تبين أفضلية من خالط الناس لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ففي الحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم»[٢].

كما أن البعض ممن علت همته لا يكتفي بتأدية الفرائض فقط أو الاهتمام بنفسه فحسب، بل يسعى فيما هو أبعد من ذلك.

كما ورد في الحديث: «من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على فتنة، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في

---

(١) رواه أحمد (١٢٥٣١)، وابن ماجه (٤٠١٥).

(٢) رواه أحمد (٥٠٠٢)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢).

غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»[١].

★ ترك الدعوة خوف الضرر:

قيل إن نبي الله يونس ﷺ خرج من بين ظهراني قـومه غاضبًا عليهم، مـتوعدًا لهم بالعذاب بعـد ثلاث، ويظهر أن قومه توعـدوه أيضًا، وغضبوا مـنه، ولاحقوه، فأبق فارًا منهم.

وقد ورد في الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢]، ورأس المعروف الإيمان بالله تعالى، وأكبر منكر هو الكفر بالله جل وعلا.

وقد رتب النبي ﷺ الإنكار عـلى الإستطاعة، وبالتـالي فهو يسـقط في حالات العجـز وخوف المكروه والضرر، يقـول الغزالي: «لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك في معنى العجز»[٣].

ويقول ابن بطال: «والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي أذى فهو في سعة»[٤]. وليس اللوم من الضرر لقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ (سورة المائدة: ٥٤).

قال ابن كـثير: «أي لا يردهم عمـا هم فيه من طاعـة الله وإقامة الحدود وقـتال أعدائه والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل».

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٩)، وابن ماجه (٣٩٧٧).

(٢) رواه مسلم (٤٩)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٢٧٥).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢: ٢٨٠).

(٤) «شرح صحيح مسلم» (١: ٥٤).

وعن عبادة بن الصامت أنه قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وأن لا ننازع الأمر أهله أن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**»(١).

قال القرطبي: «أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره».

وغلبة الظن في حصول الضرر تقوم مقام اليقين، كما ذكر الغزالي وغيره، أما مجرد التجويز بحدوث الضرر للأمر الناهي، فلا يسقط الوجوب لأن ذلك ممكن في كل حسبة، وترك الدعوة خوف الضرر رخصة، والعزيمة في مواطن إظهار الدين أفضل حتى وإن فقد الإنسان كل ما يملكه كما قال النبي ﷺ: «**ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»(٢).

قال الخطابي: «إنما صار ذلك أفضل الجهاد لأن من جاهد العدو كان مترددًا بين رجاء وخوف لا يدري هل يَغلِب أو يُغلَب، وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف، وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد ومن أجل غلبة الخوف»(٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب، أحيانًا يستحب وأحيانًا يحرم كما لو كان سيفوت معروفًا أكبر أو يستجلب منكرًا أعظم، أو كان سيثبت المنكر ويأتي بمنكر آخر، أو سيتلف نفسه في غير مصلحة شرعية أو سيستجلب الضرر والأذى على الأهل والإخوان والأصدقاء، وعلى كل حال فشرع الله مصلحة كله، والواجب علينا أن ندور مع نصوص الشريعة حيث دارت ولا نكتفي بالنوايا الطيبة فلابد من صحة العمل(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٩).

(٢) رواه البيهقي.

(٣) «معالم السنن» (٤ : ٣٥٠).

(٤) راجع كتابنا «تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد».

*** هل خروجه عليه السلام دون إذن يطعن في عصمته:**

كان يونس عليه السلام قد أنذر قومه، وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فتمادوا في ضلالهم وكفرهم، فأوعدهم بالعذاب العاجل، فلما تأخر عنهم العذاب خرج المستور منهم ليتوارى عن أنظارهم، خشية أن يهزؤوا منه ويسخروا، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل، وكان خروجه دون أن ينتظر الإذن من ربه، فعوتب عليه السلام في ذلك، وكان ما قصه علينا ربنا جل وعلا من ركوبه البحر والتقام الحوت له، فهل خروجه ذلك يُعد ذنبًا يقدح في عصمته؟.

يقول ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»[(١)].

ومن المعلوم أن الأنبياء لا يقرون على الذنب، ولا يؤخرون التوبة، فالله عصمهم من ذلك وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها، وقد قال البعض: «كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة» وقالوا: «لو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه» والهفوات التي تبدر من الأنبياء عليهم السلام لا تنافي الكمال ولا تُعد نقصًا لأنهم يتابعونها بالإستغفار والتوبة والإنابة إلى الله، ولديهم من كثرة الحسنات ما تنجبر أمامها الهفوات كما هو الحال بالنسبة لنبي الله يونس عليه السلام، وكونهم أسوة البشر وقدوة الخلق إنما ينصب على الإسراع في التوبة عند وقوع الذنب، وعدم التسويف والتأخير، والحذر من المخالفات التي نبه الشرع عليها.

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩).

قال القرطبي في تفسيره: «واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعًا».

فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمرًا مطلقًا من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذا ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة، أو الحظر والمعصية. . . . ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية.

وقال (أبو إسحاق الإسفراييني) ـ من علماء أهل السنة ـ: لا يقع من الأنبياء ذنوب، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر، وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم ولا أصل لهذه المقالة، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم.

وقال بعض المتأخرين: الذي ينبغي أن يقال: أن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك لا يزرى بمناصبهم، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيان، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات.

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، إذ قد يؤاخذ الوزير، بما يثاب عليه الأجير.

قال القرطبي: «وهذا هو الحق، فهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل تلافاهم واجتباهم، وهداهم وزكاهم، واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه»[1].

---

(١) القرطبي (١/٣٠٨).

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على أن مثل هذه الذنوب التي نسبها اليهود والنصارى إلى أنبياء الله كالزنى والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها. . . لا يمكن أن تقع من أحد من الأنبياء والرسل بحال من الأحوال، وأنهم معصومون من ذلك كما ذكر الأشقر في «الرسل والرسالات».

★ تعرض نبي الله يونس للبلاء:

أُلقى نبي الله يونس في البحر، والتقمه الحوت، يقول سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤). وهذا نوع من الابتلاء شديد، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣).

قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده إختبارًا للمؤمنين وفتنة.

وقال ابن عباس: يريد بالناس قومًا من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه، وعدة من بني مخزوم، وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين.

وقد بيَّن سبحانه أنه ابتلى الماضين ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (سورة العنكبوت: ٣). فإبراهيم ألقي في النار وهاجر، وقتل نبي الله زكريا ويحيى، وسجن نبي الله يوسف، وصح عن الرسول ﷺ: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه»[(١)].

---

(١) رواه أبو يعلى وغيره، وصححه الألباني.

وروى البخاري عن خباب بن الأرت قال: **شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعوا لنا؟! فقال: «كان الرجل من قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمه وعصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**[1].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: **قلت لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة اُبتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**[2].

ودخل أبو سعيد الخدري على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فوضع يده على الرسول ﷺ، فوجد حره بين يديه فوق اللحاف، فقال: **يا رسول الله، ما أشدها عليك، قال: «إنا كذلك يضعف علينا البلاء، ويضعف لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلي بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدهم بالرخاء»**[3].

وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يومًا فأخذه السبع، فقال عيسى: يا رب وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم سلطت عليه كلبًا فأكله، قال: نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها، فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) رواه أحمد (٢٦٥٣٩) والترمذي (٢٣٩٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وقال وهب: قرأت في كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينًا، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم.

والابتلاء فيه تربية للمؤمنين، وصقل معادنهم، وتمحيص ما في قلوبهم، وهو بمثابة التطهير للصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٩).

كما أن في الإبتلاء، رفع درجات المؤمنين، ومضاعفة حسناتهم، وتكفير خطاياهم حتى يمشي أحدهم على الأرض، وما عليه خطيئة كما في الحديث: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»**[(١)].

★ فاصبر لحكم ربك:

توجه الخطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ آمرًا إياه بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (سورة القلم: ٤٨). أي لقضاء ربك، والحكم هنا القضاء.

وقيل: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وقال ابن بحر: فاصبر لنصر ربك.

قال قتادة: أي لا تعجل، ولا تغضب فلابد من نصرك، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (سورة القلم: ٤٨). يعني يونس عليه السلام، أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة.

قال قتادة: إن الله تعالى يُعزّي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت، والإنسان يحتاج إلى الصبر لامتثال الأوامر ولترك النواهي وحتى يقف مع البلاء بحسن الأدب، والصبر واجب حتم على المؤمن، والرضا فضل مندوب إليه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٧٧٩٩).

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عدة:

اولها ـ شهود جزائها وثوابها.

ثانيها ـ شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

ثالثها ـ شهود القدر السابق الجاري بها وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يُخلَق، فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

رابعها ـ شهود حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

خامسها ـ شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠). فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالإستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة، قال على بن أبي طالب: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة».

سادسها ـ أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه، فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه كان مقام الظلم وتعدي الحق.

سابعها ـ أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلاً.

ثامنها ـ أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم، ما لا تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كرامة هذا الدواء ومرارته، فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره. قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٦).

قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء: ١٩).

تاسعها - أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليـاءه وحزبه أم لا؟! فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخُلع عليه خلَع الإكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طُرِدَ وصُفِع قفاه وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادته، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب.

كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة وما بين هاتين المنزلتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة، والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

عاشرها - أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الإبتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية.

فالإبتلاء كير العبد ومحك إيمانه، فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج رغلاً محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهبًا خالصًا. أهـ.

إن الدنيا دار رحيل وانتقال، وهي بالبلاء محفوفة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف:٧). وإن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط.

والإنسان ممتحن في غناه وفقره وصحته ومرضه، وهو محتاج للصبر في كل أحواله بل البلاء قد يصبر عليه المؤمن والكافر أما العافية فلا يصبر عليها إلا الصديقون. وكلما قويت معاني الإيمان، قويت معاني الصبر، وعلى العبد أن يستشعر أنه ملك لله وإليه راجع ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة:١٥٦). يُحسِن التأسي بالأنبياء والمرسلين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف:٣٥).

★ خرج عليه السلام **مغاضبًا لمن؟:**

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧) أي واذكر (ذا النون) معناه صاحب الحوت، كما صرح الله بذلك في «القلم» في قوله: ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (سورة القلم:٤٨)، وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمه.

كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (سورة الصافات:١٤٢).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغَاضِبًا﴾.

قال الشنقيطي في تفسيرها: «أي في حال كونه مغاضبًا لقومه».

ومعنى المفاعلة فيه: أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج، قاله أبو حيان في البحر وقال أيضًا: وقيل معنى ﴿مُغَاضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكًا، نحو عاقبت اللص وسافرت. اهـ.

قال: واعلم أن قول من قال: ﴿مُغَاضِبًا﴾ أي مغاضبًا لربه كما روى عن ابن مسعود، وبه قال: الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتبي، واستحسنه المهدوي والقرطبي يجب حمله على معنى القول الأول، أي مغاضبًا من أجل ربه.

قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا: وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضبًا من أجل ربه كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عصى. اهـ.

والمعنى على ما ذكره: مغاضبًا قومه من أجل ربه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصح في الآية. أهـ. ما ذكره الشنقيطي في «أضواء البيان».

وقد نقل القرطبي في تفسيره أن هذه المغاضبة كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم.

وقال ابن مسعود: أبق من ربه أي من أمر ربه حتى بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم، فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب، فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم، فلذلك ذهب مغاضبًا، وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد، ونقل قول من قال: أنه غضب على قومه من أجل كفرهم بربه، أو أنه إنما خرج مغاضبًا للملك الذي كان على قومه . . .

إلى أن قال: قال القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم، فإنه كره رفع العذاب عنهم، قلت: هذا أحسن ما قيل فيه . . .

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب، فخشى أن يقتل فغضب، وخرج فارًا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر. فقال أهلها: أفيكم آبق؟ فقال: أنا هو، وكان من قصته ما كان، وابتلي ببطن الحوت تمحيصًا من

الصغيرة كما قال في أهل أحد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ (سورة آل عمران:١٥٢). إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة آل عمران:١٤١). فمعاصي الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجرًا عن المعاودة.

قد نسب الرازي في تفسيره القول بأن يونس ذهب مغاضبًا لربه لأكثر المفسرين، واكتفى ابن كثير في تفسيره بذكر قول الضحاك: وأن يونس عليه السلام ذهب مغاضبًا لقومه. والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم.

معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾:

بين سبحانه حالة نبيه يونس في خروجه مغاضبًا لقومه أو من أجل ربه فقال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧).

وهذه الآية فيها وجهان للتفسير لا يكذب أحدهما الآخر كما قال الشنقيطي:

الأول ـ أن المعنى ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق «قدر» بمعنى ضيق في القرآن: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (سورة الرعد:٢٦). أي ويضيق الرزق على من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ (سورة الطلاق:٧). وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني ـ أن معنى ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك، وعليه فهو من القدر والقضاء. . . . ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (سورة القمر:١٢).

أي قدره الله. . . . والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قدرًا. . . . ومنه على أصح القولين «ليلة القدر» لأن الله يقدر فيها الأشياء كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (سورة الدخان:٤)، والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء. . . . أما قول من قال: أن ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة، فهو قول باطل بلا شك، لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء كما لا يخفى.

وقد نسب ابن كثير معنى ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧). أي نضيق عليه في بطن الحوت إلى ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم قال: واختاره ابن جرير مستدلاً عليه بمثل ما ذكرنا.

والمعنى الثاني الذي ذكره لقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧). أي نقضي عليه، ونسبه لعطية العوفي.

وقال القرطبي: قيل: معناه استزله إبليس، ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته.

وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي والثعلبي عن الحسن.

ثم ذكر القرطبي القولين اللذين نقلناهما عن ابن كثير والشنقيطي وقال: قلت: وهذان التأويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله إذا مات فحرقوه «فوالله لئن قدر الله على» الحديث.

فعلى التأويل الأول يكون تقديره: والله لئن ضيق الله عليَّ، وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه.

وعلى التأويل الثاني: أي لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين غيري، وحديثه خرجه الأئمة في الموطأ وغيره. والرجل كان مؤمنًا موحداً.

وقد جاء في بعض طرقه «لم يعمل خيراً إلا التوحيد» وقد قال حين قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر:٢٨). وقد قيل: أن معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧). الاستفهام وتقديره: أفظن . . . ا.هـ.

★ **قضية العذر بالجهل:**

الواجب علينا حمل الناس على أحسن محاملهم، فقد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا تتأكد معه أن يحيىً من حيىً عن بينة، وأن يهلك من هلك عن بينة، والأصل في الناس البراءة لا الإتهام، فإذا ثبت عقد الإسلام بيقين فلا نزحزحه بشك، والإنسان يدخل في الإسلام بنطقه بالشهادتين وذلك بإتفاق العلماء، ومن قواعد أهل السنة أن نقبل من الناس علانيتهم ونكِل سرائرهم إلى الله، ونحسن الظن بالناس ونسئ الظن بأنفسنا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: **«أيها الناس إن الوحى قد انقطع، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ليس لنا في سريرته الله يتولاه في سريرته، ومن أظهر لنا شراً نؤمنه ولم نقربه، وإن قال: إن نيته حسنة»**.

وقد سلك البعض مسالك الخوارج والمعتزلة في عدم العذر بالجهل، وقد تفاوتوا فيما بينهم بين مقل ومستكثر، فمنهم من كفر عموم الخلق إلا من كان على شاكلته ـ في البدعة والضلالة، ومنهم من كفر الناس لجهلهم قضية من قضايا التوحيد!!

بل منهم من كفر خالفه في مسألة فقهية، وهؤلاء كلهم جُهال، ولو أخذوا بلازم كلامهم لأخرجناهم من الملة، وعلى الرغم من غربة الحال وانحراف الأوضاع عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد زعم البعض من هؤلاء أن الحجة قد قامت بكلماته!! ـ وما هي إلا شبهات أضافها لشبهات المخالف ـ أو منهم من قال: إن الحجة قد قامت بإذاعة القرآن الكريم!!!.. إلى غير ذلك مما يدل على جهل عريض، أدى إلى الجرأة والتسرع في تكفير الأمة متناسين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة المائدة:٨).

قال الشوكاني: إن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من

شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن: **«من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»**[١].

وفي لفظ آخر: **«من دعا رجلاً بالكفر، أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»**[٢]

ففي هذه الأحاديث، وما ورد موردها أعظم زاجر، وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾(سورة النحل: ١٠٦).

فلابد من شرح الصدر بالكفر، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر، لاسيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام.

ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يُرد به فاعله الخروج من الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل علي الكفر، وهو لا يعتقد معناه.

لقد قطع غلاة التكفير ما أمر الله به أن يوصل، وهدموا معاني الأخوة الإيمانية، وأدخلوا الكثيرين في دائرة اليأس والقنوط من ـ رحمة الله تعالى ـ، إذ لم يعذروا العباد فيما عذرهم فيه ربهم، ولم ينتبهوا لعوارض الأهلية التي نطقت بها نصوص الشريعة وتكلم بها العلماء، وقد ظن هذا الفريق أنه يُحسِن الصنع، ويجاهد بذلك في سبيل الله، وأن الغيرة على حرمات الشريعة لا تظهر إلا بذلك، وكيف يُدخل في الإسلام من ليس من أهله بزعمه!! كما استأنس فريق من هؤلاء بتكفير بعض العلماء لبعض الأشخاص، والفارق كبير والبون شاسع بين تكفير من قامت عليه الحجة الرسالية ـ التي يكفر مخالفها ـ بحيث انتفت شبهاته ودرأت معاذيره على يد عالم أو ذي سلطان مطاع، وبين تكفير الأغرار بشبهات وأهواء ضالة مضلة، ولما كانت قضية العذر بالجهل يتناولها الغالي والجافي والناس فيها بين إفراط وتفريط، وكان لابد من توضيح عدة مسائل تتعلق بهذه القضية.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) والترمذي (٢٦٣٧)، وأحمد (٥٨٧٨)، واللفظ له.
(٢) رواه مسلم (٦١)، وأحمد (٢٠٩٥٤).

(أ) بعض أدلة الكتاب على قضية العذر بالجهل:

المسألة الأولى - بعض أدلة القرآن: والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ١٥). قال ابن كثير: «إخبـار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل إليه».

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (سورة الأنعام: ١٩).

قال ابن تيمية: ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلوغ لقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بلغ﴾ (سورة الأنعام: ١٩). وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ١٥).

وقوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

ومثل هذا في القرآن متعدد، بيَّن سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ، ولا يعذبه الله على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان إلا بعد بلوغ الحجة، فإنه لا يعذبه على بعض شرائعه إلا بعد البلوغ أولى وأحرى، وهذه سنة رسول الله ﷺ لمستفيضة في أمثال ذلك.

فإنه قد ثبت في الصحاح أن طائفة من الصحابة ظنوا أن قوله تعالى: ﴿الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧) هو الحبل الأبيض من الحبل الأسود، فكأن أحدهم يربط في رجله حبلاً ثم يأكل حتى يتبين هذا من هذا، فبين النبي ﷺ أن المراد بياض النهار وسواد الليل، ولم يأمرهم بالإعادة، وكذلك عمر بن الخطاب وعمار أجنبا، فلم يصلِّ عمر حتى أدرك الماء، وظن عمار أن التراب يصل إلى حيث يصل الماء، فتمرغ كما تمرغ الدابة، ولم يأمر أحدًا منهم بالقضاء، بل أمره بالتيمم في المستقبل.

وكذلك المستحاضة قالت: إني أستحاض حيضة شديدة تمنعني الصلاة والصوم، فأمرها بالصلاة زمن دم الإستحاضة، ولم يأمرها بالقضاء.

ولما حرم الكلام في الصلاة تكلم معاوية بن الحكم السلمي في الصلاة بعد التحريم جاهلاً بالتحريم فقال له: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شئ من كلام الآدميين» ولم يأمره بإعادة الصلاة، ولما زيد في صلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة، كان من كان بعيداً عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين، ولم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة.

ولما فرض شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ولم يبلغ الخبر إلى من كان بأرض الحبشة من المسلمين، حتى فات ذلك الشهر ولم يأمرهم بإعادة الصيام. أهـ[1].

وما ذكره شيخ الإسلام يدل دلالة واضحة على أن حكم الخطاب لا يثبت في حق المكلف إلا بعد البلاغ.

٣ - قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الملك: ٨-٩).

٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ١١٥).

٦ - قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٥-١٥٧).

وبمراجعة سريعة لتفسير هذه الآيات يتبين لك رحمة الله بخلقه، وأنه سبحانه لم يكتف بأن ركب في العباد عقولاً وأودع فيهم فطراً، بل أنزل لهم الكتب، وأرسل

---

(١) مجموع الفتاوي ج٢٢ ص٤١-٤٢.

لهم الرسل يقيمون حجج الله وبيناته على العباد، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وما من أمة إلا خلا فيها نذير، فما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين كما ورد في الخبر، فكيف لا نحب ما أحبه الله؟! وكيف لا نعذر من عذره الله؟!

(٢) بعض أدلة السنة على العذر بالجهل:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان رجل يسرف على نفسه، لما حضره الموت قال لبنيه: «**إذا أنا مت، فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك فغفر له**»[1]، ويروي أيضًا عن أبي سعيد رضي الله عنه، وفيه: «**فجمعه الله عزَّ وجلَّ، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته**»[2].

قال ابن تيمية: «وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: «إذا ما مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين، ففعلوا به ذلك فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك فغفر له».

فهذا الرجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرِىّ بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الإجتهاد الحريص على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بالمغفرة من مثل هذا». اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦)، وأحمد (٧٥٩١)، ومالك (٥٦٨).
(٢) رواه البخاري (٣٤٧٨).

٢ - عن أبي واقد الليثي قال: **خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما اقلت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾** (سورة الأعراف: ١٣٨). **لتركبن سنن من كان قبلكم»**[(١)].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد»:

الخامسة ـ أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السابعة ـ أن النبي ﷺ لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: **«الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»**، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الحادية عشرة ـ أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا.

٣ ـ عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا: **«يُدرس الإسلام كما يُدرس وشي الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسري على كتاب الله عزَّ وجلَّ في ليلة فلا يبقي في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس ـ الشيخ الكبير والعجوز ـ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها»**.

قال صلة بن زفر لحذيفة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة ثم رددها ثلاثًا، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: **«تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار»**[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٩٠)، والترمذي (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم، وصححه الألباني.

٤ - روى عبد الله بن أبي أوفى قال: **لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟»** ، **قال: أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن أفعل ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه»** [(١)] .

وقد استدل الشوكاني في (نيل الأوطار) بهـذا الحديث على قضية العذر بالجهل، وقال: من سجد جاهلاً لغير الله لا يكفر.

٥ - عن ابن عباس رضي الله عنهما : **أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ وقال له: ما شاء الله وشئت. فقال ﷺ: «أجعلتني لله ندًا؟ ما شاء الله وحده»** [(٢)] .

٦ - حديث الربيع بنت معوذ، وفيه قول الجارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، وقول النبي ﷺ : **«دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»** [(١)] رواه البخاري، وفي رواية ابن ماجه : **«ما يعلم ما في غد إلا الله»** [(٢)] فعلمهن ﷺ ولم يكفرهن.

٧ - إذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، كما في حديث النوبية التي زنت ولم يقُم عمر الحد عليها، فأولى ثم أولى أمر التكفير، وقد كان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يقول: لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان تحسينًا للظن بالمسلم.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان، وحسن الألباني إسناده.

(٢) رواه أحمد (٢٥٥٧).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٧).

(٤) رواه ابن ماجه (١٨٩٧).

(٣) بعض أقوال أهل العلم:

١ - قال الشافعي - رحمه الله -: لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ولا يكفر بالجهل، بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، وتثبت هذه الصفات وينفى عنه التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه تعالى فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة الشورى: ١١).

٢ - قال الخطابي: «فإن قيل: كيف تأولت أمر الطائفة التي منعت الزكاة على الوجه الذي ذكرت وجعلتهم أهل بغي؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة وامتنعوا عن آدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافراً بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان.

منها: قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ.

ومنها: أن القوم كانوا جهالاً بأمور الدين، وكان عهدهم بالإسلام قريبًا، فدخلتهم الشبهة فعذروا.

فأما اليوم، وقد شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها، وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئًا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشراً كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والإغتسال من الجنابة، وتحريم الزنا، والخمر، ونكاح ذوات المحارم، ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلاً حديث عهد بالإسلام، ولا يعرف حدوده، فإنه إذا أنكر شيئًا منها جهلاً به لم يكفر، وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه.

فأما ما كان الإجماع فيه معلوم من طريق علم الخاصة كتحريم المرأة على عمتها وخالتها، وأن القاتل عمدًا لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام، فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة.

٣ - قال ابن تيمية: إني من أعظم الناس نهيًا أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية.

٤ - قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]: «إذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر (الجيلاني)، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالها، لأجل جهلهم وعدم من يفهمهم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل؟! سبحانك هذا بهتان عظيم».

٥ - قال القرطبي: فكما أن الكافر لا يكون مؤمنًا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرًا من حيث لا يقصد الكفر ،لا يختاره بالإجماع.

والنقول في هذا المعنى كثيرة، تستند لنصوص الكتاب والسنة، وكلها تعم المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية ـ قضايا التوحيد ومسائل الفقه ـ وهي بمثابة الرد البليغ على من لا يعذر بالجهل من الخوارج وأشباههم، وقديمًا قالوا: ما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل إلا وكان في هذا الدليل ما يرد عليه ويُدحض بدعته، والخوارج وأشباههم جهال بمعاني التوحيد قبل غيرها ولكنهم يكيلون بمكيالين، وهذا يصح في المقطوع بكفره كفرعون.

---

(١) صيانة الإنسان عن وساوس الشيخ دحلان (٤٤٩).

أما فيمن تكفيره موضع اجتهاد، فلا يجوز تطبيق هذه المقولة على من اختلفنا معه، وقد اختلف الإمام أحمد والشافعي ـ رحمهما الله ـ في تكفير تارك الصلاة، فهل كفر أحدهما الآخر؟!!

ومن باب أولى وأحرى عدم المؤاخذة قبل الإنذار، وأنه لا اعتبار بصدور فعل كفري لم يُرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه، كما قال الشوكاني: من سجد جاهلاً لغير الله لم يكفر.

وقال ابن العربي: فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركًا أو كافرًا، فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتى يتبين له الحجة التي يكفر تاركها بيانًا واضحًا ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام، مما أجمعوا عليه إجماعًا قطعيًا يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل. . . . . ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع[1].

★ المسألة الثانية ـ معنى العذر بالجهل:

توهم البعض، أن العلماء يكفرون كل من قالوا عنه لا يعذر بجهله!! وهذا خطأ، وقد سئل الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ عمن اعتاد حلق اللحية، هل يعذر بجهله؟ فقال: لا يعذر بالجهل، فهل معنى ذلك تكفير حليق اللحية؟

وسبق أن نقلنا كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ في حديث ذات أنواط ـ، وقوله في المسألة السابعة: إن النبي ﷺ لم يعذرهم، وذلك لأنه ﷺ عنفهم على مقالتهم، وإلا فالشيخ ـ رحمه الله ـ يرى في المسألة (الحادية عشرة) أنهم لم يرتدوا.

---

(١) محاسن التأويل (٥-١٣٠٧).

وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول لعلماء وقضاة الجهمية: «أنا لو قلت قولكم لكفرت، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهال».

وقد يكون الإنسان معذوراً بجهله ويأثم في ذات الوقت لتقصيره في طلب العلم، فإن هذا العذر لا يكون عذراً إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصر فيه لم يكن معذوراً كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن الناس من يعذر بجهله فلا يأثم ولا يعاقب ولا يخرج من ملة الإسلام إذا أتى بشئ من الكفر العملي أو اعتقد كفراً جاهلاً به.

يقول ابن تيمية: «فإن من نشأ ببادية أو كان حديث عهد بالإسلام، وفعل شيئًا من المحرمات غير عالم بتحريمها لم يأثم ولم يُحد، وإن لم يستند في استحلاله إلى دليل شرعي».

وقال النووي في (شرح مسلم): «اعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرَّف ذلك، فإن استمر حكم بكفره، وكذلك فمن استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يُعلم تحريمها ضرورة.

ومن الناس من يختبرون ويمتحنون يوم القيامة كأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وهناك مسائل لا تُقبل فيها دعوى الجهل كمسائل الكفر المجرد، وذلك لقيام الحجة فيها على كل أحد، كسب الله ورسوله، وإلقاء المصحف في القاذورات، ونحو ذلك.

وكذلك لا يعذر من أعرض عن فهم الحق بعد بيانه أو عاند بعد قيام الحجة عليه.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:[1]

الأصل الثاني ـ أن العذاب يستحق بسببين:

---

(١) طريق الهجرتين (٤١٢).

أحدهما ـ الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني ـ العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل أهـ.

والحاصل أن الناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في هذه المسألة، والواجب علينا أن ننزل الحكم الشرعي على الواقع المساوي له، فإذا استشكل علينا الأمر رددنا العلم لعالمه، وخصوصًا فيما تؤخذ به الأموال، وتُستحل به الفروج، وتُفقد به الأهلية ويُخلد به الإنسان في نيران الجحيم.

★ المسألة الثالثة ـ المعلوم من الدين بالضرورة:

يقول العلماء: من جحد شيئًا من المعلوم من الدين بالضرورة يكفر ويخرج من ملة الإسلام، ويضربون لذلك أمثلة كفرضية الصلاة. . . وكذلك الحكم فيمن استحل الحرام المجمع على تحريمه كاستحلال الزنا والخمر، فإنه يكفر بلا خلاف.

وقد أدى الجهل بالمصطلحات العلمية ـ كالمعلوم من الدين بالضرورة ـ إلى وقوع كثير من صور الغلو، وإلا فالمعلوم من الدين بالضرورة في زمن قد يكون مجهولاً في زمن آخر، والمعلوم في مكان أو عند شخص قد يكون مجهولاً في مكان آخر أو عند شخص آخر.

وقد ثبت أن عبد الرحمن بن حاطب كانت له نوبية صامت وصلت، وهي أعجمية لا تفقه، وكانت ثيبًا فحملت، فأرسل إليها عمر بن الخطاب فسألها: أحبلت؟ قالت: نعم من مرعوش بدرهمين، فاستشار عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، فقال علي وعبد الرحمن: وقع عليها الحد (أي الرجم). فقال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فقال عمر لعثمان: صدقت والذي نفسي بيده ما الحد إلا على من علمه.

فهذه المرأة كانت في زمن الصحابة رضي الله عنهم وهي تجهل هذا الحد.

والفارق كبير بين دار الإسلام ودار الحرب في انتشار واشتهار الأحكام الشرعية.

ففي (الوجيز) (١٠٨) تحت عنوان (الجهل في دار الحرب) ما نصه:

القاعدة أن العلم فيها لا يفترض إذ هي ليست دار علم بالأحكام الشرعية بل دار جهل بها، على هذا إذا أسلم شخص هناك، ولم يعلم حقيقة وجوب العبادات عليه كالصلاة ونحوها فلم يؤدها، فإنها لا تلزمه قضاء إذا علمها وكذلك إذا شرب الخمر جهلاً منه بحرمتها، فلا إثم عليه ولا عقاب لأن المؤاخذة ولزوم التكليف ينشآن ببلوغ الخطاب إليه حقيقة أو تقديراً بشهرته في محله، وليست دار الحرب بالدار التي تشيع فيها الأحكام وتشتهر. اهـ.

فالواجب علينا أن نتنبه، فالشيء قد يكون معلومًا في عصر الصحابة، وأمره ليس كذلك الآن، وقد يكون معروفًا مشهوراً في السعودية، أما في أدغال أفريقيا فلم يسمعوا به، فكيف نسوي بين العالم والجاهل.

ومن المعلوم أن الفتوى تختلف زمانًا ومكانًا وشخصًا.

★ المسألة الرابعة ـ تتمات وأصول للرد على الغلاة:

الإيمان قول وعمل، أو هو قول باللسان وإقرار بالجنان وعمل بالأركان، وهو عبارة عن شعب وشعب، الإيمان تسمى إيمانًا، والطاعات كلها من شعب الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (سورة البقرة:١٤٣) أي صلاتكم التي كنتم تصلونها إلى بيت المقدس، والإيمان يزيد وينقص، وزيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي والزلات، وأهله يتفاضلون ويتفاوتون فيه، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية.

وقد نحكم للإنسان بالإسلام ويعلم الله كفره، وليس لنا إلا ذلك، لأننا لم نؤمر أن نشق عن الصدور أو أن ننقب عن القلوب، ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينه عن ذبائح المنافقين، وكانوا يتزوجون من المسلمين.

وقد يجتمع في الإنسان إيمان وكفر، أو إيمان وشرك، أو إيمان ونفاق، قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٧).

وقد يتواجد في الإنسان خصلة من خصال المنافقين كالكذب أو إخلاف الوعد... مع إيمانه، وبحسب غلبة أحدهما على الإنسان يؤول أمره إليه.

وقد اتفق العلماء على أن شرع الله فيه كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم، ونفاق دون نفاق.

ففي الحديث: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»(١)، وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»(٢).

ومجترد الإقتتال لا يوجب التكفير، فقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (سورة الحجرات: ٩).

فأثبت لهم سبحانه الإيمان مع الإقتتال، كما ثبت أيضًا أن البعض لما قال لأخيه: يا ابن السوداء، قال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، فأين هذا السباب وهذا الاقتتال، من فسق إبليس ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (سورة الكهف: ٥٠) وكفر فرعون وقارون وأبي جهل.

قال القاسمي: حيثما وقع في حديث من فعل كذا فقد أشرك أو فقد كفر، لا يراد به الكفر المخرج من الملة، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجرى عليه أحكام الردة، والعياذ بالله تعالى.

وقد قال البخاري: «باب كفران العشير وكفر دون كفر».

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، والترمذي (١٩٨٣)، والنسائي (٤١٠٥)، وابن ماجه (٦٩)، وأحمد (٣٦٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٣١)، ومسلم (٦٥)، والنسائي (٤١٣١)، وابن ماجه (٣٩٤٢)، وأحمد (١٨٦٨٦).

ومن المسائل الهامة التي تدعو الحاجة لبيانها، مسألة الفرق بين النوع والمعين، وهي كثيراً ما تلتبس على الناس، إذا سمعوا أن من فعل كذا أو قال كذا فهو كافر، فإذا ما وجدوا إنسانًا فعل أو قال ذلك سارعوا بتكفيره دون تريث أو تثبت.

وفي ذلك يقول ابن تيمية: «إن القول قد يكون كفرًا فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(سورة النساء: ١٠).

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع.

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات ويعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائنًا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام»[١].

★ بعض أوجه القراءات ـ معناها وفائدتها:

قرأ عمر بن عبد العزيز والزهري: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نُّقَدِّرَ عَلَيْهِ ﴾(سورة الأنبياء: ٨٧) بضم النون وتشديد الدال من التقدير، وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس، وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: ﴿ أَن لَّن يُقَدَّرَ عَلَيْهِ ﴾ بضم الياء مشدداً على الفعل المجهول.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣-٣٤٥).

وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي اسحق والحسن وابن عباس أيضًا «يُقْدَرَعليه» بياء مضمومة وفتح الدال مخففًا على الفعل المجهول.

وعن الحسن أيضًا: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ الباقون «نَقْدِرَ» بفتح النون وكسر الدال، وكله بمعنى التقدير، وحكى القاضي منذر بن سعيد: أن بعضهم قرأ «أفظن» بالألف.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء:٨٨) قراءة العامة بنونين وقرأ ابن عامر «نُجِّي» بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء، وقرأ محمد بن السميقع وأبو العالية ﴿ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نجى الله المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (سورة الصافات:١٤٧) قرأ جعفر بن محمد ﴿ يَزِيدُونَ ﴾ بغير همز.

قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (سورة القلم:٤٩) قراءة العامة «تداركه».

وقرأ ابن هُرْمُزُ والحسن «تدَّاركه» بتشديد الدال، وقرأ ابن عباس وابن مسعود «تداركته»، وهو خلاف المرسوم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ (سورة يونس:٩٨). في مصحف أبيٍّ وابن مسعود «فهلا» وقراءة العامة «قوم»، ويجوز: «إلا قوم يونس»، قال أبو إسحق الزجاج: يكون المعنى غير قوم يونس.

والقراءات جمع قراءة، وهي مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبًا يخالف غيره، ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة. وهي تختلف عن الأحرف السبعة وضوابط القراءة الصحيحة:

١ ـ موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه.

٢ ـ أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو إحتمالاً.

٣ ـ أن تكون صحيحة الإسناد.

ولا يعول على قول بعض النحاة بتخطئة القراءة الصحيحة بزعم مخالفتها لقواعدهم النحوية، فالقراءة الصحيحة بمثابة الحكم على القواعد اللغوية والنحوية، لا أن نجعل هذه القواعد حكمًا على القرآن.

والجمهور على أن القراءات السبع متواترة، وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به في الصلاة ولا في غيرها.

قال النووي في (شرح المهذب): لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة، لأنها ليست قرآنًا، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة الشاذة ليست متواترة، ومن قال غيره فغالط أو جاهل، فلو خالف وقرأ بالشاذة أنكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ، نقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ، ولا يصلي خلف من قرأ بها،

ولاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

١ ـ الدلالة على صيانة كتاب الله، وحفظه من التبديل والتحريف، مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

٢ ـ التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها.

٣ ـ إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ.

٤ ـ بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى كقراءة «يطهرن» في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٢).

قرىء بالتشديد والتخفيف، فقراءة التشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف، عند الجمهور، فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض، أي بانقطاع الدم، حتى تتطهر بالماء.

■والقراء السبع المشهورون هم:

١ ـ أبو عمرو بن العلاء.
٢ ـ ابن كثير.
٣ ـ نافع المدني.
٤ ـ ابن عامر الشامي.
٥ ـ عاصم الكوفي.
٦ ـ حمزه الكوفي.
٧ ـ الكسائي الكوفي.

★ **القرعة ومشروعيتها:**

ذكر الطبراني: «أن يونس ﷺ لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس ـ وعرف أنه هو صاحب الذنب ـ: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم.

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٤١).

فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم».

الثانية ـ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم.

الثالثة ـ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت. وهذا يدل على أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا.

قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن:

الأول-كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني-أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم، فاعتق اثنين وأرق أربعة.

الثالث-أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال: **«اذهبا وتوخيًا الحق، واستهما، وليحلل كل واحد منكما صاحبه»**

فهذه ثلاثة مواطن، وهي القَسْم في النكاح والعِتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي، واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين، الصحيح منهما الإقراع، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك في مسألة الأعبد الستة، فإن كل اثنين منهم ثلث، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعًا فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل.

قال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها، ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق.

★ السفينة لا تخف برمي الرجال فما سبيل استبقائها؟

قال القرطبي في تفسيره: «الإقتراع على إلقاء آدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصيًا أن يقتل أو يرمى به في النار أو البحر، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته.

وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم، فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفًا، وهذا فاسد، فإنها لا تخف برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله».

وقد ورد ما يدل على جواز إفساد بعض المال إذا كان فيه سلامة لأكثره، وارتكاب أخف الضررين لدفع أضرهما، ومن جملة ما يُستدل به قوله تعالى: ﴿أَمَّا

السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (سورة الكهف: ٧٩). فخرق السفينة وإن كان ضررًا ومفسدة إلا أنه أخف ضررًا ومفسدة من أخذها كلها لو سلمت من الخرق.

قال ابن حجر في (فتح الباري): «وأما من استدل به يعني (بفعل الخضر بالسفينة والغلام والجدار) على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما معظمة كخصاء البهيمة للسمن وقطع أذنها للتمييز، ومن هذا مصالحة ولي اليتيم السلطان على بعض مال اليتيم خشية ذهابه بجميعه فصحيح، لكن فيما لا يعارض نصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفسًا كثيرة قبل أن يتعاطى شيئًا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه».

وقال القرطبي: «في خرق السفينة دليل على أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صالحًا مثل أن يخاف على ريعه ظالمًا فيخرب بعضه».

وقال أبو يوسف: «يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد سُئل عن راعي أبقار، رأى بقرة مريضة فخشي عليها أن تفوت على صاحبها، فذبحها هو أو بعض من رآها، فهل على الراعي ضمانًا؟.

فأجاب: «لا يلزم الراعي شيء إذا لم يكن منه تفريط ولا عدوان، بل إن كان الأمر كما ذكروا لا يلزم في ذبحها شيء، فإنهم قد أحسنوا فيما فعلوا، فإن ذبحها خير من تركها حتى تموت. وقد فعل مثل هذا راع على عهد النبي ﷺ، ولم ينكر النبي ﷺ ذلك، ولا بيّن أنه ضامن، وهو نظير خرق صاحب موسى السفينة لينتفع بها أهلها مرقوعة، فإن ذلك خير لهم من ذهابها بالكلية، ومثل هذا لو رأى

الرجل مال أخيه المسلم يتلف بمثل هذا، فأصلحه بحسب الإمكان، ، كان مأجوراً عليه وإن نقصت قيمته، فناقص خير من تالف، فكيف إذا كان مؤتمنًا كالراعي ونحوه»[(١)]. اهـ.

★ تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة:

خرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء في الرخاء»**[(٢)]، وخرّج ابن أبي حاتم وغيره من رواية أبي يزيد الرقاش عن أنس يرفعه: «أن يونس عليه السلام لما دعا في بطن الحوت، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة، فقال الله عزَّ وجلَّ: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟ قال: نعم، قالوا: يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء».

وقال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس عليه السلام كان يذكر الله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤)، وإن فرعون كان طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق، قال: آمنت، فقال الله تعالى: ﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (سورة يونس: ٩١).

وقال سلمان الفارسي: إذا كان الرجل دعاء في السراء، فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوت معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف، فلا يشفعون له.

---

(١) راجع كتابي: «أخطاء شائعة في البيوع وحكم بعض المعاملات الهامة» (٦٥-٦٧).
(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٢).

وقال رجل لأبي الدرداء: أوصني. فقال: **«اذكر الله في السراء يذكرك الله عزَّ وجلَّ في الضراء»**، وعنه أنه قال: **«ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك»**.

وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا، وما بعده أشد منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير، فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما بعده في حال الصحة والتقوى والأعمال الصالحة.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحشر: ١٨-١٩).

فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه واستعد حينئذ للقاء الله عزَّ وجلَّ بالموت وما بعده، ذكره الله عند هذه الشدائد فكان معه فيها، ولطف به وأعانه وتولاه وثبته على التوحيد فلقيه وهو عنه راض، ومن نسى الله في حال صحته ورخائه ولم يستعد حينئذ للقائه نسيه الله في هذه الشدائد، بمعنى أنه أعرض عنه فأهمله، فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه، وجاءته البشرى من الله فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، والفاجر بعكس ذلك وحينئذ يفرح المؤمن ويستبشر بما قدمه مما هو قادم عليه، ويندم المفرط ويقول: يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله.

قال أبو عبد الرحمن السلمي قبل موته: كيف لا أرجو ربي، وقد صمت له ثمانين رمضانًا؟.

وقال أبو بكر بن عياش لابنه عند موته: أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة، وختم آدم بن أبي إياس القرآن وهو مسجي للموت ثم قال: بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت آملك لهذا اليوم كنت أرجوك لا إله إلا الله، ثم قضي. ولما احتضر زكريا بن عدي رفع يديه وقال: اللهم إني إليك لمشتاق.

وقال قتادة في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (سورة الطلاق: ٢) قال: من الكرب عند الموت، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وهذا كله ذكره الحافظ ابن رجب في شرح حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يومًا، فقال لي: **«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»**

«احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[(١)] .

★ كان من المسبحين ففرج الله كربه:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤) قيل لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب ابن منبه، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٤٣) يعني المصلين، وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك، وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبويه، وقيل: المراد ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨) قاله سعيد بن جبير وغيره.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦).

وروى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أراد الله ـ تعالى ذكره ـ حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به أسفل البحر سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح. قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾** (سورة الصافات: ١٤٥). **وكان سقمه الذي وصفه به الله ـ تعالى ذكره ـ أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم»**. اهـ.

ومن المعلوم أن الذكر من أجل الطاعات وأفضل القربات، بل ما شرعت الفرائض والواجبات إلا إقامة لذكر الله، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه: ١٤) ولذلك لا يبعد تفسير من قال: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٤٣). أي المصلين، وقد حكى لنا سبحانه عن الكون من حولنا فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء: ٤٤) فلا يبعد سماع يونس عليه السلام تسبيح دواب البحر، وأفضل الذكر ما أجتمع عليه القلب واللسان، ثم ما خرج من القلب، ثم ما كان باللسان، وأفضل الكلام كلام الله تعالى ثم كلمات أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم الذكر، ثم الدعاء بالوارد المسنون، ثم الدعاء بمعناه، ثم ما كان بالأعجميه، كما بين ابن تيمية.

ويدخل في معنى الذكر: ذكر أسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاته، ومدحه والثناء عليه بها نحو: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والخبر عن الله عزَّ وجلَّ بأحكام أسمائه وصفاته، نحو: الله عزَّ وجلَّ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وكذلك ذكر الأمر والنهي وآلائه، وإحسانه.

والذكر هو باب الله الأعظم المفتوح بين العبد وربه، قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وفي الحديث: «مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت»[(١)] وأخرج البخاري تعليقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس له».

وكان البعض يقول: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره.

فاحرص رحمك الله على طاعة الله، وإدامة ذكره في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، ورخائك وشدتك، ولا تنس حفظ أذكار الشروق والغروب والنوم وسائر الأذكار الموظفة، فإنها نافعة لك بإذن الله ـ في الدنيا والآخرة ـ قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (سورة البقرة: ١٥٢) وقال: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (سورة الرعد: ٢٨).

وإن ثقل عليك الأمر، فأكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة، واسأل الله أن يرزقك لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وجسدًا على البلاء صابرًا، وادعوه سبحانه، بدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(٢)].

★ فوائد الذكر:

ذكر الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه (الوابل الصيب) فوائد كثيرة للذكر، منها:

١ ـ أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

٢ ـ أنه يرضي الرحمن عزّ وجلّ.

٣ ـ أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)، اللفظ للبخاري.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠).

٤ ـ أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

٥ ـ أنه يقوي القلب والبدن.

٦ ـ أنه ينور الوجه والقلب.

٧ ـ أنه يجلب الرزق.

٨ ـ أنه يكسوا الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٩ ـ أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة.

١٠ ـ أنه يورثه المراقبة حتى يدخل في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه.

١١ ـ أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ.

١٢ ـ أنه يورثه القرب منه سبحانه.

١٣ ـ أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

١٤ ـ أنه يورثه الهيبة لربه عزَّ وجلَّ، وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه، وحضوره مع الله تعالى.

١٥ ـ أنه يورثه ذكر الله تعالى له كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (سورة البقرة:١٥٢).

١٦ ـ أنه يورثه حياة القلب.

١٧ ـ أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

١٨ ـ أنه يورث جلاء القلب من صدئه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر.

١٩ ـ أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

٢٠ ـ أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى.

٢١ ـ ومنها أنه سبب لنزول الرحمة والسكينة كما قال ﷺ: **«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**[(١)].

---

(١) رواه مسلم.

٢٢ ـ والذكر سبب لانشغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل.

٢٣ ـ الذكر شفاء لقسوة القلب، قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذكر، وقال مكحول: ذكر الله شفاء، وذكر الناس داء.

٢٤ ـ الذكر يعطي الذاكر قوة في قلبه وفي بدنه، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويحمد ثلاثًا وثلاثين، ويكبرا أربعًا وثلاثين، لما سألته الخادم، فعلمها ذلك وقال: «إنه خير لكما من خادم»[1].

٢٥ ـ كثرة الذكر أمان من النفاق، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء: ١٤٢).

٢٦ ـ أن الله عزَّ وجلَّ يباهي بالذاكرين ملائكته.

٢٧ ـ الذكر أفضل من الدعاء، الذكر ثناء على الله عزَّ وجلَّ، والدعاء سؤال العبد حاجته، والذكر يجعل الدعاء مستجابًا، فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد.

٢٨ ـ أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء.

٢٩ ـ أن عمال الآخرة في مضمار السباق، والذاكرين هم أسبقهم في ذلك المضمار.

٣٠ ـ أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك.

٣١ ـ أن ذكر الله عزَّ وجلَّ يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، وهو من أكبر العون على طاعته، يحببها إلى العبد ويسهلها عليه، ويلذذها، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل.

٣٢ ـ أن الذكر أصل موالاته عزَّ وجلَّ ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها.

٣٣ ـ أن إدامته تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية أو مالية أو بدنية مالية تجمع التطوع.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).

وهذه الفوائد التي ذكرناها، وغيرها مما ذكره الإمام ابن القيم في (الوابل الصيب) لها دلائلها من الكتاب والسنة، فراجع الكتاب، فإنه نافع لك بإذن الله.

★ إذا سألت فاسأل الله:

حري بالعبد أن ينيب إلى ربه، ويتوجه إليه، ويتوكل عليه في كل أحواله، بحيث لا يتعلق قلبه بأحد سواه في جلب النفع ودفع الضر، فهو سبحانه المعطي المانع، النافع الضار، كما أنه جلَّ وعلا هو الذي يجيب المضطر ويكشف الضر، فلا يليق بالمخلوق الضعيف أن يتعلق بحوله وطوله، أو بذكائه وفطنته، أو يضعف أمام مخلوق مربوب مثله، وما خاب من رجا الله تعالى ودعاه وسأله من فضله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠) والدعاء هو العبادة.

وفي الحديث: **«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»**[(١)].

وفي الترمذي: عن ابن مسعود مرفوعًا: **«سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل»**[(٢)].

وفيه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: **«من لا يسأل الله يغضب عليه»**[(٣)].

وفي حديث آخر: **«يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»**[(٤)].

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا: منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦).
(٢) رواه الترمذي (٣٥٧١).
(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٣).
(٤) رواه الترمذي (٣٩٧٣).

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : **«إن الله عزّ وجلّ يقول: هل من داع فأستجيب له دعاءه؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله؟ هل من مستغفر فأغفر له»**(١) .

فمن الذي دعاه سبحانه فلم يجبه؟ وسأله فلم يعطه؟ واستغفره فلم يغفر له؟ .

واعلم أن سؤال الله عزَّ وجلَّ دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل، والمسكنة والحاجة والإفتقار، وفيه الإعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الضر، ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والإفتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة.

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسئلة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك.

كما قال: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ (سورة يونس:١٠٧)، وقال: ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (سورة فاطر:٢).

والله سبحانه يحب أن يُسئل، ويُرغب إليه في الحوائج، ويلحّ في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك كله يكره أن يسأل، ويحب أن لا يُسأل لعجزه وفقره وحاجته.

ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بالليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني استجب لك.

ثم من ترك الإستعانه بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً، ومن وُكل إلى نفسه، فقد وُكل في الحقيقة إلى ضعف وعورة ونقص.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، والترمذي (٤٤٦) (٣٤٩٨)، وأبو داود (١٣١٥).

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه.

ومن كـلام بعض السلف: يا رب عـجبت لمـن يعرفك كـيف يرجـو غيـرك؟! وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟!.

إن نبي الله يونس عليه السلام لم يدع إلا الله، ولم يستـعن بغير الله، ولم يتـعلق قلبه بأحد سواه، بل كـان ذاكرًا لله في رخائه وشدته، ولم يلتـفت لحوله وطوله وهو في بطن الحوت، بل توجه لربه بتـضرع وتذلل، وقال: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧).

★ *اسم الله الأعظم* ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾:

دعـوة ذي النون وهو في بطن الحـوت: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَـانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧) يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه، والصبر عليهم.

وقيل في الخروج من غير أن يؤذن له، وقد نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفســه اعتـرافًا واستـحقاقًـا، ومثل هذا قـول آدم وحواء: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣) إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه.

روى أبو داود عن سـعد بن أبي وقـاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: «دعاء ذي النون في بطن الحوت ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧) لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له».

قال ابن مـسعود وابن عـباس وغيـرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البـحار يشقهـا حتى انتهى به إلى قرار البحـر، فسمع يونس تسبيح الحـصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (سورة الأنبـياء: ٨٧). أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبـياء: ٨٨) أي إذا كانوا في

الشدائد، ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء.

وروى ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص قال: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى»، قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس ابن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨). فهو شرط من الله لمن دعاه به»

وروى ابن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن قول الله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨). ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

وهذا هو فعل الله بعبده يونس، فقد حفظه ورعى له حق تعبده، وحفظ أمام ما سلف له من الطاعة.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤) وهذا أيضًا هو فعله سبحانه إذا أنابوا إليه، ودعوه بهذا الدعاء، فلم تكن الإجابة ليونس عليه السلام فقط بل للمؤمنين عامة، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم.

قال الأستاذ أبو إسحاق: صحب ذو النون الحوت أيامًا قلائل، فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة، يبطل هذا عنده ألا يظن به ذلك.

★ **الدعاء:**

الدعاء هو العبادة، ومن سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء في الرخاء، ولن يهلك من الدعاء أحد، فإنه ينفع مما نزل ومما لم ينزل، ولا يغني حذر من قدر ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة.

وقد ورد في الحديث أنه: **«ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يرفع عنه من السوء مثلها»**[١].

والإنسان كما يستدفع قدر الجوع بقدر الأكل، وقدر العطش بقدر الشرب، فكذلك يستدفع قدر البلاء بقدر الدعاء، فكلاهما من قدر الله.

وكان كعب الأحبار يقول: أعطيت هذه الأمة ثلاثًا لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبيًا قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلهم شهداء على الناس ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة البقرة:١٤٣) وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج:٧٨) وكان يقال له: أدعني استجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**[٢].

رأى أحد العلماء رجلاً يتردد على أحد الملوك فقال له: يا هذا تذهب إلى من يسد دونك بابه، ويظهر لك فقره، ويخفي عنك غناه، وتترك من يفتح لك بابه، ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

والدعاءُ يقطع بقبوله مع توفر شروطه، وانتفاء الموانع.

---

(١) رواه أحمد (١٠٧٤٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٤).

★ آداب الدعـاء:

١ - تجنب الحرام مأكلاً ومشـربًا وملبسًا لقول النبي ﷺ: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** (سورة المؤمنون: ٥١). **وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** (سورة البقرة: ١٧٢)، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»**[(١)].

٢ - أن يجزم بالدعاء، ويوقـن بالإجابة لقوله ﷺ: **«لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره»**[(٢)].

٣ - التوسل إلى الله بالعمل الصالح الذي يُتوسم فيه الإخلاص، لحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، كما في الصحيحين وغيرهما.

٤ - أن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثًا، وذلك لحديث ابن مسعود رضي الله عنه: **«كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا»**[(٣)].

٥ - أن يدعوا مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه، ولا يدعـوا بإثم ولا بقطيعة رحم، ويكون على طهـارة تامة، ولا يـتكلف السجع، ويدعـوا بالمأثور، فـهو الأفـضل أو بمعناه، ويتـذلل في دعائه للحـديث: **«إن الله حَيِيٌّ كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفرًا خائبتين»**[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).
(٢) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩)، والترمذي (٣٤٩٧)، وأبو داود (١٤٨٣).
(٣) رواه مسلم (١٧٩٤).
(٤) رواه الترمذي (٣٥٥٦).

٦ - الثناء على الله تعالى، وأن يسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وقد اختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم على نحو أربعين قولاً، لكن أرجح ما ورد في تعيين الإسم الأعظم أحاديث منها:

★ **«اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»**[(١)] وقال: صحيح على شرطهما من حديث عبد الله بن بريدة عن ابنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك.... فقال: **«لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعى به أجاب»**[(٢)].

★ **«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»**[(٣)] الحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان، وصححه، ولفظ ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: **اللهم إني أسألك بأن لك الحمد...»، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»**

★ **«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»**

٧ - أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، ووقت الحر، وجوف الليل، وثلث الليل الآخر لقول النبي ﷺ: **«ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبي داود (١٤٩٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٧)، والترمذي (٣٤٧٥).

(٣) رواه النسائي (١٣٠٠)، وأبي داود (١٤٩٥)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

(٤) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، والترمذي (٤٤٦)، وأبي داود (١٣١٥)، وابن ماجه (١٣٦٦).

وأن يغتنم كـذلك الأحوال الشـريفة عند زحف الصـفوف في سبـيل الله، وعند نزول المطر، وكذلك حال السـجود للحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»(١).

٨ - أن يفتتح الدعاء بالحمـد والثناء على الله، ثم يصلي على نبيه ﷺ، ويختم بالصلاة والحمـد لله كذلك، ولا يعجل، ولا يقول: دعوت ولم يسـتجب لي، لقول النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»(٢).

٩ - أن يعظم الرغبة فـي ربه عزَّ وجلَّ، لقوله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء»(٣) رواه مسلم، وعليه أن يصلح باطنه بالإسـتجابة لأمر الله، والإقبال عليه سبحانه بكل طاعة يحـبها، والبعد عما تسخطه، ويتوب إلى الله توبة نصوحًا.

١٠ - يخفض صـوته لحديث: «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا»(٤)، ويعترف بذنبـه للحديث: «ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جـميعهـا»(٥)، ويحرص على التـلبس بالعمل الصالح بـين يدي دعاءه كالصـدقة الصلاة، لقول النبي ﷺ: «من كانت له حاجة إلى الله عزَّ وجلَّ أو إلى أحد من بني آدم، فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله تعالى بما هو أهله، ويصلي على النبي ﷺ»

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبي داود (٨٧٥)، وأحمد (٩١٦٥).

(٢) البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبي داود (١٤٨٤)، وابن ماجه (٣٨٥٣)، ومالك (٤٩٥)، وأحمد (٨٩٠٣).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٩).

(٤) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (١٩٠٢٦).

(٥) رواه مسلم (٧٧١)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأبي داود (٧٦٠)، وأحـمد (٧٣١)، والدارمي (١٢٣٨).

١١ - يبدأ بنفسه، للحديث: «**إذا ذكر أحداً، فدعا له بدأ بنفسه**»[١]، وقال: حسن صحيح غريب، ولا يخص نفسه إذا كان إمامًا لحديث: «**لا يؤم رجل قومًا، فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فقد خانهم**»[٢] ويُحضر قلبه، ولا يدعو بأمر قد فرغ منه، لقول النبي ﷺ: «**لن يعجل الله شيئًا قد أجله**».

١٢ - لا يدعو بمستحيل، لقوله تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (سورة الأعراف: ٥٥) ولا يتحجر واسعًا لقول النبي ﷺ: «**لقد تحجرت واسعًا**» لما سمع الأعرابي يقول: «**اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً**» وهو ثابت في الصحيح.

ويسأل حاجته كلها للحديث: «**ليسأل أحدكم حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع**»[٣].

١٣ - يؤمن الداعي والمستمع لما روي عن النبي ﷺ لمن سمعه يدعو: «**وجب إن ختمه بآمين**»[٤].

١٤ - لم يثبت خبر ولا أثر في مسح الوجه باليدين داخل الصلاة، أما خارجها فقد تنازع العلماء فيه، والأشبه بالصحة جواز ذلك لثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ، وقد وصفه الحافظ ابن حجر بأنه من جملة الحسن لغيره، وتابعه ابن عثيمين من المعاصرين.

★ دفع إيهام الاضطراب:

قوله تعالى: ﴿**فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ**﴾ (سورة الصافات: ١٤٥) هذه الآية الكريمة فيها التصريح بنبذ يونس بالعراء، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧)، وأحمد (٢١٩٠٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٩٧٣).

(٤) رواه أبو داود (٩٣٨).

وقد جاءت آية أخرى يتـوهم منها خلاف ذلك وهي قوله: ﴿لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ (سورة القلم:٤٩).

ودفع التوهم سهل يسـير بإذن الله، بأن يقال: لولا أن تداركه نعـمة من ربه لنبذ بالعراء في حال كونه مذمـومًا، لكنه تداركته نعمة ربه، فنبذ بالعراء غيـر مذموم كما أفاده الشنقيطي وغيره.

أيضًا قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (سورة القلم:٤٨).

قال ابن عـباس: نهاه أن يتـشبه بصـاحب الحوت، حـيث لم يصبر صـبر أولى العزم. فلا يتوهم أن الله نهى نبيه ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام في ندائه وقد أثنى الله سبحـانه عليه في هذا النداء، فأخبـر أنه نجاه به، فقال سـبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٨٧).

فلا يمكن أن ينهي عن التشـبه به في هذه الدعوة،وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحـوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، كما أفاده الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «التفسير القيم».

فمعنى ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (سورة القلم:٤٨): نهى أن يشبـه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت وإلجائه إلى النداء، وهو ضعف العزيمة وعدم الصبر لحكمه تعالى، أما نداء يونس عليه السلام فمحمود يتُـأسى به فيه، وقد أثنى الله على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف مـا بهم من ضر، فلم يتعلق النهى عن التشبيه به

فيما يثنى به عليه ويمدحه به، والشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجميل، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاؤه.

وقد ذم الله سبحانه من لم يتضرع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٤٢).

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٧٦). والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه.

□●★●□

الخاتمة

اعلم أن من كان داؤه المعصية، فشفاؤه الطاعة، ومن كان داؤه الغفلة، فشفاؤه اليقظة، ومن كان داؤه كثرة الأشغال، فشفاؤه في تفريغ الحال.

فاستعذ بالله من فضول الأعمال والهموم، فكل ما شغل العبد عن الرب فهو مشئوم، ومن فاته رضى مولاه فهو محروم، كل العافية في الذكر والطاعة، وكل البلاء في الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء في الإنابة والتوبة، وانظر كيف تُسلم بدنك للطبيب العالمي فلان حتى ولو كان نصرانيًا، وكذلك البلاد تسلم اقتصادها للخبير الإقتصادي حتى ولو كان ملحداً زنديقًا، والواحد من هؤلاء قد يصدق وقد يكذب، وقد يصيب وقد يخطئ، وقد ينصح وقد يغش، فما بالنا لا نُسلم أمرنا لخالقنا ورازقنا ومحيينا ومميتنا، وكيف لا نوقر مصدر الأمر، ونكون طوع إشارة ورهين أمر؟!!!

لقد ضرب لنا الأنبياء والمرسلون ومن تابعهم بإحسان أروع المثل في ذلك، فنبي الله نوح بني السفينة على اليابسة وهو يعلم أن الله مجريها ومرساها، ونبي الله إبراهيم ترك هاجر وولده الوحيد إسماعيل بأرض قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، نزولاً على أمر الله، وهو يعلم أن الله لا يضيع أهله وأولياءه، وأمر بذبح ابنه إسماعيل فاستسلما لأمر الله وقال له الإبن البار: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٠٢).

وأوحى الله إلى أم موسى فما تخلفت عما ألقى في روعها: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة القصص: ٧).

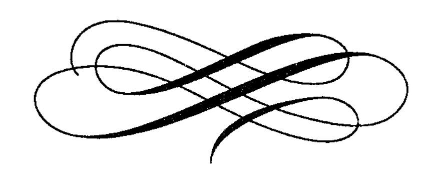
من الذي دعاه فلم يجبه، ومن الذي سأله فلم يعطه، ومن الذي أوقع حاجته به فلم ينله مطلوبه.

كان علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ يقول: اللهم إني أعوذ بك أن تُحسنَّ في لوامع العيون علنيتي، وتقبح في خفيَات الغيوب سريرتي. اللهم كما أسأت وأحسنت إليَّ، فإذا عدتُ فعدْ إليَّ.

اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت عليَّ من فضلك.

وقال يومًا لمن كان معه: إني اتكأت على هذا الحائط وأنا حزين، فإذا رجل حسنُ الوجه حسنُ الثياب ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا عليُ بن الحسين ما لي أراك كئيبًا حزينًا، على الدنيا فهي رزق حاضر يأخذ منه البر والفاجر، فقلت: ما عليها أحزن لأنها كما تقول. فقال: على الآخرة، فهي وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فقلت: ما على هذا أحزن لأنه كما تقول، فقال: فعلام حزنك، فقلت: ما أتخوف من الفتنة، يعني فتنة ابن الزبير. فقال لي: يا علي هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا. قال: ويخاف الله فلم يكفه؟ قلت: لا. ثم غاب عني.

اللهم إنا نسألك نفسًا مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، اللهم إنا نسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك الذي إذا دُعيت به أجبتَ، وإذا سئُلت به أعطيت، وإذا استُرحِمت به رَحمِت، وإذا استفرجتَ به فرجت، أن تغفر سيئاتنا، وتبدلها لنا بحسنات يا أرحم الراحمين.




قصص الأنبياء عظات وعبر
قصة
يوسف عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كلما قويت حاجة الناس إلى الشئ ومعرفته يسر الله أسبابه كما ييسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد.

فلما كانت حاجتهم إلى النَّفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر لذلك فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها.

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوتهم وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (سورة النور: ٤٠).

فما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك، وعن ذكر من أمرك بذكره، إن الله عزَّ وجلَّ وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المطيعين به، فأنزلها المؤمن منزلتها، فإن هي أقبلت عليه قال لا مرحبًا ولا أهلاً، والله ما أراك جئت بخير وما فيك من خير إلا أن تُطلب بك الجنة، ويفُتدي بك من النار، فإن هي أدبرت قال: عليك العفاء، وعلى من يتبعك، الحمد لله الذي خار لي وصرف عني فتنتك وشغلك.

فما أعظم البصيرة في دين الله، بحيث يدرك الإنسان طبيعة هذه الدار، وطبيعة أهلها، وحقيقة مكثه وإقامته، والغرض من خلقه وإيجاده فيها، والسبيل والطريق الذي يجب عليه أن يسلكه حتى يلقى ربه، وتنتهي فترة إختباره في هذه الدار بسلام، فأن يُلهم العبد رشده في ذلك كله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن رحمته سبحانه أن اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وجعل الأنبياء والمرسلين أسوة البشر وقادة الخلق وأشد الناس بلاءً وأعظمهم بصيرة في دين الله، قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة يوسف:١٠٨).

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في خواتيم سورة يوسف وارتبطت بالآيات قبلها وبعدها، كما ارتبطت بموضوع السورة كله، وفيها بيان هذا السبيل المستقيم وهذا الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا شك ولا شبهة، يسير فيه الموفقون المسددون، يقتفون آثار نبيهم ﷺ ، وينزهون الله سبحانه عما لا يليق بألوهيته، ولا يتلبسون

بدنس المشركين، فهم على هدى من الله ونور يعرفون طريقهم جيداً، لا ينبهرون بكثرة زائفة، ولا يتابعون أغلبية منحرفة، لما عندهم من بصيرة العلم النافع والعمل الصالح ولذلك ورد قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف:١٠٣)، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (سورة يوسف:١٠٦) فاعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فوطن نفسك على العزم وكن على بصيرة، حتى وإن كثر الشر والفساد من حولك، واعلم أن الجنة سلعة غالية وقد حفُت بالمكاره، وما أكثر العوائق والمحن التي ستعترضك، وأنت في طريقك إلى الله فاستلهم العظات والعبر مما حدث مع الأنبياء والمرسلين.

وقد قص علينا سبحانه في سورة يوسف، الكثير من المحن التي تعرّض لها نبي الله يوسف عليه السلام: محنة كيد الإخوة، ومحنة الجب والخوف والترويع فيه، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، ومحنة السجن بعد رغد العيش في قصر العزيز ثم محنة الرخاء والسلطان. . . . هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف عليه السلام وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها، وخرج منها كلها متجرداً خالصاً منيباً متضرعاً إلى ربه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف:١٠١)، فالبصيرة بطبيعة الطريق مطلوبة، فهذه الدار بالبلاء محفوفة، وأهلها ينتقلون من ابتلاء إلى آخر فمن الذي سيثبت ويقيم واجب العبودية، في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه؟ ومن الذي سينقلب على عقبه القهقري؟

تلك سنة الله في الدعوات، لابد من الشدائد، ولابد من الكروب، حتى تُعتصر النفوس وتتعلق القلوب بخالقها، فلا التفات لقوى الأرض، إذ هي عاجزة، والأمر

كله بيد الله هو سبحانه الذي يجيب المضطر ويكشف الضر، ويجعل من بعد عسر يسراً، ومن كل بلاء عافية.

ولذلك تختتم السورة بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة يوسف: ١١٠-١١١).

أي أنها منحة في صورة المحنة، ومن تدبر قصة نبي الله يوسف، وجد فيها من الآيات البينات، ما صلح أن يكون تسلية وتثبيتًا لرسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وهم يواجهون الشدائد والمحن في مكة بل والمدينة، وفيها أيضًا ما يصلح أن يكون عظة وعبرة لنا ولغيرنا، فتدبرها ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة يوسف:١٠٨) وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا أخرانا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

★ ملامح عامة لسورة يوسف:

١ ـ سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، قال ابن عباس وقتداة: إلا أربع آيات منها.

وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق والمقصود بها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

٢ ـ نزلت سورة يوسف على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سورة «هود» في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وكانت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها قد توفيت، وكذلك عمه أبو طالب، الذي كان يستدفع عنه كثيراً من الأذى على الرغم من كفره، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن».

٣ ـ في تلك الفترة العصيبة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وفي أجواء الوحشة والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، تتنزل هذه السورة تسلية وتخفيفًا بذكر قصص المرسلين، وما تعرضوا له، وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين، فيها عبرة لمن يعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، وفيها أيضًا ألوان من الشدائد في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن، وألوان الاستيئاس من نصرة الناس ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا ـ كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب.

٤ ـ جو السورة يحمل الأنس والرحمة والرأفة والحنان ويبعث على الطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلابد من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر ولهذا قال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها» وقال خالد بن مَعْدان: «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة».

٥ ـ سورة يوسف يتوافق فيها المطلع والختام، كما توافق المطلع والختام في القصة وتجئ التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها، وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، فهي رؤيا تتحق رويدًا رويدًا، ويومًا بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة، فلا تتم وتكتمل العبرة بها إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها، بعكس غيرها من قصص المرسلين فقد أفردت حلقات قصة نبي الله نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وصالح وهود.... في مواضع كثيرة من سور القرآن الكريم، وكل حلقة تفي بالغرض منها كاملاً في موضعها أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها.

٦ ـ قال القرطبي: قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وقررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل.

٧ ـ بدأت السورة بالأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيًا، والسورة يبدو عليها الطابع المكي واضحًا في موضوعها وفي جوها، وقد عرضت شخصية يوسف عليه السلام وهي الشخصية الرئيسية في القصة عرضًا كاملاً في كل مجالات حياتها، كما تعرضت للابتلاءات المتنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها... ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالإنفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيًا متجردًا في وقفته الأخيرة، متجهًا إلى ربه داعيًا منيبًا.

٨ ـ أخرج يوسف عليه السلام من حضن أبيه على غير جريرة ارتكبها، ليواجه هذه الابتلاءات كلها ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين، وكذلك فإن قريشًا تُخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وما نقموا منه إلا أن يقول ربي الله فيتوجه إلى المدينة وفيها يكون النصر والتمكين، وكما التقى يوسف بأبيه بعد طول غياب فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدخل مكة مرة ثانية: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (سورة القصص: ٨٥). فلابد من صبر جميل ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥). ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (سورة النحل: ١٢٧). والنصر عقبى الصابرين.

★ سبب النزول:

روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتلوه على قومه، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم، فقالوا: لو حدثتنا فنزل ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ﴾ (سورة الزمر: ٢٣). فقالوا: لو ذكرتنا فنزل: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الحديد: ١٦).

وقال النحاس: يروى أن اليهود قالوا: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن خبر يوسف، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذا بمكة موافقًا لما في التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم، فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابًا ولا هو في موضع كتاب بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت.

★ تسميتها بأحسن القصص:

قصة يوسف عليه السلام سلوى للقلب وبلسم للجروح، وقد ذُكرت حلقاتها في سورة يوسف متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن في المجمل والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك

العلي الوهاب وقد وصفت هذه القصة بالحسن قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾(سورة يوسف: ٣).

وقد يكون الحسن عائداً إلى حسن البيان فألفاظ القصة فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة، أو هي أحسن القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدر الله تعالى، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه، وفيها دلالة على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان، وأن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده وكذلك في حق يوسف عليه السلام .

قال القرطبي: «واختلف العلماء لِمَ سُميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله في آخرها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾(سورة يوسف: ١١١).

وقيل: سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوانه، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾(سورة يوسف: ٩٢).

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيا ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما.

وقيـل: أحسن هنا بمعنى أعـجب، وقال بعض أهل المعـاني: إنما كانت أحـسن القصص لأن كـل من ذُكِرَ فيـها كـان مآله السعـادة انظر إلى يوسف وأبيـه وإخوته، وامرأة العزيز، قـيل: وللملك أيضًا أسلم بيوسف وحسـن إسلامه، ومستـعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير». أهـ.

* **الأحرف المقطعة ودلالتها:**

بدأت سورة يوسف بالأحـرف الثلاثة (الر)، وقد اختلف المفـسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور:

فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم: من فسـرها واختلف هؤلاء في مـعناها، فقـال عبد الرحـمن بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء السور، وعليه إطباق الأكـثر، فعن مجاهد أنه قال: الم، وحم، والمص، وص، فواتح افتتح الله بها القرآن.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى، فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله.

قال ابن كثـير: مجمـوع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكـرر منها أربعة عشـر حرفًا... يجمـعها قـولك: نص حكيم قاطع له سر، وهي نصف الحـروف عددًا والمذكور منهـا أشرف من المتروك وبيـان ذلك من صناعة التـصريف... لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى، ومن قال من الجهلة أن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرًا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صح لنا فيهـا عن المعصوم شئ قلنا به وإلا وقفنا حـيث وقفنا وقلنا: ﴿آمَنَّا به كُلٌّ مِّنْ عند رَبِّنَا﴾ (سورة آل عمران:٧). ولم يُجمع العلمـاء فيها على شـئ معين، وإنما اختلفوا فـمن ظَهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين. اهـ.

أما الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، فقد حكى ابن جرير عن بعضهم أنها ذُكـرت ليُعرف بها أوائل السور، وقال آخرون: بل ابتـدى بها لتفتح

لاستماعـها أسماع المشركين، وكلاهمـا ضعفه ابن كثير قـال: وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره.

ولعل الأشبه بالصحة أن هذه الحروف إنما ذُكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعـجاز القرآن، وأن الخلق عاجـزون عن معارضتـه بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقدحكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبـرد وجمع من المحـققين، وحكى القـرطبي عن الفـراء وقطرب نحو هذا، وقـرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصـر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وأبو الحجاج المزي.

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مـجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كـثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن، قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله: (ص ن ق) وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (الم) وأربعة مـثل (المر والمص) وخمـسة مـثل (كهـعيص وحم عسـق) لأن أساليب كلامـهم على هذا من الكلمات مـا هو على حرف وعلى حـرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك.

قال ابن كثـير: ولهذا كل سورة افتتـحت بالحروف فلابد أن يذكر فيهـا الإنتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا مـعلوم بالإستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالىّ: ﴿ الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (سورة البقرة: ٢)، ﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (سورة آل عمران: ٣)، ﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٢)، ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ (سورة إبراهيم: ١)، ﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة السجدة: ٢)، ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (سورة فصلت:١)، ﴿حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الشورى:٣).

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم.

★ قرآنا عربيًا للعالمين يحرم ترجمته ويجب تعلم لغته:

يقول تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف:٢) إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، وقد أنزله سبحانه بلغة العرب، كتابًا عربيًا من هذه الأحرف العربية، لكي تعقلوا وتدركوا أن هذا الكلام المعجز ليس من صنع البشر وإنما هو كلام رب العالمين، ووحيه المنزل على رسوله الأمين، وقد تحدى به سبحانه الإنس والجن على مر العصور وكر الدهور، أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، فما استطاعوا مواجهة التحدي.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة:٢٤) فالقرآن هو أعظم معجزات رسول الله ﷺ وقد تعدت رسالته الإنس إلى الجن، والعرب إلى العجم وإن كان قومه عربًا وهو ﷺ نبي عربي والقرآن نزل بلسان عربي مبين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (سورة الأعراف:١٥٨).

﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (سورة الأنعام:١٩)، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف:٢٩).

ومن المعلوم أن العرب هم أفضل الأجناس، واللغة العربية هي أشرف اللغات، ولا يجوز قراءة القرآن بغير العربية، سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور، وقال

غير واحد: إنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز، وقد كره كثير من الفقهاء في الأدعية التي في الصلاة والذكر، أن يُدعي الله أو يُذكر بغير العربية، فاللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون.

وأما الخطاب بغير العربية من غير حاجة في أسماء الناس والشهور، كالتواريخ ونحو ذلك فهو منهى عنه مع الجهل بالمعنى بلا ريب، كما ذكر ابن تيمية، وأما مع العلم به فكلام أحمد بيّن في كراهته أيضًا، فإنه كره آذرماه ونحوه ومعناه: ليس محرمًا، وقد استدل بنهي عمر عن رطانة الأعاجم، وعن عطاء قال: لا تعلموا رطانة الأعاجم ولا تدخلوا عليهم كنائسهم، فإن السخط ينزل عليهم، وقال عمر: ما تعلم رجل الفارسية إلا خبَّ ولا خبَ (خدع) إلا نقصت مروءته.

وقد ورد أن التكلم بغير العربية لغير ضرورة يورث النفاق، وذكر ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم، أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين، تأثيرًا قويًا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق قال: وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وذكر أن اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه، فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه.

★ *معجزة الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة بما يطابق الحق:*

يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة يوسف:٣) أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام وأحسن بيان، وقد كنت من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن

الغافلين عن هذه القصة، لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك، لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت:٤٨) وقد أخبر النبي ﷺ بغيوب كثيرة ماضية ومستقبلة، فحدثت ووقعت وفق خبر الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه - ولم يدع معرفة الغيب، ولا نسب هذه الأخبار لنفسه ﷺ.

■ ومن جملة ذلك: ما تعنتت به قريش - في أول البعثة - وأرسلت إلى يهود المدينة يسألونهم عن أشياء يسألون عنها رسول الله ﷺ، فقالوا: سلوه عن الروح، وعن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يُدرى ما صنعوا، وعن رجل طواف في الأرض بلغ المشارق والمغارب، فلما رجعوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (سورة الإسراء:٨٥) وأنزل سورة الكهف، وفيها إجابة ما سألوا عنه، وكذلك لما سأله اليهود عن يعقوب وبنيه وما كان من شأن نبي الله يوسف، نزلت سورة يوسف... وغير ذلك كثير، وهذا الإخبار هو الواقع في الواقع، وإنما يوافقه من الكتب التي بأيدي أهل الكتاب، ما كان منها حقًا، وأما ما كان محرفًا مبدلاً فذاك مردود، فإن الله بعث محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما اختلفوا فيه من الأخبار والأحكام، قال تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (سورة المائدة:٤٨).

■ ومن جملة الأخبار المستقبلة، الإخبار عن ظهور الدين، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (سورة التوبة:٣٣) وهكذا وقع وعم هذا الدين وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، وثبت في الصحيح «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» . «والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[1] .

---

(١) البخاري (٣١٢٠) فرض الخمس، مسلم (٢٩١٨) في الفتن، والترمذي (٢٢١٦) في الفتن، وأحمد (٧١٤٤).

وقد كان ذلك في زمن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وأرضاهم.

■ ومن ذلك: قصة الصحيفة التي تعاقدت فيها بطون قريش.

■ ومن ذلك: إخباره عن فتح مدائن كسرى وقصور الشام وغيرها من البلاد يوم حفر الخندق.

■ ومن ذلك: أخبار الفتن وأمارات الساعة التي حدثت كما أخبر.

ومنها: البشارة لعبد الله بن سلام أنه يموت على الإسلام وقد مات ﷺ على أكمل أحواله وأجملها.

■ والإخبار عن العشرة بأنهم من أهل الجنة وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، ولم ينقل أن أحدًا من هؤلاء ﷺ عاش إلا حميدًا، ولا مات إلا على السداد والاستقامة والتوفيق. وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها.

★ قص الله ورسوله علينا فكيف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!:

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص، كقصص الأنبياء والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن هذا القصص ما يتعلق بالحوادث الغابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم كقصة طالوت وجالوت وأهل الكهف وقارون وذي القرنين وأصحاب الأخدود، ثم القصص الذي يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران وغزوة حنين وتبوك في التوبة، والهجرة والإسراء وهذا القصص فيه إيضاح أسس الدعوة إلى الله وتثبيت قلب رسول الله ﷺ والمؤمنين على دين الله وتقوية الثقة بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله.
﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة هود: ١٢٠).

كما أن فيه تصديق الأنبياء السابقين وإظهار صدق رسول الله ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال، هذا بالإضافة إلى مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة آل عمران:٩٣).

والقصة لا تقتصر على القرآن، فقد قص النبي ﷺ على أمته الكثير من القصص، كقصة الأقرع والأبرص والأعمى، وقصة الساحر والملك والغلام.... والقصة في القرآن والسنة حقيقة لا خيال، ومن شأنها أن ترسخ المعاني الإيمانية في النفوس، مما لا نحتاج معه للقصص الخيالي المكذوب، فضلاً عن الحكايات المبتذلة التي تورث الشعوذة والخرافات وتحرف الطباع عن استقامتها.

وتعتبر القصة من أفضل وسائل الدعوة إلى الله، حيث تنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكد، ويرتاد العقل عناصرنا فيجني من حقولها الأزاهير والثمار، وهذا مشاهد بالنسبة للكبير والصغير والرجل والمرأة، بعكس الدروس التلقينية والإلقائية، التي تخلو من القصة، فإن عناصرها تُستوعب بصعوبة وشدة وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا وأكثر فائدة.

وليست القصة حكاية عاطفية خالية من الأهداف، لقطع الوقت، فما من قصة في الكتاب والسنة إلا وفيها فوائد تتعلق بالتوحيد والفقه والتفسير واللغة والتاريخ... ويبقى أن ننظر في كل قصة، نظر إعتبار وتدبر وتأمل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف:١١١).

وقد قص الله ورسوله علينا أحسن القصص فينبغي علينا أن نتابع كتاب ربنا ونُحسن التأسي بنبينا ﷺ، فنقص على أنفسنا وعلى الدنيا من حولنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٢١) فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (سورة يوسف: ٤). يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه...

★فضائل يوسف عليه السلام:

عن أبي هريرة قال: **قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهُوا»**[1].

قال النووي في شرحه: «هكذا وقع في مسلم نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، وفي روايات للبخاري كذلك وفي بعضها نبي الله بن نبي الله بن خليل الله، وهذه الرواية هي الأصل وأما الأولى فمختصرة منها فإنه يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فنسبه في الأولى إلى جده، ويقال: يوسف بضم السين وكسرها وفتحها مع الهمز وتركه فهي ستة أوجه، قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وكونه نبيًا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله صلى الله عليه وسلم، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين والله أعلم.

قال العلماء: لما سئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم أخبر بأكمل الكرم وأعمه فقال: «أتقاهم لله»، وقد ذكرنا أن أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متقيًا كان كثير الخير

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٣) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) في الفضائل وأحمد (٩٢٨٤).

وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العلى في الآخرة، فلما قالوا: «ليس عن هذا نسألك، قال: يوسف» الذي جمع خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما، فلما قالوا: «ليس عن هذا نسأل»، فهم عنهم أن مرادهم قبائل العرب، قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، ومعناه أن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

قال القاضي: وقد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه ومجمله ومبانه إنما هو الدين من التقوى والنبوة والأعراق فيها والإسلام مع الفقه. . . اهـ.

★ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم:

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم»[1].

نبي الله يوسف عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ومن سلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بنى إسرائيل، وقد وصفه الله تعالى بالصديقية، ولهذا يسمى (يوسف الصديق)، وقد ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه سبحانه لعفته ونزاهته وصبره واستقامته، وأبوه يعقوب عليه السلام هو أبو الأسباط الإثنى عشر، وإليه ينسب شعب بني إسرائيل، ويسمى يعقوب (إسرائيل) قال تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ (سورة آل عمران:٩٣) وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سماه (إسرائيل) ومعناه في العبرية (روح الله) ويعقوب هو ابن اسحاق ـ عليهما السلام ـ وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٠) في أحاديث الأنبياء، وأحمد (٥٦٧٩).

مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (سورة الصافات:١١٣) فهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن، ومن نسله جاء أنبياء بني إسرائيل.

وأمه هي سارة، وقد ولُد له (العيص) ويسميه أهل الكتاب (عيسو) والثاني يعقوب عليه السلام وإليه ينتسب اليهود من بني إسرائيل، وقد دفُن إسحاق ويعقوب في الخليل، في المغارة التي دفن فيها إبراهيم عليه السلام - وينتهي نسب يوسف إلى إبراهيم - عليهما السلام، فمن إبراهيم تتفرع شجرة النبوة، حيث جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل - (ابن إبراهيم الأكبر) - وجاء أنبياء بني إسرائيل من نسل إسحاق (الابن الأصغر لإبراهيم عليه السلام)، وقد خص الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أبًا للأنبياء، وإمامًا للأتقياء، وقدوة للمسلمين، واختاره من بين الرسل والأنبياء بالخُلة والاصطفاء، فهو خليل الرحمن، كان مثالاً للعبودية والطاعة والإذعان لأوامر الله، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء، بل جعله أمة بمفرده قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة النحل: ١٢٠).

وقد ورد عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكني (أبا الضيفان) وذلك لكثرة ضيوفه، فقد كان إبراهيم عليه السلام كريمًا مضيافًا، لا ينزل به أحد إلا أحسن ضيافته وأكرم نزُله، يبحث دائمًا عمن يأكل معه وكان سخى النفس يذبح لضيوفه الشاه والنعم.

وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع ضيوفه (الملائكة) حين جاءوا لإهلاك قوم (لوط)، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ (سورة الذاريات:٢٤) فهذه الآيات تدل على كرم إبراهيم الخليل، ومنه تتُعلم آداب الضيافة، ولقد اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة من إسماعيل بن إبراهيم الذي عُرف بالجود كما نشأ يوسف عليه السلام كريمًا، فهو الكريم ابن الكريم (يعقوب) ابن الكريم (إسحاق) ابن الكريم (إبراهيم) ذرية بعضها من بعض، ومن يشابه أباه فما ظلم.

★ **يوسف عليه السلام أكرم الناس:**

هكذا جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وذلك عندما وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أكرم الناس.

والكرم أصل المحاسن كلها كما قال بعض الحكماء، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه، والجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد، وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر، وبقى هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار، وأنفع الجود بذل المال وصرفه في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ (سورة آل عمران: ٩٢).

وقد ورد عن حذيفة العدوى أنه قال: انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لي في القتلى، ومعي شئ من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فسمع برجل يقول: آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن أنطلق إليه أسقيه، فإذا هو هشام بن العاص. قلت أسقيك، فأشار إليَّ أن نعم، فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه. فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها، فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالي لولا أم لي، وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجلد، وليس لي أم فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك، ففعل، فقُتل ذلك الفتى وتخلص هذا

الرجل. وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك. قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنا نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده أيامًا، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا، ثم أنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

قال أكثم بن صيغي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ، وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، فقلب اللفظ، واستوفى المعنى.

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحدًا عن حاجة، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه، أو لئيمًا أصون عنه عرضي. وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله ﷺ، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا حائطي بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إليَّ بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط (البستان).

وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيط إزاره بيده.

وذكر أبو عليّ القالي في كتاب «الأمالى»، أن رجلاً جاء إلى معاوية ﷺ، فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك، قال: رحم آدم عليه السلام، قال: رحم مجفوّة والله لأكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: من كانت له إليّ حاجة فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة.

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوبًا إليه وطالب كان مطلوبًا ما لديه وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة ۞ عليك إذا ما جاء للخير
طالب ولاتمنعن ذا حاجة جاء راغبًا ۞ فإنك لا تدري متى أنت راغب

وقال يحيى البرمكي: أعط الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئًا، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا.

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله . . .

غار قوم على طئ فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى في جيشه، وأهل عشيرته، ولقى القوم فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول: هب لي، ولما مات عظم على طئ موته فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر فأنى لك ذلك.

يروى أن عبد الله بن جعفر كان جواد كريمًا، أتاه سائل يومًا وقال: ابن سبيل، فنزل عبد الله عن راحلته ودفع له حقيبة فيها من مطارف الخز وأربعة آلاف درهم، وأعطاه سيفه وقال له: هذا سيف عليّ إياك أن تُغلب عليه، فأتاه الحسن والحسين، وكان عبد الله زوجًا لزينب بنت عليّ يقولان: له أنفق ولا تسرف، فقال لهما: بأبي وأمي أنتما، إن الله عودني أن يتصدق عليّ وعودته أن أتصدق على عباده، وأخاف أن أقطع النفقة فيقطع عني.

والحكايات في ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء، وأهل العروف، أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون، ولمثلها فليعمل العاملون، فرن فيها عز الدنيا وشرف الاخرة، وخلود جميل الذكر، فقدم لنفسك كما قدموا، تُذكر بالصالحات كما ذكروا، وادخر لنفسك كما ادخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو فاختر لنفسك أي الثلاث شئت.

★ أكرمهم أتقاهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات:١٣)، وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ، دون الحسب والنسب.

وفي الترمذي عن سمره عن النبي ﷺ قال: **«الحسب المال والكرم التقوى»**[1].

وفي الحديث: **«من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»** والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والإتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه.

وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نسبًا وجعلتم نسبًا، فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون»**.

وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد فأقول هكذا وهكذا»**، وأعرض في كل عطفيه. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سرٍّ يقول: **«إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليٍّ الله وصالح المؤمنين»**[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٧١) في تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٢١٩) في الزهد، وأحمد (١٩٥٩٦).
(٢) رواه مسلم (٢١٥) في «الإيمان»، وأحمد (١٧٣٤٨).

وقال النبي ﷺ : «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي» ، ولذلك كان أكرم البشر على الله تعالى.

وهذا الذي لحظ مالك وغيره في الكفاءة في النكاح.

روى سهل بن سعد: **أن النبي ﷺ مر عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» ، فقالوا: حريٌ إن خَطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُسمع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا» ، قالوا: حرى إن خَطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يُسمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»** (١).

قال القُشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الإتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح.

والتقي المؤمن أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدم النسيب منهما، كما يقدم الشيخ على الشاب في الصلاة إذا استويا في التقوى. اهـ.

وقد اجتمعت الكمالات لنبي الله يوسف عليه السلام النبوة والملك والحسب والنسب فهو من أتقى الخلق لله تعالى، وأكرم الناس كما قال رسول الله ﷺ .

★ *الرؤيا حالة شريفة:*

تبدأ السورة بهذه الرؤيا التي رآها نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ (سورة يوسف: ٤).

ويأتي تعبيرها مرحلة بعد مرحلة وخطوة بعد أخرى، حتى يكتمل المشهد قرب نهاية السورة: ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ (سورة يوسف: ١٠٠).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩١) في النكاح، وابن ماجه (٤١٢١) في الزهد.

وبين البداية والنهاية تدور أحداث القصة بما فيها من عظات وعبر والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟، قال: «الرؤيا الصالحة»[1].

وفي الحديث: «لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له»[2].

وقال: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا»[3] وحكم ﷺ أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وروى: «من سبعين جزءاً»، وروى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جزء من أربعين جزءاً من النبوة»، ومن حديث ابن عمر: «جزء من تسعة وأربعين جزءاً»، ومن حديث العباس: «جزء من خمسين جزءاً من النبوة»، ومن حديث أنس: «من سته وعشرين»، وعن عبادة بن الصامت: «من أربعة وأربعين من النبوة»، وقد أخرج مسلم في صحيحه حديث الستة والأربعين وحديث السبعين.

قال المازري: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين».

قال الطبري: والصواب أن يقال: إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله: «إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة»، فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان، وأما قوله: «إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين»، فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق رضي الله عنه أنه كان بها.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠) في «التعبير».

(٢) موطأ مالك (١٧٨٣) في «الجامع».

(٣) رواه مسلم (٢٢٦٣) في «الرؤيا».

فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات (شدة البرد)، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة ـ إن شاء الله ـ جزء من أربعين جزءًا من النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزءين ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن السبعين، وتزيد على الأربعين.

وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف تضاد وتدافع ـ والله أعلم ـ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين.

فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء يتفاضلون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (سورة الإسراء:٥٥).

وقد علل البعض كون الرؤيا الصادقة جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة قالوا: إن النبي ﷺ كان في بداية أمره لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح واستمر على ذلك ستة أشهر، فلو قسنا هذه المدة بالمقارنة بمدة الوحي ٢٣ سنة لوجدناها ١ : ٤٦.

وأُعترض على هذا التعليل بأن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى بالإضافة إلى ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدة الوحي كانت عشرين سنة، والله أعلم.

★ لماذا كانت الرؤيا الصادقة جزءًا من النبوة؟:

الرؤيا فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب، كما قال ﷺ: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة»[1].

---

(١) رواه مسلم (٤٧٩) في «الصلاة»، والنسائي (١٠٤٥) في «التطبيق»، وأبي داود (٨٧٦) في «الصلاة»، وابن ماجه (٢٨٩٩) في «تعبير الرؤيا».

وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة، قال ﷺ: **«الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان»**[(١)] وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه.

وفي الحديث: **«إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن»**[(٢)] ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

★ رؤيا الكافر والفاسق قد تصدق أحيانًا:

وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة، كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ورؤيا بُختنصَّر التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام عاتكة عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة.

وقد ترجم البخاري (باب رؤيا أهل السجن)، وقد ذكرنا أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، فكيف وقعت هذه المنامات الصادقة للكافرين والفاجرين؟

والجواب على ذلك: أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة، إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة، فالكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء.

قال المهلَّب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءًا من النبوة.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٧) في «الطب»، ومسلم (٢٢٦) «الرؤيا»، والترمذي (٢٢٧٧) في «الرؤيا»، وأبي داود (٥٠٢١) في «الأدب».

(٢) رواه البخاري (٧٠١٧) في «التعبير»، ومسلم (٢٢٦٣) في «الرؤيا»، والترمذي (٢٢٧٠) في «الرؤيا»، وابن ماجه (٣٩١٧) في «تعبير الرؤيا».

★ أقسام الرؤيا:

ورد في الحديث أن الرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله تعالى، والرؤيا من تخويف الشيطان، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه، وروى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**الرؤيا ثلاثة: منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**» قال: قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته من رسول الله ﷺ[1].

والرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام وكان تأويلها موافقًا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سُميت ضغثًا، لأن فيها أشياء متضادة، قال معناه المهلب.

والرؤيا التي هي مما يحدث المرء نفسه، كأن ينشغل أثناء نهاره في تعلم قيادة السيارات فينام، فيرى نفسه بارعًا في ذلك، أو يكون كثير التفكير في موت أبيه بسبب مرضه فينام فيرى أباه قد مات.

★ الرؤيا ليست من أدلة استنباط الأحكام:

رؤيا الأنبياء حق ووحي، كما وردت الأخبار ولذلك لما قال نبي الله إبراهيم لابنه: ﴿**إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾ (سورة الصافات: ١٠٢) تطييبًا لنفسه، ما كان من إسماعيل إلا الاستجابة والبر بأبيه فقال: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ (سورة الصافات: ١٠٢).

وكان النبي ﷺ لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح، أما بالنسبة لغير الأنبياء فالرؤيا ثلاثة، وقد تكون حُلمًا أو رؤيا تحزين من الشيطان، أو رؤيا مما يحدث المرء نفسه، فكيف يُعمل بها؟! وكيف تصبح دليلاً من أدلة استنباط الأحكام؟!

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٠٧) في تعبير الرؤيا.

ولذلك وجب عرض الرؤى على الضوابط الشرعية، فمن رأى أنه يقتل أو يزني. . . لا يجوز له مواقعة ذلك، ومن رأى غيره في المنام يفعل مثل هذه الأشياء لا يجوز له إتهامه بها، فلابد من إعمال الضوابط الشرعية.

وقد اتفق العلماء على أن من رأى النبي ﷺ في منامه، فقال له: هذا اليوم هو أول يوم من رمضان، أنه لا يعمل بهذه الرؤيا المنامية، إذ مدار ثبوت الأمر على الرؤية بالعين البصرية.

وقد أخطأت الصوفية عندما اعتمدت المنامات والكشوفات والفتوحات في استنباط الأحكام، إذ الواجب الرد إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ولذلك وضع الإمام البخاري منهج الاستنباط عند أهل السنة في التبويبات الفقهية في صحيحه فبدأ بكتاب الوحي ثم كتاب الإيمان والعلم ليدلل على أن العلم والإيمان مردهما للوحي وبهذا المنهج افترق أهل السنة عن الصوفية والمعتزلة وغيرهم من الفرق.

★ حقيقة الرؤيا:

اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا فقيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم فيخلق الله تعالى للرائي علمًا ناشئًا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك.

قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصًا قائمًا قاعدًا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات.

وقيل: إن لله ملكًا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم فيمثل له صوراً محسوسة، فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة.

قال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم، إن الإنسان إذا نام عرج بروحه إلى السماء فما رأى قبل أن يصل إلى السماء فذلك حلم وما رأى بعد أن يصل إلى السماء فذلك الذي يكون.

وفي قول ابن سيرين بيان أن ليس كل ما يراه الإنسان يكون صحيحًا ويجوز تعبيره، إنما الصحيح منه ما كان من الله تعالى، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لا تأويل لها.

قال المازري: مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة. . . وقال البعض: أضاف الرؤيا المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف المكروهة وإن كانتا جميعًا من خلق الله تعالى وتدبيره وبإرادته ولا فعل للشيطان فيهما لكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ويسر بها، والله أعلم.

★ الرؤيا الصالحة مبشرة أو منذرة:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»**[1].

وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقًا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك.

ورد في صحيح مسلم وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت سوداء ثائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مهيعة (الجحفة، ميقات أهل الشام)، فأولتها الحُمى»**[2]، و: **«رأيت سيفي قد انقطع صدره وبقراً تنحر فأولتها رجل من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون»** و: **«رأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة»** و: **«رأيت في يدي سُوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدي»**.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠) في «التعبير».
(٢) رواه البخاري (٧٠٣٨) في «التعبير»، والترمذي (٢٢٩٠).

وقد رأى الشافعي وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك.

فالرؤيا الصالحة الواردة في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة يونس:٦٤) وفي حديث البخاري، يغلب عليها البشارة وقد تكون منذرة ومحذرة أحيانًا.

★ ***رؤيا الصغير:***

استنكر البعض أن تكون للصغير رؤيا، إذ لا حكم لفعله ومن المعلوم أن يوسف عليه السلام كان صغيرًا وقت رؤياه، وقد قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ (سورة يوسف:٥) وقد تحقق ما رآه يوسف عليه السلام بعد ذلك، فلا اعتراض.

والرؤيا إدراك حقيقة، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام، وقد روي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتى عشرة سنة.

★ ***لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها:***

ينبغي أن يكون المعبر ذا حذاقة وفطنة صدوقًا في كلامه حسنًا في أفعاله مشتهرًا بالديانة والصيانة، وأن يكون عارفًا بالأصول في علم التعبير، وأن يميز رؤية كل أحد بحسب حاله وما يليق به وما يناسبه، ولا يساوي الناس فيما يرونه، ويعتبر في تعبيره على ما يظهر له من آيات القرآن وتفسيره ومن حديث رسول الله ﷺ وما ينقله العلماء في كتبهم وقد يقع بوادر ويعتمد على تعبيرها من الألفاظ الجليلة الظاهرة بين الناس كبحر ليس له شاطىء.

★ ***لا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح:***

حكى نبي الله يوسف، ما رآه على أبيه يعقوب، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ (سورة يوسف:٥). وهذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها.

روى أبو رزين العُقيلي أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدِّث بها صاحبها فإذا حدَّث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محبًا أو ناصحًا»(١).

وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهًا فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يُتلاعب بالنبوة.

★ ماذا يفعل من رأى ما يحب وما يكره في نومه:

عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا فكَرِهَ منها شيئًا فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان لا تضره، ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليُبْشر ولا يخبر إلا من يحب»(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليصل ولا يحدث بها الناس، قال: وأحب القيد وأكره الغُلَّ والقيد ثبات في الدين». فلا أدري هو في الحديث أم قاله ابن سيرين. (رواه مسلم).

وروى البخاري عن أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما

---

(١) الترمذي (٢٢٧٨)، وأحمد (١٥٧٥٠).

(٢) البخاري (٦٩٩٥)، ومسلم (٢٢٦١) في الرؤيا.

يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره»[(١)] قال أبو قتادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليَّ من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئًا.

وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثًا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»[(٢)].

قال القرطبي: قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحول، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع، لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور، لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه، وإذا تمضمض تَفَلَ وبَصَقَ وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السحر من الليل.

★ التحذير من الكذب في الرؤيا:

لا ينبغي لأحد أن يكذب رؤياه، ويزعم أنه رأى غير ما رأى فإن الرؤيا وحي يوحيه الله له في المنام، وفي الحديث: «من تحلم بحلم لم يره كُلِفَ أن يعقد بين شعيرتين ولم يفعل»[(٣)].

ومعنى الحلِم هو معنى الرؤيا، لكن غلب استعمال الرؤيا في المحبوبة والحلم في المكروهة.

---

(١) البخاري (٧٠٤٤) في «التعبير»، ومسلم (٢٢٦١) في «الرؤيا»، وأحمد (٢٢٠١٩).

(٢) رواه أحمد (٢٢٦٢) في «الرؤيا»، وأبو داود (٥٠٢٢) في «الأدب»، وابن ماجه (٣٩٠٨) في «الرؤيا»، وأحمد (١٤٣٦٦).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٢) في «التعبير»، والترمذي (٢٢٨٣) في «الرؤيا».

★ **حكم من رأى النبي ﷺ في نومه:**

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»[1].

وروي عنه أيضًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي»[2]. وقال: فقال أبو سلمة: قال أبو قتادة: قال رسول الله ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق»[3].

وفي الحديث: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»[4].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من رآني في النوم فقد رآني إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي»، وقال: «إذا حلم أحدكم فلا يخبر أحداً بتلعُّب الشيطان به في المنام»[5].

قال ابن الباقلاني معناه أن رؤياه صحيحة ليست بأضغاث ولا من تشبهات الشيطان ويؤيد قوله رواية: «فقد رأى الحق»، أي الرؤية الصحيحة.

وقد اشترط البعض أن يرى الإنسان النبي ﷺ على صفته المعروفة له في حياته والتي وردت بها السنن، وأن لا تشتمل الرؤيا على مخالفة شرعية كدعوة لمواقعة الفاحشة مثلاً.

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: قال القاضي ويحتمل أن يكون قوله ﷺ: «فقد رآني أو فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي» المراد به إذا رآه على صفته

---

(١) رواه البخاري (١١٠) في «العلم»، ومسلم (٢٢٦٦) في «الرؤيا»، واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٠١) في «تعبير رؤيا».

(٢) رواه البخاري (٦٩٩٣) في «التعبير»، ومسلم (٢٢٦٦) في «الرؤيا».

(٣) رواه البخاري (٦٩٩٦) في «التعبير»، ومسلم (٢٢٦٧) في «الرؤيا».

(٤) رواه البخاري (١١٠) في «العلم».

(٥) رواه مسلم (٢٢٦٨) في «الرؤيا»، وأحمد (١٤٣٦٥).

المعروفـة له في حياته فإن رأى على خـلافها كـانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقـة، قال النووي: وهذا الذي قاله القاضي ضعيف بل الصحـيح أنه يراه حقيقة سواء كان على صفته المعروفة أو غيرها أهـ.

وقد اتفق العلماء على جـواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتهـا. وذكر البعض أن الشيطان يتمثل في الرؤيا بكل شيء إلا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، والله أعلم.

★ الحث على علم الرؤيا والسؤال عنها:

عن سمرة بن جندب قـال: كان النبي ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليـهم بوجهه فقال: **«هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا»**[1].

والبارحـة هي الليلة الماضـية، وفي هذا الحـديث استـحباب السـؤال عن الرؤيا والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أول النهار، قـبل أن يتشعب الذهن بأشغاله في معايش الدنيا، ولأن عهـد الرائي قريب لم يطرأ عليه ما يهوش الـرؤيا عليه، ولأنه قد يكون فيها ما يستحب تعجيله كالحث على خـير أو التحذير من معصية ونحو ذلك، كما أن فيه استحباب إقبال الإمام المصلي بعد سلامه على أصحابه وفيه إباحة الكلام في العلم وتفسير الرؤيا.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان مما يقول لأصحابه: **«من رأي منكم رؤيا فليقصها أَعبرُها له...»**[2] الحديث رواه مسلم، وفيه الحث على علم الرؤيا والسؤال عنها وتأويلها.

قـال النووي: قال العلمـاء: وسـؤالهم محـمول على أنه ﷺ يـعلمهم تأويلهـا وفضيلتها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من الإخبار بالغيب.

---

(١) رواه البـخاري (٧٠٤٧) فـي «التعـبـير»، ومـسلم (٢٢٧٥) في «الرؤيا»، والـترمـذي (٢٢٩٤) في «الرؤيا»، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٢٢٦٩) في «الرؤيا».

وقد كان النبي ﷺ يُفسِّر الرؤى كما كان نبي الله يوسف عليه السلام يُعبرّها وقد اشتهر البعض كأبي بكر رضي الله عنه من الصحابة وابن سيرين من التابعين بتعبير الرؤى بل كان أبو بكر يُعبرٍّ بحضرة رسول الله ﷺ، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس وفيه قول أبي بكر رضي الله عنه: **يا رسول الله، بأبي أنت والله لتدعنيً فلأعبرُنَّها، قال رسول الله ﷺ: «عبرُها»، قال أبو بكر: أما الظُّلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله به ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ من رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يُوصَلُ له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسول الله ﷺ: «أصبتَ بعضًا وأخطأت بعضًا»، قال: فوالله يا رسول الله لتُحدثنيً ما الذي أخطأتُ؟ قال: «لا تقسم»**[1].

قال النووي: وفي هذا الحديث جواز عبر الرؤيا، وأن عابرها قد يصيب وقد يخطىء، وأن الرؤيا ليست لأول عابر على الإطلاق وإنما ذلك إذا أصاب وجهها، وفيه أنه لا يستحب إبرار المقسم إذا كان فيه مفسدة أو مشقة ظاهرة.

★ **رؤيا يوسف عليه السلام:**

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٤).

تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦٩).

تفسيرها بعد أربعين سنة وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه.

﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (سورة يوسف: ١٠٠).

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبًا، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودي فقال له: «يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟» قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل انت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها» فقال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وذو الكنفات وقابس ووثاب وعمودان والفليق والمصبح والفروح وذو الفرغ والضياء والنور» فقال اليهودي: «أي والله إنها لأسماؤها»[1].

وفي رواية أبي يعلي: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه: هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد. قال. والشمس أبوه والقمر أمه» تفرد به الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون.

وقد فسر البعض السجود في الرؤيا بتواضعهم ليوسف عليه السلام ودخولهم تحت أمره، والأصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له.

قال وهب: رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيداً.

---

(١) رواه البيهقي وأبو يعلي والبزار وابن أبي حاتم.

وقد أعاد نبي الله يوسف لفظ الرؤيا فقال: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (سورة يوسف: ٤) ثم قال: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٤).

وقد أجاب القفال عن هذا التكرار فقال: ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له.

وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ فكأنه قيل له: كيف رأيت؟ فقال: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾.

وقد أخر الشمس والقمر لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله: ﴿ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ (سورة البقرة: ٩٨).

وقد ذكر البعض أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين، قالوا: والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدمًا على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم، والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم.

★ نهي يعقوب ليوسف عن حكاية الرؤيا لإخوته:

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحترامًا وإكرامًا، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيبغون له الغوائل، ولهذا قال له: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة يوسف: ٥) أي يحتالوا لك حيلة يردونك ويهلكونك فيها.

■ **ما ينطوي عليه النهي من معان:**

أ ـ قضاء الحوائج بالكتمان:

أمر يعقوب يوسف ـ عليهما السلام ـ بكتمان خبر الرؤيا، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ (سورة يوسف:٥) فلما عَلِمَ إخوته بها حل به ما حل.

وفي الحديث: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**».

وقال علي رضي الله عنه: «**سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره**».

فينبغي على الإنسان كتمان السر وتحصينه والحذر من إفشائه، ففي ذلك خطر كبير، ومن المعلوم أن حفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وأحراز الأسرار بارز يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر، وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمن من سطوته.

وقال أنو شروان: من حصّن سره فله بتحصينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات.

وقيل: كلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعًا، وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازمًا فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

وقيل كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: **«ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاه فلمته إذ كان صدري به أضيق»**.

وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال أكتمه عليَّ.

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن.

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر، قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساه كأني لم أسمعه وكان يقال: أحزم الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه.

وقالوا: قلوب الأحرار قبور الإسرار.

وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الإختبار حمق.

والاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان لا يتنافى مع إظهار النعمة عند من تؤمن عداوته وغائلته لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (سورة الضحى: ١١).

٢ - نصيحة وليست غيبة محرمة:

في هذه الآية دليل على أن مباحًا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة، لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا، والغيبة المحرمة، هي ذكرك أخاك بما فيه من خلفه وبما يكره، وهذه هي التي تعتبر كبيرة من الكبائر بإتفاق العلماء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟» **قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:** «ذكرك أخاك بما

يكره»، قيل: «إن كان في أخي ما أقول، قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[٢].

قال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً، وأقلهم غيبة.

وقال الأحنف: فيَّ خصلتين: لا أغتاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه.

وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحدًا؟ فقال: لست عن نفسي راضيًا فأتفرغ لذم الناس.

وأول من إغتاب إبليس لعنه الله إغتاب آدم عليه السلام وقيل: لا تأمن من اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك، وقيل للحسن البصري: إن فلانًا اغتابك، فأهدى إليه طبقًا من رطب، فأتاه الرجل وقال له: إغتبتك فأهديت إليَّ، فقال الحسن: أهديت إليَّ حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابن المبارك قال: لو كنت مغتابًا أحدًا، لاغتبت والديّ لأنهما أحق بحسناتي.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة، كذلك يحرم على السامع استماعها، فإن قال للمغتاب بلسانه اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، فذلك نفاق كما قال بعض العلماء.

والغيبة كما تكون بالقول، تكون بالفعل والإشارة... والتعريض بها كالتصريح ويستثنى من ذلك أمور تدعو لها الضرورة والمصلحة الحقيقية. كقول النبي ﷺ: «أما

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) في كتاب البر والصلة ـ والأدب.

(٢) رواه أبي داود (٤٨٧٥) في الأدب، والترمذي (٢٥٠٢) صفة القيامة وأحمد (٢٥٠٣٢).

اوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فضراب للنساء»[١] وذلك في الشهادة، وكقول هند بنت عتبة عن زوجها: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها النبي ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[٢]، أو كقول علماء الحديث: فلان كذاب، وقولهم الأعرج، الأعمش... بصفته التي يُعرف بها، وكقول النبي ﷺ: «ما أظن أن فلانًا وفلانًا يعرفان شيئًا من ديننا»، لرجلين من المنافقين، ومن ذلك أيضًا التحذير من أهل البدع والمتجاهرين بالمعاصي، فهؤلاء لا غيبة لهم، وذكرهم بما فيهم لا يدخل في دائرة التحريم.

٣ - توجس وغلبة ظن أوجبت التحذير:

معرفة نبي الله يعقوب عليه السلام بأحوال أولاده ومشاعرهم تجاه ولده يوسف، هو الذي دفعه لمثل هذا التحذير فقال ليوسف عليه السلام: ﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يوسف:٥). فحسدهم له سيزداد بسماعهم هذه الرؤيا، ولا يؤمن حينئذ أن يكيدوا ليوسف، وهذه المعرفة قد يكون مدارها على الوحي، أو غلبة الظن التي تواجدت بمشاهدة أحوالهم، واستقراء تصرفاتهم، ومتابعة سلوكياتهم، بحيث تكون الحيطة والتحذير كالنتيجة المترتبة على مقدماتها، والأحكام مبناها على اليقين أو غلبة الظن، مثل عدم جواز بيع العنب لمن يتخذه خمرًا، وحرمة خياطة الملابس لمن تتبرج فيها، وعدم مشروعية بيع السلاح لمن يقتل به مسلمًا، أو تأجير العقار لمن يعصي الله فيه، وكل ذلك من باب ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة:٢) وسدًا للذرائع التي توصل إلى معصية الله، ومن هذا الباب إطلاق حكم المنع بالنسبة للتليفزيون وغيره من الأجهزة إذا غلب عليها الشر والفساد، وغلب على الناس سوء الإستخدام، فالأحكام أغلبية، ولا عبرة بالشذوذ.

---

(١) رواه مسلم (١٤٨٠) في «الطلاق»، والترمذي (١١٣٤) في «النكاح»، والنسائي (٣٢٤٥) في «النكاح»، وأبو داود (٢٢٨٤) في «الطلاق».

(٢) رواه البخاري (٥٣٦٤) في «النفقات»، وابن ماجه (٢٢٠٣) في «التجارات».

٤ - استشعار الحسد من إخوة يوسف:

التخوف من إزدياد حسد إخوة يوسف له، هو الذي دفع نبي الله يعقوب عليه السلام أن يقول ليوسف: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (سورة يوسف: ٥) والحسد آفة، والحاسد مغتاظ على من لا ذنب له كما قال علي رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (سورة النساء: ٥٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

وقيل بئس الشعار الحسد.

وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك، قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد، والحسد يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، ولذلك ما أعدله عندما يبدأ الحسد بصاحبه فيقتله.

قال أبو الليث السمرقندي: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود:

أولاها ـ غم لا ينقطع.

والثانية ـ مصيبة لا يؤجر عليها.

والثالثة ـ مذمة لا يحمد عليها.

والرابعة ـ سخط الرب.

والخامسة ـ يغلق عنه باب التوفيق.

قال عمر رضي الله عنه: «يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك».

وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس. والحاسد عدو النعمة متسخط لفعل الله سبحانه، غير راض بقسمته جلَّ وعلا.

قال الأصمعي: رأيت أعرابيًا بلغ عمره مائة وعشرين سنة فقلت له: ما أطول عمرك، فقال: تركت الحسد فبقيت، وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: **«ألا لا تعادوا نعم الله»**، قيل: ومن يعادي نعم الله، قال: **«بالذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»**.

وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمت البدو وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة.

وقال عمر رضي الله عنه: **«نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد»**.

وكأن الحسود لم يقتصر على نصيبه من غموم الدنيا حتى أضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس ولذلك كان أشد غمًا.

اصبر على حسد الحسود ★ فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ★ إن لم تجد ما تأكله

وأنشد بعضهم:

أيا حاسداً لي على نعمتي ★ أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ★ لأنك لم ترضى لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني ★ وسد عليك وجوه الطلب

٥ - الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه:

هذه الآيات فيها دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أن يوسف عليه السلام سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه.

ويدل أيضًا على أن يعقوب ﷺ كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يَغِلَ بذلك صدورهم، فيعلموا الحيلة في هلاكه كما ذكر القرطبي.

وذكر ابن كثير في تفسيره أن تعبير الرؤيا خضوع إخوة يوسف له، وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحترامًا وإكرامًا، فخشي يعقوب ﷺ أن يحدث يوسف بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له ولهذا قال له: ﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (سورة يوسف:٥). أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها.

وقال الرازي في «التفسير الكبير»: المسألة الثانية: أن يعقوب ﷺ كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب ﷺ بالأمارت الكثيرة فلما ذكر يوسف ﷺ هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له. اهـ.

وقال سيد قطب في «الظلال»: ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على إخوته، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير غير الشقيق، فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحقد، فيدبروا له أمرًا يسوؤه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (سورة يوسف:٥) ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يوسف:٥). ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ويزين لهم الخطيئة والشر.

٦ - *العدل بين الأولاد في العطاء والمنع:*

ذكر المفسرون شدة محبة يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام ـ فحسده إخوته لهذا السبب فهل كان بمقدور نبي الله يعقوب أن يمسك قلبه عن محبة يوسف؟ وهل هو أخطأ عندما قدم يوسف وأخاه في المحبة على سائر أولاده؟ أو كان في استطاعته أن يعدل في هذه المحبة بين أولاده تجنبًا لحسدهم لأخيهم الصغير غير الشقيق؟

وللإجابة على ذلك نقول: هناك عدل مستطاع مقدور بالنسبة للإنسان وهو المتعلق بالعطاء والمنع وما شابه ذلك، وهناك عدل غير مستطاع وهو المتعلق بأعمال القلوب كالحب ونحوه، إذ قلوب العباد بيد الله وحده، ولذلك كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه في النفقة والسكنى والمبيت ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**»[(١)].

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (سورة النساء:١٢٩). أي في الميل والمحبة والإتيان، وقد كان النبي ﷺ يحب السيدة عائشة رضي الله عنها أكثر من بقية نسائه، ويقول: «فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[(٢)]، وكذلك الأمر بالنسبة لمحبة الأولاد، فقد يحب الوالد أحد أبنائه أكثر من بقية إخوته، لصغره أو لصلاحه أو لغير ذلك من الأسباب، وهذه المحبة الزائدة لا تمنع الوالد من محبة بقية أولاده والحرص عليهم ومجاهدة نفسه في العدل بينهم وعدم إعانة الشيطان على نفوسهم والحذر من إتيان ما يوغر صدورهم.

فقد كان السلف يستحبون العدل بين الأولاد حتى في القبلة، وفي حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[(٣)].

وفي صحيح مسلم: **أن امرأة بشير قالت له: انحل ابني غلاماً، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ وقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي قال:** «له إخوة؟»، **قال: نعم، قال:** «أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟»، **قال: لا، قال:** «فليس يصلح ذا، وإني **لا** أشهد **إلا**

---

(١) رواه أبي داود (٢١٣٤) في «النكاح»، والترمذي (١١٤٠) في «النكاح»، والنسائي (٣٩٤٣) في عشرة النساء، وابن ماجه (١٩٧١) في «النكاح».

(٢) رواه البخاري (٣٤١١) في «حديث الأنبياء»، ومسلم (٣٤٣١) في «فضائل الصحابة»، والترمذي (٣٨٨٧) في «المناقب»، والنسائي (٣٩٤٧) في «عشرة النساء»، وابن ماجه (٣٢٨٠) في «الأطعمة»، وأحمد (١٢١٨٧).

(٣) رواه النسائي (٣٦٨٧) في «النحل»، وأحمد (١٧٩٥٤)، وأبي داود (٣٥٤٤) في «البيوع».

على حق»[١] . وقال فيه: «لا تشهدني على جور، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم» ، ورواه مسلم في الهبات، باب «كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة». وفي الحديث: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»[٢]، وعن أنس: «أن رجلاً كان جالسًا مع النبي ﷺ فجاء بنيٌّ له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بُنَيَّة فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «فما عدلت بينهما» ، وفي الحديث: «سووا بين أولادكم في العطية فلو كانت مفضلاً أحد لفضلت النساء» .

فينبغي التسوية في المعاملة وتقديم الهدايا وتعليم العلوم النافعة، والعطية في الدنيا بصفة عامة إلا للمعارض الراجح كأن يطلب أحد الأبناء علمًا أو يكون مريضًا مرضًا مزمنًا فيعطى أكثر من إخوته، أو يكون سفيهًا مبذرًا فيمنع، وإلا فالأصل التسوية، ولو تنازل أحد الأبناء عن حقه في العطية برضاه فلا بأس بذلك، أما بالنسبة للمحبة فإنها إن تفاوتت، إلا أنه لا يجوز الجور في التعامل مع الأبناء.

ومن هذا يتضح لك عدم مؤاخذة نبي الله يعقوب في محبته الشديدة ليوسف عليه السلام.

٧ - إخوة يوسف اقترفوا أمورًا تتنافى مع عصمة الأنبياء:

وقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك والتآمر على قتله، فلا إلتفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعًا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر.

قال ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو

(١) رواه مسلم (١٦٢٤) في الهبات، وأحمد (١٤٠٨٣).
(٢) رواه مسلم (١٦٢٣) في الهبات.

الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»[١].

وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن العصمة للأنبياء، ليس فقط بعد النبوة وإنما أيضًا قبلها حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته، واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (سورة طه:٣٩) وجعلهم من المصطفين الأخيار ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (سورة ص:٤٧) فلابد إذًا أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها.

قال القرطبي: وسُميت العصمة عصمة لأنها تمنع من إرتكاب المعصية.

وأما في الشرع: فالعصمة هي: حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، وارتكاب المنكرات والمحرمات. فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، وميزهم على سائر البشر، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرها وكبيرها... فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عزَّ وجلَّ بخلاف سائر البشر. اهـ.

فما أثبته نبي الله يعقوب في حق أولاده من جهة، وفعلهم بيوسف عليه السلام يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت.

★ اجتباء يوسف وتعديد نعم الله عليه:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة يوسف:٦)

---

(١) «مجموع فتاوى» ابن تيمية (٤/ ٣١٩).

أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا، قال مقاتل: بالسجود لك، وقال الحسن: بالنبوة.

والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف ﷺ وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى، التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا.

قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة وذلك منتهى الرؤيا.

وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له، فإنه لم يلحقه فيها خطأ وكان يوسف ﷺ أعلم الناس بتأويلها. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (سورة يوسف:٦) أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوة وهو المقصود بقوله: ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (سورة يوسف:٦) أي بالنبوة، وقيل: بإخراج إخوتك إليك، وقيل: بإنجائك من كل مكروه ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (سورة يوسف:٦) بالخلة وإنجائه من النار ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ (سورة يوسف:٦) بالنبوة.

★ *إن ربك عليم حكيم:*

آيات كثيرة في كتاب الله ختمت بهذين الإسمين الكريمين مثل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام:٨٣)، ومثل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام:١٢٨)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة يوسف:٦).

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة يوسف:٦) الحكم: في الاصطلاح هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

فالله جل وعلا حكم لا يضع أمرًا إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه ولا يأمر إلا بما فيه الخير ولا ينهي إلا عما فيه الشر ولا يعذب إلا من يستحق العذاب وهو جل وعلا ذو الحكمة البالغة له الحجة والحكمة البالغة.

وأصل الحكم في لغة العرب معناها المنع، نقول: حكمه وأحكمه إذا منعه... هذا هو أصل الحكم، والحكمة فعلة من الحكم وأظهر تفسير لها: العلم النافع لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال أي يمنعها من أن يعتريها الخلل فمن كان عنده العلم الكامل فإنه لا يضع الأمر إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه لأن كل إخلال في الأحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور، فترى الرجل الحاذق البصير يفعل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام ثم ينكشف الغيب عن أنه فيه هلاكه فيندم حين لا ينفع الندم ويقول: ليتني لم أفعل، أو لو أني فعلت كذا لكان أحسن.

أما الله سبحانه العالم بعواقب الأمور وما تصير إليه، والعالم بما كان ويكون فلا يضع إلا أمرًا في موضعه ومحال أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب لعلمه سبحانه بما تؤول إليه الأمور.

والعليم: صيغة مبالغة لأن علم الله جل وعلا محيط بكل شيء يعلم خطرات القلوب وخائنات العيون وما تخفي الصدور، حتى أن من إحاطة علمه سبحانه، علمه بالعدم الذي سبق في علمه أن لا يوجد فهو عالم أن لو وجد كيف يكون.

وأن اسم (**الحكيم العليم**) فيه أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ويتبعوا تشريعه لأن حكته سبحانه تقتضي أن لا يأمرهم إلا بما فيه الخير ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر ولا يضع أمرًا إلا في موضعه.

وبإحاطة علمه يعلمون أن ليس هنالك غلط في ذلك الفعل أو أن ينكشف عن غير المراد، بل هو في غاية الإحاطة والإحكام، وإذا كان من يأمرك بحكم لا يخفى عليه شيء حكيم في غاية الإحكام لا يأمرك إلا بما فيه الخير ولا ينهاك إلا عن ما فيه الشر فإنه يحق عليك أن تطيع وتمتثل. اهـ.

وقد قسم الإمام ابن القيم الأحكام إلى ثلاثة فقال[1]:

الحكم الأول ـ حكم شرعي ديني: فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل الإنقياد المحض.

وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الإنقياد المحض والتسليم والاذعان والقبول، فإذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة إقراراً وتصديقًا بقى هناك إنقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذًا وعملاً.

فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه. كما لا تكون له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلافه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات بل اندرج خلافه تحت الأمر واضمحل خوضه في معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلمًا بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني الشرعي.

الحكم الثاني ـ الحكم الكوني القدري: والذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه، فهذا حق أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضًا، فينازع حكم الحق للحق يدافع به وله

---

(١) «طريق الهجرتين» ص٦٣.

كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي: «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعًا للقدر لا واقفًا مع القدر» فإن ضاق ذرعك عن هذا فتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له: أتفر من قدر الله؟ فقال: نفر من قدر الله إلى قدره.

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه فإنه إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته ودفعه بقدر الأكل والشرب واللباس فقد دفع قدر الله بقدره، وكذا إذا وقع الحريق في داره فهذا بقدر الله فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض.

فحق هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟

وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه، ولو أن عدوًا للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعًا لقدر الله بقدره فما للإستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث.

الحكم الثالث ـ وهو الحكم القدري الكوني: الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له ولا حيلة له في منازعته فهذا حقه أن يتلقى بالإستسلام والمسالمة وترك المخاصمة وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدينه من النجاة، فها هنا يحسن الإستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطأه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل فهو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى فله عليه أكمل حمد وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره. اهـ.

ومن هذا العرض تقف على سر اقتران الاسمين، وعلى مدلول ولوازم كل اسم منهما، وماذا يجب علينا من العبودية فيهما؟ بحيث لا يبقى بعد ذلك إلا التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها.

★ *آيات للسائلين:*

كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خُبِّروا به، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا: أُخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكي عليه حتى عمى؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجّه اليهود من المدينة من يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ سورة (يوسف) جملة واحدة، فيها كل ما في التوارة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبي ﷺ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت.

وكان مما نزل في هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (سورة يوسف:٧) وإخوة يوسف هم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر، دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً.

قال السهيلي: وأم يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب وقيل: في اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده، لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (سورة النساء:٢٣). وهؤلاء الإخوة لما بلغتهم رؤيا يوسف حسدوه وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة.

وورد عن ابن عباس: «أن حبراً من اليهود دخل على النبي ﷺ فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع، فقالوا له: من علمك هذه القصة؟ فقال: الله علمني، فنزل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (سورة يوسف:٧) فلعل الآيات المذكورة كانت في إخبار النبي ﷺ من غير سبق تعلم ولا مطالعة. ومن المعلوم أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول ﷺ وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد، فذكر الله تعالى هذه القصة وبيّن أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد، ثم إن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجراً له عن الإقدام على الحسد، وإذا كان يعقوب لما عبر الرؤيا وقع ذلك التعبير بعد ذلك بسنين، فكذلك فإن الله تعالى لما وعد محمداً ﷺ بالنصر والظفر على الأعداء، فإن تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون

محمد ﷺ كاذبًا فيه، فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه، وكذلك فإن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى، لا كما سعى فيه إخوته، وقد حدث مثل ذلك لرسول الله ﷺ ، فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في إبطال أمره.

★ عُصبة وعُصبة:

قال إخوة يوسف: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ (سورة يوسف:٨) أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وأخوه هو بنيامين، وإنما قالوا: ﴿ أَخُوهُ ﴾ وهم جميعًا إخوة، لأن أمهما كانت واحدة ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة، والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة، ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط.

ونُقل عن علي ﵁ أنه قرأ ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ بالنصب قيل: معناه ونحن نجتمع عصبة.

والعصبة جمع عاصب كطالب وطلبة، وهم بنو الرجل وقرابته لأبيه، وسموا بذلك لشد بعضهم أزر بعض. وهذا اللفظ مأخوذ من قولهم: عصب القوم بفلان إذا أحاطوا به، فالابن طرف والأب طرف آخر والأخ جانب والعم جانب آخر.

وقد ذكر ابن قدامة في «المغني»، أنه متى عُدم الأب وآباؤه فأولى الناس بتزويج المرأة ابنها ثم ابنه بعده وإن نزلت درجته الأقرب فالأقرب منهم، ولا خلاف بين أهل العلم في تقديم الأخ بعد عمودي النسب لكونه أقرب العصبات بعدهم فإنه ابن الأب وأقواهم تعصيبًا وأحقهم بالميراث، وذكر أن الولاية تترتب على ترتيب الإرث بالتعصيب فأحقهم بالميراث أحقهم بالولاية، ولا ولاية لغير العصبات من الأقارب كالأخ من الأم والخال وعم الأم والجد أب الأم ونحوهم نص عليه أحمد في مواضع وهو قول الشافعي وإحدى الروايتين عن أبي حنيفة.

والثانية ـ إن كل من يرث بفرض أو تعصيب يلي لأنه من أهل ميراثها فوليها كعصباتها. ولنا: ما روي عن علي أنه قال: «إذا بلغ النساء نص الحقائق في فالعصبة أولى إذا أدركن» رواه أبو عبيد في الغريب، ولأنه ليس من عصباتها فأشبه الأجنبي.... إلى أن قال: لا خلاف نعلمه في أن المرأة إذا لم يكن لها عصبة من نسبها أن مولاها يزوجها.... اهـ.

وما ارتضاه ابن قدامة هو مذهب جمهور العلماء، منهم مالك والثوري والليث والشافعي فقد ذهبوا إلى أن الأولياء في الزواج هم العصبة.... وليس للخال ولا للإخوة لأم، ولا لولد الأم، ولا لأي من ذوي الأرحام ولاية، وفي الحديث عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نكاح إلا بولي**»[(١)].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا (أي امتنعوا عن التزويج) فالسلطان ولي من لا ولي له**»[(٢)]، وقال: حديث حسن. قال القرطبي: وهذا الحديث صحيح.

والعصبة هم الذين يصرف لهم باقي التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدرة لهم، فإذا لم يفضل شئ منهم لم يأخذوا شيئًا إلا إذا كان العاصب إبنًا فإنه لا يحرم بحال، والعصبة كذلك هم الذين يستحقون التركة كلها إذا لم يوجد من أصحاب الفروض أحد، لما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر**»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (١١٠١) في «النكاح»، وأبي داود (٢٠٨٥) في «النكاح»، وابن ماجه (١٨٨٠) في «النكاح»، وأحمد (٢٢٦٠).

(٢) رواه الترمذي (١١٠٢) في «النكاح»، وأبي داود (٢٠٨٣) في «النكاح»، وابن ماجه (١٨٧٩) في «النكاح»، وأحمد (٢٣٨٥١).

(٣) رواه البخاري (٦٧٣٢) في «الفرائض»، ومسلم (١٦١٥) في «الفرائض»، والترمذي (٢٠٩٨) في «الفرائض»، وأحمد (٢٦٥٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب:٦). فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينًا أو ضياعًا (من يخلفه الميت ولا شيء له) فليأتي فأنا مولاه»[1].

والعصبة تنقسم إلى قسمين:

١ ـ عصبة نسبية.

٢ ـ عصبة سببية.

والعصبة النسبية أصناف ثلاثة:

١ ـ عصبة بنفسه.

٢ ـ عصبة بغيره.

٣ ـ عصبة مع غيره.

ومن أراد المزيد من التفاصيل فعليه الرجوع إلى كتب الفقه والإطلاع على أحكام النكاح والمواريث.....

★ ***هل ضل الأب؟! وكيف تكون مواجهته؟!:***

لقد نسب إخوة يوسف أباهم إلى الضلال المبين فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يوسف:٨) يعنون في تقديمهما علينا ومحبته إياهما أكثر منا قال القرطبي: «لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً، بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الإنتساب إليه، وقيل: لفي خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا». اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٩٩)، في «الاستقراض وأداء الديون»، وأحمد (٨٢١٣).

وقال الرازي: المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه:

الأول ـ أنهم كانوا أكبر سنًا منهما.

وثانيهما ـ أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قيامًا بمصالح الأب منهما.

وثالثهما ـ أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات إذا ثبت ما ذكر من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل.

ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم، لا جرم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يوسف:٨) يعني هذا حيف ظاهر وضلال بيّن... إلى أن قال: إنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولاً حقًا عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد... وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة، فليس لله على فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه:

أحدها ـ أن أمهما ماتت وهما صغار.

وثانيهما ـ لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد في سائر الأولاد.

وثالثهما ـ لعله عليه السلام وإن كان صغيرًا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد.

والحاصل أن هذه المسألة كانت إجتهادية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه وبعد أن ذكر أنه ما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة، قال: إن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم. اهـ.

وما ذكره الرازي من نبوتهم غير صحيح، فما ورد في الآيات من نسبتهم الضلال المبين لأبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام ثم قولهم: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ (سورة يوسف:٩) هذا بالإضافة إلى أنه لم يدل دليل صحيح على نبوتهم.

يقول ابن كثير: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك وفي هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ (سورة البقرة:١٣٦) وهذا فيه إحتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط كما يقال للعرب: قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف لم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي، إليهم والله أعلم. اهـ.

كان أولى بهم أن يحسنوا الظن بأبيهم النبي يعقوب عليه السلام وأن يتركوا اجتهادهم لاجتهاده ـ إن كانوا من أهل الاجتهاد ـ لأبوته من جهة، ونبوته من جهة أخرى، ولأن الأمر لا معصية فيه لله تعالى، فالمحبة من أعمال القلوب، والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، وكان أرفق بهم أن يسألوا أباهم لماذا قدم أخاهم يوسف في المحبة عليهم؟ بدلاً من نسبته للضلال المبين.

* حق الوالدين ثابت وإن ظلما:

حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«من أصبح مطيعًا لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن كان واحداً فواحد، ومن أمسى عاصيًا لله تعالى في والديه أصبح بابان مفتوحان من النار وإن كان واحداً فواحد، قال رجل: وإن ظلماه. قال: وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه» [(١)].

(١) رواه ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي وقال الحافظ في (اللسان): «رجاله ثقات أثبات إلا عبد الله بن يحيى السرخسي فهو آفته»، وقد أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» موقوفًا على ابن عباس.

ورواه الديلمي من حديثه بلفظ: «من أصبح والداه راضيين عنه أصبح وله بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أصبح ساخطين عليه أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحد فواحد»، فقيل: وإن ظلماه، قال: «وإن ظلماه»، ورواه الدارقطني بهذا اللفظ من حديث زيد بن أرقم.

وعن ابن عباس قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محسنًا إلا فتح الله له بابين يعني من الجنة وإن كان واحداً فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرضى الله عنه». قيل: وإن ظلماه، قال: «وإن ظلماه»[1] وهذا في حالة الظلم، ونبي الله يعقوب، لم يظلم أولاده شيئًا.

وقد ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قُتلت وحُرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن الخمر، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن بالمعصية حل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف، وإن هلك الناس وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبًا وأخفهم في الله»[2] رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وإسناد أحمد صحيح إلا أن فيه انقطاعًا.

وعن أميمة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: «كنت أصب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وضوءه فدخل رجل، فقال: أوصني، فقال: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قطعت وحرقت بالنار، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلي من أهلك ودنياك فتخل، ولا تشربن خمراً فإنها مفتاح كل شر»، رواه الطبراني وفي إسناده يزيد ابن سنان الرهاوي وثقه البخاري وغيره، وضعفه ابن معين وأحمد بن حنبل وغيرهما. وعن أم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بعض أهل بيته، فقال: «لا تشرك بالله وإن عُذبت وإن حُرقت، وأطع ربك ووالديك وإن أمراك أن تخرج من كل شئ فاخرج»، رواه البيهقي.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ورجاله رجال الصحيح إلا سعيداً القيس ذكره في «التهذيب» وله فيه جرحًا ولا تعديلاً، وقال: انفرد عنه سليمان التيمي.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٧٠).

ومن المعلوم أن نبي الله يعقوب ﷺ لم يأمر أولاده بالخروج من دنياهم ولا من أموالهم وأهلهم، فهل يكون هذا جزاؤه؟!

★ المجني عليه والقاضي والجلاد!!!:

هكذا كان إخوة يوسف، فقد أحسوا بمحبة أبيهم الزائدة ليوسف وأخيه، وكأنهم ظُلموا فداخلهم الحقد والحسد، ثم أجازوا لأنفسهم الوقوف على منصة القضاء بلا بينة ولا برهان فأطلقوا الأحكام الجائرة، لا على عوام الناس، بل على أقرب الناس إليهم، فرموا أباهم بالضلال المبين وألقوه في الحزن الدائم والأسف العظيم، كما أقدموا على تضييع الأخ الصالح وإلقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق، كما كانوا جلادين عندما قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ (سورة يوسف:٨). يقولون هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم اعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم، ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك.

وهكذا تضيق العقول والصدور، فلابد من تبعيد يوسف عن أبيه!! وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين: القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه!! مما يدل على قوة الحسد وبلوغه النهاية، ولك أن تتخيل الحياة، وقد نصّب كل إنسان من نفسه مجنيًا عليه وقاضيًا وجلادًا بالباطل!! كيف تكون حالة الناس، وكيف تستقيم الدنيا؟!!

★ المحافظة على النفس:

عُرف بالإستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة.

وهذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وقد شُرعت الشرائع لإقامة وتحقيق كل واحدة من هذه الضروريات، وبالنسبة للنفس شُرع لحفظها القصاص على من يعتدي عليها، وتحريم إلقاء النفس بالتهلكة ولزوم دفع الضرر عنها.

وقد اصطلح الفقهاء على تسمية الجنايات التي تقع على النفس أو على ما دونها من جرح أو قطع عضو باسم جرائم الحدود والقصاص، ويعتبر حق الحياة من أعظم الحقوق وأولاها بالعناية. ولذلك ثبت عن رسول الله ﷺ أنه خطب في حجة الوداع فقال: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا... ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»[(١)] فكيف بدماء عزيزة كدماء نبي الله يوسف عليه السلام وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (سورة الإسراء:٣٣) والحق الذي تزهق به النفوس هو ما فسره الرسول ﷺ في قوله عن ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب[(٢)] الزاني، والنفس بالنفس[(٣)]، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[(٤-٥)].

وفي الحديث: «ليس من نفس تُقتَل ظُلمًا إلا كان على ابن آدم كِفلٌ من دمها، لأنه كان أول من سنَّ القتل»[(٦)].

وروى الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»[(٧)].

---

(١) رواه البخاري (١٧٤١) في كتاب «الحج»، وأبي داود (١٩٠٥) في «المناسك»، وأحمد (١٣٩٥٦).
(٢) الذي سبق له الزواج.
(٣) قتل النفس التي قتلت نفسًا عمدًا بغير حق.
(٤) المرتد عن دين الإسلام.
(٥) رواه البخاري (٦٨٧٨) في «الديات»، ومسلم (١٦٧٦) في «القسامة والمحاربين».
(٦) رواه البخاري (٧٣٢١) في «الاعتصام».
(٧) رواه الترمذي (١٣٩٨) في «الديات».

وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»رواه ابن ماجه بسند حسنَ عن البراء[(١)].

وقد توعد سبحانه القاتل في الآخرة بالعذاب الأليم والخلود المقيم في جهنم، والغضب واللعنة فقال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء:٩٣). وقد اعتبرت الآيات القاتل لفرد كالقاتل للأفراد جميعًا، قال تعالى: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (سورة المائدة:٣٢) ولعظم أمر الدماء وشدة خطورتها، كانت هي أول ما يقضى فيها بين الناس يوم القيامة، كما رواه مسلم.

والقصاص عقوبة مقررة في الشرائع السابقة ففي سفر الخروج الفصل الحادي والعشرين «أن من ضرب إنسانًا فمات فليقتل قتلاً، وإذا بغى رجل على آخر فقتله اغتيالاً فمن قدام مذبحى تأخذه ليقتل، ومن ضرب أباه وأمه تقتل قتلاً، وإن حصلت أذية فأعط نفسًا بنفس، وعينًا بعين، وسنًا بسن، ويدًا بيد، ورجلاً برجل وجرحًا بجرح، ورضًا برض» ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس، فالقصاص حق سواء أكان المقتول كبيرًا أم صغيرًا رجلاً أم امرأة، وحتى في قتل الخطأ، لم يعف الله تعالى القاتل من المسئولية، وأوجب فيه العتق فإن لم يجد صام شهرين متتابعين والدية فقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ (سورة النساء:٩٢).

والقتل ينقسم إلى أنواع ثلاثة:

١ ـ عمد.

٢ ـ شبه عمد.

٣ ـ خطأ.

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة آثار تترتب عليه، ذكرها الفقهاء في كتبهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦١٩).

★ الجماعة تقتل بالواحد:

قال ابن قدامة في (المغني) حـ٧ ص٦٧١: «الجماعة إذا قتلوا واحدًا فعلى كل واحد منهم القصاص إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بفعله وجب عليه القصاص، روى ذلك عن عمر وعليّ والمغيرة بن شعبة وابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وأبو سلمة وعطاء وقتادة وهو مذهب مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وإسحاق وأبي ثور وأصحاب الرأي.

وحكي عن أحمد رواية أخرى لا يقتلون به وتجب عليهم الدية. وهذا قول ابن الزبير والزهري وابن سيرين وحبيب ابن أبي ثابت وعبد الملك وربيعة وداود وابن المنذر وحكاه ابن أبي موسى عن ابن عباس.

وروي عن معاذ بن جبل وابن الزبير وابن سيرين والزهري: أنه يقتل منهم واحد ويؤخذ من الباقين حصصهم من الدية لأن كل واحد منهم مكافئ له فلا تستوفي أبدال بمبدل واحد كما لا تجب ديات لمقتول واحد، لأن الله تعالى قال: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ (سورة البقرة:١٧٨) وقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (سورة المائدة:٤٥) فمقتضاه أنه لا يؤخذ بالنفس أكثر من نفس واحدة، ولأن التفاوت في الأوصاف يمنع بدليل أن الحر لا يؤخذ بالعبد والتفاوت في العدد أولى.

قال ابن المنذر: لا حجة مع من أوجب قتل جماعة بواحد. ولنا: إجماع الصحابة رضي الله عنهم، روى سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قتل سبعة من أهل صنعاء قتلوا رجلاً وقال: «**لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً**».

وعن عليّ رضي الله عنه «**أنه قتل ثلاثة قتلوا رجلاً**»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**أنه قتل جماعة بواحد**»، ولم يُعرف لهم في عصرهم مخالف فكان إجماعًا، ولأنها عقوبة تجب للواحد على الواحد فوجبت للواحد على الجماعة كحد القذف، ويفارق الدية فإنها تتبعض والقصاص لا يتبعض، ولأن القصاص لو سقط بالإشراك أدى إلى التسارع إلى القتل به

فيؤدي إلى إسقاط حكمة الردع والزجر. . . قال: ولا يعتبر في وجوب القصاص على المشتركين التساوي في سببه. . . ألا ترى أنه لو قطع أطرافه كلها فمات وجبت دية واحدة كما لو قطع طرفه فمات. . . قال: إذا اشترك ثلاثة في قتل رجل فقطع أحدهم يده والآخر رجله وأوضحه الثالث فمات، فللولي قتل جميعهم والعفو عنهم إلى الدية فيأخذ من كل واحد ثلثها، وله أن يعفو عن واحد فيأخذ منه ثلث الدية ويقتل الأخرين، وله أن يعفو عن اثنين فيأخذ منهما ثلثي الدية ويقتل الثالث. . . اهـ.

وقال مالك: «الأمر عندنا: أنه يقتل في العمد الرجال الأحرار بالرجل الحر الواحد، والنساء بالمرأة كذلك، والعبيد بالعبد كذلك أيضًا. وفي «المسوى» قال: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم.

أما إذا أمسك رجل رجلاً فقتله رجل آخر، وكان القاتل لا يمكنه قتله إلا بالإمساك وكان المقتول لا يقدر على الهرب بعد الإمساك، فُيقتل القاتل ويُحبس المُسك حتى يموت جزاء إمساكه للمقتول، وإلى هذا ذهبت الشافعية والأحناف، لما رواه الدارقطني عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إذا أمسك الرجلُ الرجلَ وقتله الآخر يُقتل الذي قتل ويُحبس الذي أمسك» وصححه ابن القطان، وقال الحافظ بن حجر: ورجاله ثقات، وأخرج الشافعي عن عليّ أنه قضى في رجل قتل رجلاً متعمدًا وأمسكه آخر قال: «يُقتل القاتل، ويحبس الآخر في السجن حتى يموت»، وذهب الليث ومالك والنخعي إلى أنهما يقُتلان لأنهما شريكان.

★ *دخلت امرأة النارَ في هرة حبستها:*

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عُذِّبت امرأةٌ في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، وقيل لها: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٥) في «المساقاة»، ومسلم (٢٢٤٢) في «السلام».

إن صنيع هذه المرأة مظهر من مظاهر قسوة القلوب وانتزاع الرحمة منها، والرحمة لا تنزع إلا من قلب شقي، وإذا كان هذا في شأن هرة حُبست فماتت، فكيف بمن قال: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ (سورة يوسف:٩) ونبي الله يوسف عليه السلام هو أخوهم، لقد بلغ بهم جفاء القلب وقسوته مبلغًا لم يراعوا معه الرحمة بالصغير ولا الشفقة على والدهم الكبير، أين هذا الصنيع من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (سورة البلد:١٧-١٨).

وفي الحديث: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(٢)].

فمن لا يرحم لا يرحم ولا تنزع الرحمة إلا من شقى، والجزاء من جنس العمل. وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(٣)].

إن الرحمة خلق فاضل تمتنع به النفس من فعل مالا يحسن ولا يجمل، تدفع صاحبها إلى العفو عن ذي الزلة والمغفرة لصاحب الخطيئة وإغاثة الملهوف ومساعدة الضعيف وإطعام الجائع وكسوة العاري ومداوة المريض ومواساة الحزين، فكيف يكون الأمر مع أخ صغير لم يقترف ذنبًا ولا جرمًا!!

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ بهذا مثلُ الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٤) في الجنائز، ومسلم (٩٢٣) في الجنائز، وأبي داود (٣١٢٥) في الجنائز.
(٢) رواه الترمذي (١٩٢٤) في البر والصلة.
(٣) رواه مسلم (٢٥٨٦) في البر والصلة والآداب، وأحمد (١٧٩٠٣).

فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له: قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[١].

وورد مثل هذا المعنى في حق البغي التي هي من بغايا بني إسرائيل، وقد شكر لها ربنا صنيعها مع الكلب وغفر لها، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

وروى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي يوسف القين، وكان ظئرًا لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ: إبراهيم ولده وقبّله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «وأنت يا رسول الله؟» فقال: «يا ابن عوف إنها الرحمة»، ثم قال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٢]، فزيارة رسول الله ﷺ لطفله الصغير وهو في بيت مرضعه، وتقبيله إياه وشمه ثم عيادته له وهو مريض يجود بنفسه، ثم ما أرسله عليه من دموع الحزن كل ذلك من مظاهر الرحمة في قلب رسول الله ﷺ.

وروى البخاري عن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز مما أعلم من شدة وَجد أمه من بكائه»[٣].

وروي أن زيد العابدين علي بن الحسين ﷺ كان في طريقه إلى المسجد فسبه رجل، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم عنه رحمة به، ثم قال: يا هذا، أنا أكثر مما تقول، وما لا تعرفه عني أكثر مما تعرفه، فإن كان لك حاجة في ذلك ذكرته، فخجل الرجل واستحيا، فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم.

أين هذا كله من فعل إخوة يوسف بيوسف؟!

---

(١) رواه البخاري(٢٣٦٣) في «المساقاة»، ومسلم (٢٢٤٤) في «السلام».
(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) في «الجنائز»، ومسلم (٢٣١٥) في «الفضائل».
(٣) رواه البخاري (٧١٠) في «الآذان»، ومسلم (٤٧٠) في «الصلاة»، والترمذي (٣٧٦) في «الصلاة»، وابن ماجه (٩٨٩) في «إقامة الصلاة».

★ أهدروا معاني الأخوة الإيمانية والنسبية:

لقد قطع إخوة يوسف، ما أمر الله به أن يوصل، وأهدروا معاني الأخوة الإيمانية والنسبية عندما قالوا: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ (سورة يوسف:٩) فعلوا ذلك بلا مبرر، وبلا عذر مقبول، وتناسوا قيمة هذه الرابطة، التي عطفت الملائكة من حملة العرش على المؤمنين من أهل الأرض، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (سورة غافر:٧).

كما ربطت السابقين باللاحقين ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحشر: ١٠).

فالرابطة التي تربط قلوب المؤمنين في شتى بقاع الأرض هي رابطة الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٠) وبمقتضاها يكون الحب في الله والبغض في الله، فإذا ضعفت معاني الإيمان، ضعفت بالتبعية رابطة الأخوة، وحينئذ يكون الاجتماع على الدنيا بمفاهيمها وتصوراتها ومتعها الزائلة، وإذا كان الأمر كذلك فلا تأمن أن يسعى الإنسان في قتل أخيه والإيقاع به!! بدلاً من أن يكون له كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وبدلاً من أن يكون له كالمرآة.

وقد وردت الأحاديث والآثار تؤكد على معاني الأخوة وتوضح كيف يكون الحب والبغض فيه سبحانه وتعالى.

ومن ذلك قوله ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1].

---

(١) رواه أبي داود (٤٦٨١).

وقوله ﷺ : «إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء»، **فقالوا: يا رسول الله: «صفهم لنا»، فقال:** «المتحابون في الله، والمتجالسون في الله، والمتزاورون في الله» (رواه النسائي). **وقوله ﷺ :** «إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»[(١)].

وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[(٢)].

وورد عند مسلم: «أن رجلاً زار أخًا له في الله، فأرصد الله له ملكًا فقال له: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانًا، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا، قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا، قال: فبنعمة لك عنده؟ قال: لا، قال: فبم؟ قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأن يحبك لحبك إياه، وقد أوجب لك الجنة»[(٣)].

وقال البعض: أين مثل الأخ الصالح؟ إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ويتمتعون بما خلَّف، والأخ الصالح ينفرد بالحزن، مهتمًا بما قدم أخوه عليه، وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى.

أتى رجل لأبي هريرة رضي الله عنه يقول: إني أريد أن أؤاخيك في الله، قال: **«أتدري ما حق الإخاء؟»**، قال: عرفني، قال: **«لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني»**، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: **«فاذهب عني»**.

---

(١) رواه أحمد (١٨٩٤٥).
(٢) رواه البخاري (٦٦٠) في «الأذان»، ومسلم (١٠٣١) في «الزكاة»، والترمذي (٢٣٩١).
(٣) رواه مسلم (٢٥٦٧) في «البر والصلة والآداب»، وأحمد (٧٨٥٩).

إن هذه الأخوة التي تتحدث عنها تقتضي أن يكون كل منهما عونًا لصاحبه يقضي حاجته ويقدمها على نفسه، ويتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه، ويؤثره على نفسه، يسأل عنه، فإن كان مريضًا عاده، وإن كان مشغولاً أعانه، وإن كان ناسيًا ذكره، يرحب به إذا دنا ويوسع له إذا جلس، ويصغي إليه إذا حدث، وأن يكف عنه لسانه إلا بخير، فلا يذكر له عيبًا في غيبته أو حضوره، يعفو عن زلاته ويتغاضى عن هفواته، يستر عيوبه، ويحسن به ظنونه، وأن يفي له في الأخوة فيثبت عليها ويديم عهدها، لأن قطعها محبط لأجرها فقد أكرم رسول الله ﷺ عجوزًا دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين» (رواه الحاكم وصححه) ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا على عداوتك.

وقد أطاع إخوة يوسف الشيطان في الإيقاع بيوسف عليه السلام وبيّتوا نية التخلص منه، ولم يحفظوا له حرمته ولا أخوته.

★ *ماذا لو قالوا: اقتلوا يوسف... ولم يفعلوا:*

معظم النار من مستصغر الشرر، وقد سد الشرع الذرائع التي تؤول بالعباد لمواقعة ما حرم الله تعالى، وهذا من جملة القواعد المقررة، وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (سورة المائدة: ٢).

وروى الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»[١] والإشتراك هذا قد يكون على سبيل التحريض بالقول على القتل.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة، آيس من رحمة الله» (رواه البيهقي)، وشطر الكلمة أن يقول (أق).

---

(١) رواه الترمذي (١٣٩٨) في كتاب الديات.

وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به**»[(١)].

فكلامهم وقولهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ (سورة يوسف:٩) يؤاخذون عليه في شرعنا حتى وإن لم يفعلوا.

وثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، **قيل: «يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟!» قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**[(٢)].

وهذا الوعيد إنما هو لمجرد حرص المقتول على قتل صاحبه، وقد جاءت التشريعات التي تحث على حفظ النفس، والزجر عما يزهقها ويؤذيها، ومن هنا اكتسبت كل طريقة أو وسيلة فيها إزهاق للنفس أو إتلاف لها أو إيذاء - ولو بالظن - وصف الحرمة، لأن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام.

فالإشارة بالسلاح أو بأي وسيلة قديمة أو حديثة - ولو كان المرء مازحًا - فيها مظنة الإيذاء، أو توقعه، لذا وجب ترك هذا الأمر سدًا للذريعة وتفويتًا لفرص اغتنام الشيطان لمثل هذه الحالات، بل وردت النصوص بمنع المرء من المرور بالأسواق وهو يحمل ما يمكن أن يؤذي ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «**إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على أنصالها**» أو قال: «**فليقبض بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها شيء**»[(٣)].

كما نهى أن يُتعاطى السيف مسلولاً، إذ روى جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ: «**نهى أن يُتعاطى السيف مسلولاً**»[(٤)]. وقال: حسن غريب، وكذلك لا يصح

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤) في «الإيمان والنذور»، ومسلم (١٢٧)، وأبي داود (٢٢٠٩)، وابن ماجه (٢٠٣٠) في «الطلاق».

(٢) رواه البخاري (٣١) في «الإيمان»، ومسلم (٢٨٨٨) في «الفتن»، (وابن ماجه (٣٩٦٤) في «الفتن».

(٣) رواه البخاري (٧٠٧٥) في «الفتن»، ومسلم (٢٦١٥) في «البر والصلة»، وأبي داود، (٢٥٨٧) في «الجهاد».

(٤) رواه الترمذي (٢١٦٣) في «الفتن»، وأبي داود (٢٥٨٨) في «الجهاد»، وأحمد (١٣٧٨٩).

مناولة السكين من نصلها أو أن يقذفها على أحد ليناولها إياه، ولو عمل الناس بهذه الأحاديث واتبعوا ما جاء فيها لجنبوا أنفسهم وغيرهم كثيرًا من الدمار والندم، فكم من رجل قتل ابنه أو أخ قتل أخاه عن طريق اللهو بالسلاح أو الخطأ في استعماله مع تسديده للغير، والخير كل الخير في اتباع ما جاءنا عن النبي ﷺ والتمسك بدقائقه.

ومن هذا تدرك خطورة التنادي باستباحة الدماء البريئة وغلظ تحريم القول بقتل المعصومين.

★ قولهم يخلُ لكم وجه أبيكم... حرص وطمع فاجع:

أراد إخوة يوسف بقتله، أن يخلص ويصفوا لهم أبوهم فيقبل عليهم بكليته، وإلا فيوسف شغله عنهم وصرف الأب وجهه إليه فإذا أفقده أقبل عليهم بالميل والمحبة، وهذه صورة من صور الحرص الفاجع، فما ذنب يوسف، وإذا كان قد استحوذ على شعبة من قلب أبيه يعقوب، فهل يكون جزاؤه، أن يُقتل فيُحرم الأب منه بالكلية ويستحوذون هم وينفردون بنبي الله يعقوب؟! هكذا يفعل الطمع بأصحابه، ويسلبهم العقل والإدراك.

ولذلك ورد عون علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»**، وقال: **«ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع»**.

وقال البعض: العبيد ثلاثة: عبد رقة . . . وعبد شهوة . . . وعبد طمع، وقالوا: من أراد أن يعيش حرًا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع، وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام، فقال له كعب: يا ابن سلام من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوايج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افرقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع.

وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء، الحرص والطمع والحسد، فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفت خبزي، وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتسّاران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوحى لي بشيء من ماله، وما زُفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليَّ.

وقيل للإسكندر: ما سر الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها، قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وأنشد البعض:

حسبي بعلمي إن نفع ☆ ما الذل إلا في الطمع
من راقب الله نزع ☆ عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع ☆ إلا كما طار وقع

★ *أضمروا التوبة قبل الذنب:*

فقالوا ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (سورة يوسف:٩) وكأنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من قتل يوسف أو إبعاده، من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين، وقيل: ليس المقصود هنا صلاح الدين، بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبًا لكم مشتغلاً بشأنكم فلا أثرة ولا تفضيل، أو أن المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم وقد ذكر الرازي هذه الأوجه في تفسيره واقتصر القرطبي على الأول والثاني منها.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أضمروا التوبة قبل الذنب.

ومعنى كلامـه: أي أنهم من بعد الذنب وقتل يوسف أو إبعاده يـصيرون تائبين، ويُحدثون توبة بعد ذلك فيقبلها الله منـهم، وإن كانت توبة القاتل مقبولة، وهذا قول جمهـور العلماء، إلا أن قول إخوة يوسف لا يخلو من جـرأة وطول أمل، كما يدل على غفلتهم وتلاعب الشـيطان بعقولهم، وكأنه لا سبـيل للإقلاع عن الذنب ابتداءً، فلابد من مواقعته، ثم بعد الفراغ من ارتكابه يتوب الإنسان إلى ربه، هذا حال كثيرين من الناس، يقترفون الذنوب والمعاصي، ويُمنيّ كل واحد منهم نفسه بتوبة، إما عاجلة وإما آجلة في حال الشيخوخة وعند كبر السن!!!

بل أحيانًا يقول الرجل لأخيـه: افعل كذا من الذنوب ثم بعد ذلك تب إلى ربك وهذا من جملة السفه والفجور، فأين التعظيم لحرمات الله؟!

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحديد:١٦) وقال الحسن: إياكم وهـذه الأماني فإنه لم يعط أحد بالأمنيـة خيرًا قط في الدنيا ولا في الآخرة.

وقالوا: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله، أخزاه عمله.

وقـيل: من جـرى في عنان أملـه كـان عـاثرًا بأجله، لو ظهـرت الآجـال لافتضحت الآمال.

وقيل لمحـمد بن واسع: كـيف تجدك؟ قـال: قصيـر الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل.

ولا يزال الكبيـر شابًا في اثنين حب المال وطول الأمل، وقـال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره.

من الذي أعطى إخـوة يوسف الوعد بإمـهالهم وإطالة أعـمارهم، حتى يـتوبوا لربهم بعد قتلهم يوسف!! فكم مـن مستقبل يومًا لا يسـتكمله ومنتظر غدًا لا يبلغه،

والموت قريب وهو يأتي فجأة، بل قد يعاجل الإنسان حال ارتكابه المعصية فيلقي الله على أسوأ أحواله، ويُختم له بخاتمة أهل النيران.

ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه: **«ثلاث أضحكتني حتى أبكتني: طالب دنيا والموت يطلبه، وضاحك ملىء فيه ولا يدري أأرضى ربه أم أسخطه، وغافل ليس بمغفول عنه، وقال: يا أهل دمشق، ألا تستمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون شديداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً»**. إن الله تعالى لم يجعل سعادة خلقه فيما حرم عليهم فقال: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (سورة طه: ١٢٣-١٢٤) فعلى العبد أن يقلع عن الذنوب والمعاصي وينأى بنفسه عن مواطن الردى، فإن اقترف هفوة، فعليه أن يبادر بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، دون تسويف أو تأخير، فقد قالوا: تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه، وقول إخوة يوسف: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٩) يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين، ولا يخفى عليك أن السعي في قتل الأخ وإيذاء الأب... يتنافى مع العصمة ويثبت أنهم ما كانوا أنبياء.

★ بعض الشر أهون من بعض:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (سورة يوسف: ١٠).

قيل: إنه كان روبيل وكان أحسنهم رأيًا فيه فمنعهم عن القتل، وقيل: قائل ذلك أخوه يهوذا، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن.

وإنما ذُكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجُب لا يحول بينه وبين الناظرين، وقد قرأها نافع (غيابات) وقرأ الجحدري (في غيبة الجب) ولعلهم عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم

﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾؛ وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك.

والسيارة هم الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر وقال ابن عباس: يريد المارة وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (سورة يوسف: ١٠) فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئًا من ذلك، وأما إن كان ولابد فاقتصروا على هذا القدر، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ (سورة النحل: ١٢٦) يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك.

وإشارة هذا القائل أخف من المناداة بقتل يوسف، وإن كان الإحتمالات بموت يوسف في الجب لا يزال قائمًا ولكنه ضعيف، ولا تخلوا الإشارة بإلقائه في غيابة الجب من أذى شديد ليوسف وأبيه، يعقوب ـ عليهما السلام ـ إلا أن بعض الشر أهون من بعض فالإنسان قد يقبل قطع اليد بدلاً من قطع الرقبة طالما لا يستطيع دفع كليهما، وقد يلجأ إلى أكل الميتة ـ وهي سم ـ استدفاعًا للهلكة، طالما لم يجد مباحًا يسد به رمقة ويرد به المخمصة عن نفسه، ونقول ضرر الميتة أقل من الهلكة المحققة أو التي يغلب على الظن حدوثها، وقس على ذلك المرأة التي خيف عليها الهلاك ولم تجد إلا رجلاً يطيبها وهذا اختيار لأخف المضرتين بدفع أعلاهما.

ولا ندري لماذا كانت شفقة هذا المشير مبتورة، ولماذا لم ينصح إخوته بكف الظلم والتعدي بالكلية عن أخيهم الصغير يوسف، فهذا أليق وأرفق به، وهذه هي النصيحة الواجبة في مثل هذه الحالات، إلا أن يكون قد رأى نفسه مغلوبًا مقهوراً من بقية إخوته فأداه عقله إلى إختيار أخف المضرتين، وهذا احتمال بعيد، إذ قوله: ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ (سورة يوسف: ١٠) لا يخلو من شر وتواطؤ على الإجرام في حق يوسف عليه السلام.

★ ***اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك:***

الظلم ظلمات، وهو كبيرة من الكبائر، ، وقد حرمه سبحانه دقه وجله.

وفي الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[(١)].

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لمعاذ: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[(٢)].

وقد توعد سبحانه الظالمين فقال: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤)

وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٢) قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢٧)) .

وفي الحديث: «من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: «يا رسول الله ولو كان شيئًا يسيرًا»، قال: «ولو كان قضيبًا من أراك»[(٣)].

والظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر... وظلم لا يُترك... وظلم مغفور لا يُطلب.

فأما الظلم الذي لا يُغفر: فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (سورة النساء: ٤٨).

وأما الظلم الذي لا يُترك: فظلم العباد بعضهم بعضًا.

وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب: فظلم العبد نفسه.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) في «البر والصلة».

(٢) رواه البخاري (١٤٩٦) في «الزكاة»، ومسلم (١٩) في «الإيمان»، والترمذي (٦٢٥) في «الزكاة»، وأبي داود (١٥٨٤) في «الزكاة».

(٣) رواه مسلم (١٣٧) في «الإيمان»، والنسائي (٥٤١٩) في «آداب القضاء»، وأحمد (٢١٧٣٦).

نادى رجل سليمان بن عبد مالك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان، فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤) قال ففيم ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه.

وكان معاوية رضي الله عنه يقول: **«إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصراً إلا الله»**.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»**.

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين، وإذا مناد ينادي: حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: من سلب نعمة غيره، سلب نعمته غيره، ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه.

وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليَّ وصاروا يداً واحدة، فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكراً، فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال يوسف بن أسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصي الله في أرضه.

وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدد العظام، فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا؟ فيقولون: إي والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين.

وقد ورد: أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

وقال ابن مسعود ﷺ: **«لما كشف العذاب عن قوم يونس ﷺ ترادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه»**.

وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه.

وقال البعض: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب.

وكان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك.

وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله.

وبكى علي بن الفضل يومًا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

وروي أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يومًا من غير ذنب، فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك، قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم، رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم، فقال أنوشروان: زه زه [1].

وقال أبو الدرداء ﷺ: **«إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم فإنه تسري بالليل والناس نيام»**.

فيتعين على كل عاقل أن يكف يده عن الظلم، ويسلك سنن العدل، ويعامل بالنصفة ويراقب الله في السر والعلانية، ويعلم أن الله يجازي على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم، ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته.

---

(١) أي أحسنت، وقد تستعمل في التهكم أيضًا.

فإياك ودعوة المظلوم، فإنما يسأل الله تعالى حقه، واحذر إذا شخص ببصره إلى السماء فقال الله عزَّ وجلَّ: لبيك عبدي حقًّا لأنصرنك ولو بعد حين، واذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت.

★ *اللقيط:*

اللقيط هو الطفل البالغ الذي يوجد في الشوارع، أو ضل الطريق ولا يعرف نسبه، والتقاطه فرض من فروض الكفاية كغيره من كل شيئ ضائع، لا كافل له لأن في تركه ضياعه، ويحكم بإسلامه متى وُجد في بلاد المسلمين، والذي يجده، هو الأولى بحضانته إذا كان حرًا عدلاً أمينًا رشيدًا، وعليه أن يقوم بتربيته وتعليمه.

روى سعيد بن منصور في سننه أن سنين بن جميلة قال: وجدت ملقوطًا فأتيت به عمر بن الخطاب، فقال عريفي: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح، فقال عمر: أكذلك هو؟ قال: نعم، قال: اذهب به، وهو حر ولك ولاؤه[1]، وعلينا نفقته وفي لفظة: وعلينا رضاعه.

فإن كان في يد فاسق أو مبذر أخذ منه وتولى الحاكم أمر تربيته، وينفق عليه من ماله، إن وجد معه مال فإن لم يوجد معه مال، فنفقته من بيت المال، لأن بيت المال معد لحوائج المسلمين، فإن لم يتيسر فعلى من علم بحاله أن ينفق عليه، لأن ذلك إنقاذ له من الهلاك.

وإذا مات اللقيط وترك ميراثًا ولم يخلف وارثًا كان ميراثه لبيت المال، وكذلك ديته تكون لبيت المال إذا قتل، وليس للملتقطه حق ميراثه.

ومن ادعى نسبه من ذكر أو أنثى ألحق به متى كان وجوده منه ممكنًا، لما فيه من مصلحة اللقيط دون ضرر يلحق بغيره، وحينئذ يثبت نسبه وإرثه لمدعيه.

---

(١) أي ولايته وحضانته.

فإن ادعاه أكثر من واحد ثبت نسبه لمن أقام البينة على دعواه، فإن لم يكن لهم بينة أو أقامها كل واحد منهم عرض على القافة - الذين يعرفون الأنساب بالشبه - ومتى حكم بنسبه قائف واحد، أخذ بحكمه، متى كان مكلفًا ذكرًا عدلاً مجربًا في الإصابة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ النبي ﷺ مسرورًا تبرق أسارير وجهه، فقال: «ألم تري أن مجززًا المُدلجي نظر آنفًا إلى زيد وأسامة وقد غطيا رؤسهما وبدت أقدامهما»، فقال: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»[1].

فإن لم يتيسر ذلك اقترعوا بينهم، فمن خرجت قرعته كان له، وخالفت الحنفية في ذلك، فقالوا: لا يعمل بالقائف ولا بالقرعة، بل لو تساوى جماعة في ولد وكان مشتركًا بينهم ورث كل منهم كابن كامل وورثوه كأب واحد.

وقد يلتقط البعض ولدًا من الملجأ أو الشارع ثم ينسبه لنفسه ويجريه مجرى الإبن في التسمية والميراث والاختلاط بالنساء حال كبره... وهو ليس إبنًا له في الحقيقة، قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ فلو قام على شئونه ورعايته والقيام بمصالحه، فهذا عمل صالح، ولا حرج في أن يتصدق عليه ويهبه شيئًا من ماله، لا على سبيل الميراث، ويصير أجنبيًا بالنسبة لزوجة الرجل ومحارمه حال بلوغه، لأنه ليس ابنًا من الرضاع ولا من النسب... والبنت الملتقطة تصير أجنبية بالنسبة للرجل الذي التقطها وأولاده...

كذلك وفي قوله تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠) أي يجده من غير أن يحتسبه، وقال ابن العربي: إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد، كما حكم أنه مسلم أخذًا بالغالب، ولأن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣١) في المناقب، ومسلم (١٤٥٩) في الرضاع، والترمذي (٢١٢٩) في الولاء والهبة، وأبي داود (٢٢٦٧) في الطلاق.

★ غدر وخيانة:

لما تواطؤا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (سورة يوسف:١١) وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك ببني يعقوب!

ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب.

فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الإحتيال ولعلهم سألوا أباهم قبل ذلك أن يُخرج معهم يوسف فأبى.

وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة يوسف:١٢) فحينئذ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ (سورة يوسف:١٣) فقالوا: حينئذ جوابًا لقوله: ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (سورة يوسف:١١) وإمعانًا في الخداع قالوا لأبيهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (سورة يوسف:١١)، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة يوسف:١٢) أي من كل ما تخاف عليه.

وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به.

إن المكر والخديعة والخيانة في النار.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ (سورة يونس:٢٣) وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (سورة الفتح:١٠) وقال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (سورة فاطر:٤٣) وكم أوقع العذر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فماله من قوة ولا ناصر.

إن البغي من أعجل الأشياء عقوبة، وأي خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق، وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوىء الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن إحتمال المكاره، في جنب نيل المكارم.

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير، قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر،، وكان كذلك لم يتم أمره.

وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم غدر بعلي ﷺ وقتله، وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام ﷺ وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة غدر بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ وقتله.

اللهم إنا نعوذ بك من البغي وأهله ومن الغادر وفعله.

★ ***اللعب المباح والمحظور***[1]:

قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة يوسف:١٢) أي ليتدرب بذلك ويترجل، فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره، والمراد من اللعب الإقدام على المباحات وليفرح يوسف بذلك.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا: ﴿وَنَلْعَبْ﴾ وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقد ذكر ابن كثير أن نبوتهم لم تثبت لا قبل ذلك ولا بعد ذلك.

---

(١) راجع كتابنا «ضوابط شرعية للألعاب الرياضية».

وقيل: المراد باللعب المباح من الإنبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم: ﴿وَنَلْعَبْ﴾ ومنه قوله ﷺ لجابر بن عبد الله عندما أراد أن يتزوج: «فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك»[(١)] والنفس بحاجة لشيء من الترويح والتخفيف، ولذلك عندما قال حنظلة الأسيدي لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرًا، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»، **وكررها ثلاثًا**[(٢)].

وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًا، هاشًا باشًا ضحاكًا بسامًا، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن، وكان يأمر الركب أن ينطلق ثم يسابق السيدة عائشة رضي الله عنها، ويقول: «خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(٣)]، وصح عنه أيضًا أنه قال: «إن لربك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا ولنفسك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه»، وأقر لعب الحبشة بالحراب في المسجد وقال: «دونكم بني أرفدة»، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «**إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاختاروا لها طرائف الحكمة**»، وقال: «**روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي**».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل (اللهو المباح) ليكون أعون لها على الحق**».

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «ارموا وأنا معكم»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤٧) في «النكاح»، والنسائي (٣٢١٩) في «النكاح»، وأحمد (١٤٤٨٠).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠) في «التوبة»، والترمذي (٢٥١٤) في «صفة القيامة».
(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٥) في «المناقب»، وابن ماجه (١٩٧٧) في «النكاح».
(٤) رواه البخاري (٣٣٧٣) في «أحاديث الأنبياء»، وأحمد (١٦٠٩٣).

وقد صارع النبي ﷺ ركانة فصرعه ثلاث مرات، وكان ركانة من مشاهير العرب بالقوة، وروت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: **«لقد رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأمه، فأقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»**[(١)] .

وقال ﷺ: «ارموا واركبوا»[(٢)] ، وقال: «كل شيء لي من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغرضين للرمي، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليمه السباحة» (رواه الطبراني بإسناد جيد).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: **«علموا أولادكم السباحة والرماية، ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثباً»** وفي الحديث: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل».

فمن الرياضات الجائزة: المصارعة والسباحة والجري على الأقدام أو الدراجات أو السيارات وحمل الأثقال وسباق الزوارق البحرية وحل المسائل العلمية، ومن الألعاب المحرمة: اللعب بالنرد أو الطاولة، حتى وإن خلا من القمار لقول النبي ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»[(٣)] ، والشطرنج شر من النرد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، مرَّ عليٌّ بن أبي طالب على قوم يلعبون بها فقال لهم: **«ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»**.

ومن ذلك نهي النبي ﷺ عن التحريش بين البهائم، ولعنه من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا . . .

وقد وردت النصوص بذم الدنيا ووصفها بأنها لعب ولهو وزينة كما في قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ (سورة الحديد: ٢٠) وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٦) في «النكاح»، ومسلم (٨٩٢) في« صلاة العيدين»، والنسائي (١٥٩٥) في «صلاة العيدين».
(٢) رواه الترمذي (١٦٣٧).
(٣) رواه مسلم (٢٢٦٠) في «الشعر»، وأبي داود (٤٩٣٩) في «الأدب».

﴿الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٤) وهذا الذم إنما ينصرف لأفعال العباد المخالفة لشرع الله، وقد كان البعض يقول: متاع الغرور ما ألهى صاحبه عن طلب الآخرة، وما لم يُلهك عن طلب الآخرة فليس بمتاع غرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو أبلغ منه، ولما رأى البعض إخوانًا له يلعبون، فسألهم فقالوا له: فرغنا، فقال لهم: ما بهذا أمر الفارغ قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (سورة الشرح:٧-٨) فلكل مقام مقال، والحرج كل الحرج أن تصبح الحياة لعبًا ولهواً وانصرافًا عن طاعة الله، والعيب كل العيب أن نتشبه بأهل الجاهلية، فنقول: اليوم خمر وغداً أمر، أو ساعة لربك وساعة لنفسك، فنعصي ربنا بزعم الترويح عن النفس والتخفيف عنها!!

★ ***البلاء موكل بالمنطق:***

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي يشق عليَّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخُلق صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (سورة يوسف:١٣).

يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا: مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ (سورة يوسف:١٤). يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذًا لهالكون عاجزون، وقد اعتذر يعقوب عليه السلام إليهم بشيئين:

أحدهما ـ أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثاني ـ خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة إهتمامهم به.

وقد ذكر الكلبي أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف فلذلك خافه عليهم، وقيل: إنه رأى في منامه كأنه على زورة جبل، وكأن يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام، فكانت العشرة إخوته، لما تمالئوا على قتله، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام، وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب، فخوفه إنما كان من قتلهم، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم، قال ابن عباس: فسماهم ذئابًا، وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب، لأنه أغلب ما يخاف في الصحاري.

وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق، فكأن الأب ألهمهم حجتهم التي سيعتذرون بها فيما بعد، عندما يزعمون أن الذئب قد أكله.

وقد أجاب الأبناء بقولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فحلفوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذًا لقوم خاسرون، وأكدوا كلامهم باللام والواو، فاللام تدل على إضمار القسم، والواو واو الحال، ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ أي في حفظ أغنامنا، فإذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا، وقيل: ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ لجاهلون بحقه، أو لعاجزون أو أنهم يكونون مستحقين لأن يُدعى عليهم بالخسارة والدمار، وأن يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون.

وقد أجاب الأبناء عن أحد الإعتذارين دون الآخر، ولعل حقدهم وغيظهم لما كان بسبب العذر الأول وهو شدة حب يعقوب ليوسف، فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه، واكتفوا بقولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾.

★ هل أقسموا لإحكام مكرهم؟!:

أكد الأخوة كلامهم لأبيهم بقولهم ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ قال صاحب الكشاف: هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره: والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين.

فعلى هذا يكون القسم إمعانًا في الخداع وإحكامًا للمكر، ويكون شبيهًا بقسم إبليس لأبينا آدم ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (سورة الأعراف: ٢١-٢٢) ولم يعهد آدم عليه السلام مخلوقًا يحلف بالله كذبًا، ولذلك انخدع له، قال العلماء: من خدعنا بالله انخدعنا له، وروى مسلم: أن المسيح عليه السلام رأى رجلاً يسرق، فقال: سرقت، فقال الرجل: والله ما سرقت، فقال المسيح: «آمنت بالله وكذبت عيني».

وقد ذكر العلماء من صور اليمين، اليمين الغموس وتسمى أيضًا: الصابرة - وهي اليمين الكاذبة التي تُهضم بها الحقوق، أو التي يقصد بها الغش والخيانة وهي كبيرة من كبائر الإثم، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا كفارة فيها[1]، لأنها أعظم من أن تكفر، وسميت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وتجب التوبة منها ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النحل: ٩٤).

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[2].

---

(١) قال الشافعي ورواية عن أحمد. فيها الكفارة.

(٢) رواه البخاري (٦٦٧٥) في «الأيمان والنذور»، والترمذي (٣٠٢١) في «تفسير القرآن»، والنسائي (٤٠١١) في «تحريم الدم».

وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين مصبورة كاذبًا فليتبوأ بوجهه مقعده من النار»(١).

ومن حلف على شيء وورى بغيره فالعبرة بنيته لا بلفظه، إلا إذا حلّفه غيره على شيء فالعبرة بنية المحلِّف لا الحالف، وإلا لم يكن للأيمان فائدة في التقاضي.

قال النووي: إن اليمين على نية الحالف في كل الأحوال إذا استحلفه القاضي أو نائبه في دعوى توجهت عليه فهي على نية القاضي أو نائبه، ولا تصح التورية هنا وتصح في كل حال، ولا يحنث بها وإن كانت للباطل حرامًا.

والدليل على أن العبرة بنية الحالف إلا إذا حلفه غيره، ما رواه أبو داود وابن ماجه عن سويد بن حنظلة قال: «خرجنا نريد النبي ﷺ ومعنا وائل بن حُجْر، فأخذه عدو له، فتحرج القوم أن يحلفوا، وحلفت أنه أخي، فخلى سبيله فأتينا النبي ﷺ فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا، وحلفت أنه أخي. قال: «صدقت، المسلم أخو المسلم»(٢)، والدليل على أن العبرة بنية المستحلف إذا استُحلفَ على شيء، ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اليمين على نية المستحلِف»، وفي رواية: «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك»، والصاحب هو المستحلف وهو طالب اليمين ومن حلف أن لا يفعل شيئًا ففعله ناسيًا أو خطأً فإنه لا يحنث(٣)؛ لقول الرسول ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»(٤).

ويقول تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ (سورة الأحزاب:٥) ولا يلزم الوفاء باليمين التي يُكره المرء عليها، ولا يأثم إذا حنث، ولأن المكره مسلوب الإرادة،

---

(١) رواه أبي داود (٣٢٤٢) في «الأيمان والنذور»، وأحمد (١٩٤١١).
(٢) رواه أبي داود (٣٢٥٦) في «الأيمان والنذور»، وابن ماجه (٢١١٩) في «الكفارات»، وأحمد (١٦٢٨٥).
(٣) الحنث في اليمين يكون بفعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله.
(٤) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) في «الطلاق».

وسلب الإرادة يسقط التكليف. ومن أراد المزيد من الأحكام فعليه بمراجعة (الأيمان) من كتب الفقه.

★ *بئس ما أجمعوا عليه:*

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته عند أبيهم بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ (سورة يوسف:١٥). هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له وبسطًا وشرحًا لصدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعثه ضمه إليه وقبَّله ودعا له.

فذكر السدي وغيره: أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه، وتواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها (ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره).

وقال القرطبي: قيل في القصة: إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقًا غليظًا ليحفظُنه، وسلمه إلى روبيل، وقال: يا روبيل إنه صغير، وتعلم يا بني شفقتي عليه، فإن جاع فأطعمه، وإن عطش فاسقه، وإن أعيا فاحمله، ثم عجل برده إليَّ، قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يشُيِّعهم ميلاً ثم رجع، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف، فاستغاث بروبيل وقال: «أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي عليَّ، وأقرب الأخوة إليَّ، فارحمني وارحم ضعفي» فلطمه لطمة شديدة

وقال: لاقرابة بيـني وبينك، فادع الأحد عشر كـوكبًا فلتنجك منا، فعـلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال:

يا أخي، ارحم ضعفي وعـجزي وحداثة سني، وارحم قلب أبيك يعقـوب، فما أسرع ما تناسيتم ،صيته ونقـضتم عهده، فرقَّ قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبدًا مـا دمتُ حـيًا، ثم قـال: يا إخـوتاه، إن قـتل النفس التي حـرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصـبي إلى أبيه، ونعاهده ألا يحـدِّث والده بشيء مما جرى أبدًا، فقال له إخوته: والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلنـك معه، قـال: فإن أبيتم إلا ذلك فـهاهنا هذا الجب الموحش القـفر، الذي هو مأوى الحيات والهوام فألقوه فيه، فإن أصيب بشئ من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه، وإن انفلت على أيد سـيارة يذهبون به إلى أرض فهو المـراد، فأجمع رأيهم على ذلك فهـو قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ (سورة يوسف: ١٥).

قال الرازي في تفسيره: فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيـه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميـصه، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعـقوب، فقال لهم ردوا عليَّ قمـيصي لأتوارى به، فـقالوا: ادع الشمس والقـمر والأحد عـشر كوكـبًا لتؤنسك، ثم دلوه في البـئر حتى إذا بلغ نصـفها ألقوه ليـموت، وكان في البئـر ماء فسـقط فيه ثم آوى إلـى صخرة فـقام بها وهو يبكي فنادوه فـظن أن رحمة أدركـتهم فأجابهم فـأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقـام يهوذا فمنعهم وكان يهـوذا يأتيه بالطعام، وروى أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال: يا شاهدًا غير غائب، ويا قـريبًا غير بعيد، ويا غالبًا غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا.

ورُوي عن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار جُـرد عن ثيـابه فـجاءه جـبـريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب،

فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام، فأخرجه وألبسه إياه. اهـ.

★ الإسرائيليات وحكمها [١]:

قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (سورة النساء: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٤٦).

وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (سورة المائدة: ١٥).

وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ (سورة المائدة: ٤١).

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم، والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل وهي اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى.

وكذلك التوراة والتلمود دونها أحبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة، واختلافاتها الكثيرة وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالى. فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة. أما أخبارها وقصصها فهى مترددة

---

(١) راجع كتاب «منهج التاريخ الإسلامي» لمحمد بن صامل العلياني.

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥) في «تفسير القرآن».



بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا... الآية»[٢].

ومن المعلوم أن القصص الإسرائيلي من أوسع القصص تفصيلاً لمعلومات تاريخية ولعهود وأزمان سحيقة، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الإعتماد على شيء من ذلك في الأمور الشرعية، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن أو السنة مجملاً أو الذي يغطي به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته فإنه لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان لا الإعتماد كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين من أمثال الإمام ابن تيمية والحافظ ابن كثير.

فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة اقسام:

١ - ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذلك صحيح.

٢ - ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذلك كذب.

٣ - ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا فلا نصدق به ولا نكذبه.

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته لما ورد من الإباحة في ذلك، وغالب هذا مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا كان بعض الصحابة ﭬ يسأل مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار عن بعض جزئيات الحوادث، وتفصيل مجملات القصص في القرآن بقدر ما يرون أنه مبين للقصة وموضح لما أجمل فيها ولا يخرج عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ﷺ بقوله: «حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»[١].

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) في «أحاديث الأنبياء»، والترمذي (٢٦٦٩) في «العلم»، وأحمد (٦٤٥٠).

ومن هذا الباب أورد بعض الأئمة الكبار مثل هذه الأخبار والأحاديث الإسرائيلية في كتبهم وتفاسيرهم، لا ليثبتوا بها حكمًا شرعيًا أو يعتقدوا صحتها وإنما على سبيل المعرفة والاستشهاد وحكاية الأقوال، وهم مع ذلك ينبهون في الغالب على ما فيها من الخطأ إما تلميحًا أو تصريحًا، وقد يسكتون أحيانًا لوضوح الأمر.

يقول ابن تيمية: «علماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي ﷺ لأنه واجب القبول، وفيما ينقل عن الصحابة، أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها فهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلتها، لأن أصلها غير معلوم، وغايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب، لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[١] فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الاحتراز في نقلته».

ومن الغريب أن بعض الكُتَّاب المعاصرين يعتمدون في مصادرهم التاريخية على التوراة والإنجيل وينقلون عنهما مباشرة ويعارضون بما فيهما الأحاديث الصحيحة في حين يعيبون على علماء التفسير وغيرهم رواية الإسرائيليات وإدخالها في تفسير القرآن الكريم، ولو فكروا لعلموا أن الأوائل رجعوا إلى نسخ أقدم وربما أوثق من النسخ التي رجعوا هم لها في العصر الحاضر.

بل إن بعضًا من الكُتَّاب المعاصرين يعتمد على التوراة كمصدر تاريخي ويستبعد القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا متابعة للمنهج الاستشراقي الماكر الذي لا يؤمن برسالة النبي ﷺ ولا صدقه.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥).

★ العداوة والبغضاء:

ذكر سبحانه العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (سورة المائدة:١٤). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة يوسف:٥). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (سورة فاطر:٦). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ (سورة التغابن:١٤).

قال لقمان: نقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئًا أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئًا ألذ من العافية.

وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب مجاورين في بلد، اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم.

وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد، قال: شماتة الأعداء.

ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحًا إلا في فسادك، ولا رفعة إلا في سقوط حالك. كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الأعداء ويقال: دار عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكنك.

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً، قال: عدوي، قيل: وكيف ذلك. قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن.

وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفي وبطن.

وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضًا لصاحبه.

ولما أراد كسرى أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم

من حسن سيرته ما رأيتم. فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال إن قصره من رجليه، ولا يكاد يرى إلا جالسًا أو راكبًا، فلا يستبين ذلك فيه، فقيل: هو بغيض في الناس، فقال كسرى: أواه هلك ابني هرمز فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه.

وعين البغض تبرز كل عيب ★ وعين الحب لا تجد العيوبا

وقال البعض: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفًا، فإن القناة قد تقتل. وما أحسن ما قاله عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقينا ★ وعادة الله في الماضين تكفينا

كاد الأعادي فلا والله ما تركوا ★ قولاً وفعلاً وتلقينًا وتهجينا

ولم نزد نحن في سر وفي علن ★ كل مقالتنا يا ربنا اكفينا

فكان ذاك ورد لله حاسدنا ★ بغيظه لم ينل تقديره فينا

★ قسوة قلب وغلظة كبد:

روى «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مُغتمًا بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «مالك تكون محزونًا»؟، فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبًا في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله وإن أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك، فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولُدت لي بنت، فتشفعت إليَّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحميَّة ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسُرَّت بذلك وزينتها بالثياب والحُليِّ، وأخذت عليَّ المواثيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرتُ في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول يا أبت! أيْش أن تفعل بي! فرحمتها، ثم

نظرت في البئر فدخلتْ عليَّ الحميَّة، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت! لا تُضيِّع أمانة أمي، فجعلتُ مرةً أنظر في البئر ومرة إليها وأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسةً وهي تنادي في البئر: يا أبت، قتلتني، فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أُمِرتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك».

الرحمة لا تُنزع إلا من شقي وخصوصًا إذا كان أبًا أو أخًا، ويتضح هذا أكثر إذا كان المجني عليه بلا ذنب بنتًا أو أختًا صغيرًا، والجاهليات تتشابه، وفيها تنحرف السلوكيات والأقوال والأفعال عن مقتضى الفطرة السوية والعقول السليمة والشريعة المنزلة، وما أكثر الأبرياء الذين انتقلوا إلى ربهم، تشكوا أرواحهم ظلم الفجرة، ومن رحمة الله، أن الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

★ الاجماع المعتبر:

الحق مقبول من كل من جاء به، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان، ودين الله ليس دينًا ديمقراطيًا، بل هو دين (اعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه)، والحق أبلج وعليه نور، وهو ما وافق الكتاب والسنة، والباطل بضد ذلك، والحق لا يُعرف بكثرة ولا بقلة ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة الأنعام:١١٦)، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف:١٠٣) فقد تتفق كلمة الأكثرين على الباطل، فلا يصيره ذلك مشروعًا، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به - لرجل قتله جماعة - فقتلهم عمر به، وقد قال سبحانه عن إخوة يوسف: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ (سورة يوسف:١٥) فلم يكن اجتماعهم محمودًا ولا مرحومًا، ولم يكن فعلهم مشروعًا.

أما الاجماع الذي هو حجة، وأصل من أصول الاستنباط، فهو اتفاق علماء العصر من أمة محمد ﷺ على أمر من أمور الدين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (سورة النساء: ١١٥) وما ثبت عن رسول الله ﷺ مثل قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق...»، وفي الحديث: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، وأحاديث الحض على الجماعة وعدم الشذوذ عنها.

وقد كان الصحابة يستدلون بمثل تلك الأحاديث على حجية الإجماع، ولا يشترط في أهل الاجماع أن يبلغوا عدد التواتر، ولا يعتد فيه بقول الصبيان والمجانين، وأما العوام فلا يُعتبر قولهم عند الأكثيريين إذ لا عبرة بهم لجهلهم كما يستحيل معرفة أقوال الأمة جميعها ومن يعرف من العلم مالا أثر له في الأحكام الشرعية كعلم الكلام واللغة والنحو والحساب لا عبرة به في الاجماع لأنه بالنسبة إلى الأحكام الشرعية عامي.

ولا يعتبر في الاجماع بقول الكافر سواء كان بتأويل أو غيره، فأما الفاسق باعتقاد أو قول أو فعل فقال القاضي لا يعتد به وهو قول جماعة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣). أي: عدولاً، وهو ليس بعدل، ولأنه لا يُقبل منفردًا فلا يُقبل مع غيره، ولا ينعقد الاجماع بقول الأكثرين من أهل العصر في قول الجمهور وحجة الجمهور أن العبرة بقول علماء جميع الأمة لأن العصمة إنما هي للكل لا البعض.

وإجماع أهل المدينة ليس بحجة، وقال مالك هو حجة، أما حجة الجمهور على أنه غير حجة فواضحة لأنهم بعض الأمة والمعتبر اجماع الأمة كلها.

واتفاق الخلفاء الأربعة ليس باجماع عند الجمهور والصحيح أنه حجة وليس باجماع لأن الاجماع لا يكون إلا من الجميع.

وإجماع أهل كل عصر حجة كاجماع الصحابة، وقد اشترط الإمام أحمد انقراض العصر، وقال الجمهور: لو اتفقت كلمة الأمة ولو في لحظة واحدة انعقد الإجماع.

والصحابة وغيرهم من أهل كل عصر، إذا اختلفوا ثم اتفقوا كان اجماعًا، وإذا اختلفت الصحابة في المسألة على قولين، لم يجز إحداث قول ثالث مخالف لقوليهم وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، ثم إذا قال بعض الصحابة قولاً في تكليف فانتشر في بقية الصحابة فسكتوا ففي ذلك ثلاثة أقوال، والحق أنه اجماع سكوتي، وبه قال أحمد وأكثر الشافعية والمالكية تنزيلاً للسكوت منزلة الرضا والموافقة.

وقد ذهب أكثر الأصوليين إلى أن الاجتهاد والقياس يصح أن يكون مستند للاجماع مثل الاجماع على تحريم شحم الخنزير قياسًا على لحمه، والاجماع على تحريم القضاء في حالة الجوع والعطش المفرطين ونحو ذلك من مشوشات الفكر قياسًا على الغضب المنصوص عليه في الحديث المتفق عليه: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان». ومن أراد معرفة المزيد من التفاصيل عليه بالرجوع إلى كتب أصول الفقه والحديث.

★ *انزال اليسر في حالة العسر:*

الناس لا يرون الجب إلا مكانًا مظلمًا موحشًا كئيبًا، يضيق على من وضُع فيه ويصير بالنسبة له محنة، أما المؤمن فيرى ذلك منحة في صورة المحنة، فهو يعلم أن الله لا يضيع أهله وأولياءه، وسيجعل من بعد عسر يسراً، فلا يملك إلا أن يصبر ويحتسب ويضرع إلى ربه في شدته وبلاءه وكربه، فيتداركه سبحانه بمنه وكرمه ورحمته ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٥)، يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيبًا لقلبه وتثبيتًا له: إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٥)، قال مجاهد وقتادة: أي بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يشعرون بك، وذكر ابن جرير عن ابن عباس قال: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم

وهم له منكرون قال: جيء بالصواع فوضعه على يدهِ ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم، يقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نقره فطن قال: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم، قال ابن عباس رضي الله عنهما فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٥).

وقيل: إن المراد بالوحي المذكور في الآية، النبوة والرسالة، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغًا أو كان صبيًا، قال بعضهم: إنه كان في ذلك الوقت بالغًا وكان سنه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحًا لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام ، ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه وتشريفه به، وأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات، كما أن في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٥) إشارة إلى تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه.

★ *معنى الوحي وكيفيته:*

الوحي: هو الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. والوحي بمعناه اللغوي يتناول.

١ ـ الإلهام الفطري للإنسان كالوحي إلى أم موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (سورة القصص:٧).

٢ ـ الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة النحل:٦٨).

٣ ـ الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (سورة مريم: ١١).

٤ ـ وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢).

٥ ـ وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (سورة الأنفال: ١٢).

ووحي الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعًا بأنه: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه. وقد جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكته: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة: ٣٠).

وعلى إيحائه إليهم: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (سورة الأنفال: ١٢) وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (سورة الذاريات: ٤) كما ثبت أن القرآن الكريم كتب في اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (سورة البروج: ٢١-٢٢).

وقد نزل القرآن جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في لية القدر من شهر رمضان، ومنه منجمًا مفرقًا على قلب رسول الله ﷺ، ويدل على التنزل الأول قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (سورة القدر: ١)، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (سورة الدخان: ٣)، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، ويدل على التنزل الثاني قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٦).

وأهل السنة والجماعة على أن جبريل تلقف القرآن سماعًا من الله بلفظه المخصوص، فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسول الله ﷺ والمتعبد بتلاوته.

والله تعالى يوحي إلى رسله بواسطة وبغير واسطة.

فالأول ـ بواسطة جبريل ملك الوحي.

والثاني ـ وهو الذي لا واسطة فيه ومنه الرؤيا الصالحة في المنام، والكلام الإلهي من وراء حجاب.

(أ) الرؤيا الصالحة في المنام: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: **«أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»**[1] .

وليس في القرآن شئ من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة، ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء وحي يجب اتباعه، قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الصافات: ١٠١-١٠٧).

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيًا يجب اتباعه للأنبياء لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده، لولا أن منَّ الله عليه بالفداء. وقد انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن يراها أو تُرى له.

والرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (سورة الشورى: ٥١).

(ب) الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة.

---

(١) سبق تخريجه.

وهو ثابت لموسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣).

كما ثبت التكليم على الأصح لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج، وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية: ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (سورة الشورى: ٥١) وليس في القرآن شئ منه كذلك.

كيفية وحي الملك رلى الرسول: والقرآن الكريم مزل به، وهو الذي عناه سبحانه بقوله: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (سورة الشورى: ٥١) وملك الوحي هو جبريل، ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:

١ ـ وهي أشد على الرسول: من يأتيه مثل صلصة الجرس.

٢ ـ أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر.

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: **«أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»**[1] وذكرت رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة فقالت: **«ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»**[2].

أما النفث في الروع الوارد في الحديث: **«إن روح القدوس نفث في روعي ..»**، فليس حالة مستقلة ويحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة وينفث في روعه، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، والنسائي (٩٣٤) في الافتتاح وأحمد (٢٥٦٦٦).
(٢) رواه البخاري (٢) في بدء الوحي.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ (سورة يوسف:١٥) قال القرطبي: دليل على نبوته في ذلك الوقت، قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة: أعطاه الله النبوة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء، وقال الكلبي: ألقى في الجب وهو ابن ثماني عشرة سنة، فما كان صغيرًا، ومن قال كان صغيرًا فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه، وقيل: كان وحي إلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (سورة النحل:٦٨) وقيل: كان منامًا، والأول أظهر ـ والله أعلم ـ وأن جبريل جاءه بالوحي.

★ ***النبوة هبة ربانية:***

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص لها من يريد من خلقه، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام:١٢٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك:١٤).

وهذه النبوة لا تدرك بالجد والاجتهاد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي محض فضل من الله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة البقرة:١٠٥) فهي إذًا، إصطفاء واجتباء، ولا تكون إلا لمن اختاره الله تعالى لها ممن هم أهل لحملها والقيام بتبعاتها، لأنها حمل ثقيل وتكليف عظيم، لا يقدر عليها إلا أولو العزم من الرجال، كما قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (سورة المزمل:٥).

والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء، وإنما هي اختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، من بين سائر البشر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (سورة الحج:٧٥) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران:٣٣) وقال جل وعلا بعد أن ذكر طائفة من المرسلين: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (سورة ص:٤٧).

اللهم يا هادي الضالين ويا راحم المذنبين، ومقيل عثرات العاثرين، نسألك أن تلحقنا بعبادك الصالحين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين اللهم طيِّبنا للقائك، وأَهِّلْنَا لولائك، وأدخلنا مع المرحومين من أوليائك، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وتلاوة كتابك واجعلنا من حزبك المفلحين وأيدنا بجندك المنصورين، وارزقنا مرافقة الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

★ يا عالم كل نجوى ويا منتهى كل شكوى:

جاء في كتب التفسير من قصة يوسف عليه السلام، أنه لما قام على الصخرة كما قال وهب، قال: يا إخوتاه، إن لكل ميت وصية فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضًا فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريبًا فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شابًا فاذكروا شبابي، فقال له جبريل: يا يوسف، كُف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان ثم علمه فقال: قل: «اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملأ، يا حيّ يا قيوم، اسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا، إنك على كل شئ قدير، فقالت الملائكة إلهنا: نسمع صوتًا ودعاءًا، الصوت صوت صبي، والدعاء دعاء نبي».

وقال الضحاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب؟ فقال: نعم، فقال له: قل: يا صانع كل مصنوع، ويا جابر كل كسير، ويا شاهد كل نجوى، ويا حاضر كل ملأ، ويا مفرج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد،

إيتني بالفرج والرجـاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحـدًا سواك، فرددها يوسف في ليلته مرارًا، فأخرجه الله في صبيحة يومه من الجب.

اللهم يا فـالق الحب والنوى، يا مُنشيء الأجسـاد بعد البلى، يا مـؤي المنقطعين إليـه، يا كافي المتـوكلين عليـه، انقطع الرجاء إلا مـنك، وخابت الظنون إلا فـيك، وضـعف الاعـتـماد إلا علـيك، نسـألك أن تُمطِر قـحْلَ قلوبنا من سـحـائب برِّك وإحسانك، وأن توفقنا لمـوجبات رحمتك وعزائم مغـفرتك، إنك جواد كريم رؤوف غفور رحيم.

اللهم يا عالم الخفيات، ويا رفيع الدرجـات، يا غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا أنت إليك المصيـر، نسألك أن تذيقنا برد عفوك، وحلاوة رحمتك، يا أرحم الراحمين وأرأف الرائفين وأكرم الأكرمين.

★ *البكاء ليس دليلاً على الصدق:*

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٦) يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعـد ما ألقوه فـي غيابة الجب: إنهم رجـعوا إلى أبيهم في ظـلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغـممون لأبيهم، ولم يكونوا صادقين في حزنهم ولا بكاءهم.

فروي أن يعـقوب عليه السلام لما سمع بكـاءهم قال: ما بكم؟ أجـري في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قمـيصه؟، وقال السـدي وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خـر مغشيًـا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتـحرك، ونادوه فلم يجب، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتـحرك له عِرْق، فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين، ضـيعنا أخـانا، وقتلنا أبانا، فلـم يفق يعقـوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل، فقال: يا روبيل، ألم أئتمنك على ولدي؟ ألم

أعهد إليك عهداً فقال: يا أبت، كُفَّ عني بكاءك أخبرك، فكفَّ يعقوب بكاءه، فقال: ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (سورة يوسف:١٧).

وإنما جاءوا عشاءً أي ليلاً، ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

ورواه ابن جنى عُشىً بضم العين والقصر. وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (سورة يوسف:١٧). فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص.

وروي: «أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت، فقال الشعبي: يا أبا أمية ما تراها تبكي؟ قال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق.

قال العلماء: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنُّعًا، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود ★ تبين من بكى ممن تباكى

★ أنواع البكاء:

البعض تنهمر دموعه ويبكي عند الفرح، والآخر قد يحدث له ذلك بسبب المرض والألم، وهناك دموع أشبه بدموع التماسيح ودموع النساء أسرع من دموع الرجال، والحزن كثيراً ما يتسبب في البكاء، كبكاء رسول الله ﷺ عندما مات عثمان بن مظعون، وبكاءه عند موت ولده إبراهيم، وقوله: «**إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا**

نقول ما يغضب الرب، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[١]؛ ولذلك فقوله ﷺ: «إن الميت ليُعَذَّب ببكاء أهله عليه»[٢] يُحمل على النياحة وتكلف رفع الصوت بالبكاء على الميت، أما بكاء الرحمة فلا حرج فيه.

وأفضل أنواع البكاء بكاء الخوف من الله، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[٣].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: **خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم خنين**[٤].

فالخوف المحمود هو الذي يقمع الشهوات ويكدر اللذات ويكف الجوارح عن المعاصي ويلزمها الطاعة، ولذلك قيل: ليس الخائف من بكى وعصر عينيه وإنما الخائف من ترك ما يعذب عليه.

وعلى هذا فلم يكن بكاء إخوة يوسف ولا خوفهم محمودًا بل كان حزنهم تصنعًا ودموعهم تكلفًا.

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) في «الجنائز»، ومسلم (٢٣١٥) في «الفضائل»، وأبي داود (٣١٢٦) في الجنائز، وأحمد (١٢٦٠٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٤) في «الجنائز»، ومسلم (٩٢٧) في «الجنائز»، والترمذي (١٠٠٢) في «الجنائز»، والنسائي (١٨٤٨) في «الجنائز».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري (٤٦٢١) في« تفسير القرآن»، ومسلم (٢٣٥٩) في «تفسير القرآن».



★ حكم السباق وأنواعه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي ننتضل ونتزامى، وهو نوع من المسابقة، قال الأزهري: النِّضال في السهام، والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما.

قال القشيري أبو نصر: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ (سورة يوسف:١٧) أي في الرمي، أو على الفرس، أو على الأقدام، والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئاب عن الأغنام.

وقال السدي وابن حبان: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ (سورة يوسف:١٧) نشتد جريًا لنرى أينا أسبق.

قال ابن العربي: المسابقة شِرْعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعَون على الحرب، وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها، فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، فقال لها: «هذه بتلك». اهـ.

«وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي قَرَدَ إلى المدينة فسبقه سلمة» (أخرجه مسلم).

وقد أجمع المسلمون على أن السَّبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنصل، قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبق فيها قمار، وقد سابق النبي ﷺ بين الخيل التي أضمرت، كما سابق بين الخيل التي لم تُضمرً، ولابد أن تكون المسافة معلومة وأن تكون الخيل متساوية الأحوال، وألا يسابق المضمرً مع غير المضمرً في أمد واحد، وغاية واحدة وأن تكون الخيل معدَّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن ولا يُحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها.

والأسباق ثلاثة:

▪ سَبَق يعطيه الوالي أو غيره من ماله متطوعًا فيجعل للسابق شيئًا معلومًا فمن سبق أخذه.

▪ وسَبَقٌ يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه، وهذا مما لا خلاف فيه.

▪ والسبق الثالث ـ اختُلف فيه، وهو أن يُخرج كل منهما شيئًا ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبقه وسَبَق صاحبه، وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلِّلاً لا يأمنا أن يسبقهما، فإن سبق المحلِّل أحرز السبقين جميعًا وأخذهما وحده، وإن سبق المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، ولا شيء للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أدخل فرسًا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار، ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار»[1].

واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز، وفي «الاختيارات الفقهية» من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة وظاهر كلام أبي العباس: لا يجوز اللعب المعروف بالطاب والمنقلة وكل ما أفضى كثيره إلى حرمة إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة، لأنه يكون سببًا للشر والفساد، وما ألهى وشغل عما أمر به فهو منهي عنه وإن لم يحرم جنسه كالبيع والتجارة وسائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب مما لا يُستعان به على حق شرعي فكله حرام.

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم: أن عائشة رضي الله عنها وجوار كُنَّ معها يلعبن بالبنات ـ وهي اللُّعب ـ والنبي ﷺ يراهُن فيرُخص فيه للصغار ما لا يرُخص فيه للكبار.

والصراع والسبق بالأقدام ونحوهما طاعة إذا قصد به نصرة الإسلام، وأخذ السبق (الرهان) عليه أخذ بالحق، فالمغالبة الجائزة تحل بالعوض (أي المقابل) إذا كانت مما ينتفع به في الدين كما في مراهنة أبي بكر رضي الله عنه، وهو أحد الوجهين في المذهب.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٧٩) في «الجهاد»، وابن ماجه (٢٨٧٦) في «الجهاد»، وأحمد (١٠١٧٩).

قلت: وظاهر ذلك جواز الرهان في العلم وفاقًا للحنفية لقيام الدين بالجهاد والعلم، والله أعلم. اهـ.

★ كاد المريب أن يقول: خذوني:

اعتذر إخوة يوسف لأبيهم فـ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (سورة يوسف:١٧) وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ (سورة يوسف:١٣) أخذوا ذلك من كلامه، فاعتذروا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه، فلا يبعد إذا تركوا يوسف عند متاعهم وثيابهم، وانصرفوا هم للرمي والإنتضال أن تنتهز ذلك الذئاب فتفترس يوسف، ثم أعقبوا هذا الاعتذار بقولهم ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ (سورة يوسف:١٧) أي بمصدق ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (سورة يوسف:١٧) في قولنا، ولم يصدقهم يعقوب لما أظهر منهم من قوة الهمه، وكثرة الأدلة، على خلاف ما قالوه.

وقيل: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (سورة يوسف:١٧) أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولاتهمتنا في هذه القضية لشدة محبتك في يوسف، قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما.

ولما كان الحق أبلج وعليه نور، والباطل لجلج وعليه ظلمة، علم المبطل أن لا ثقة ولا اطمئنان لكلامه، ولذلك تبوء محاولاته لتوثيق الكلام وتأكيده بالفشل إذ لا يستطيع أن يأتي بدليل صحيح على باطله، ولذلك قالوا: ما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل إلا وكان في الدليل ما يرد عليه ويُدحض بدعته.

وكذلك الأمر بالنسبة للنفاق، فما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (سورة محمد: ٣٠) مهما حاول أصحابه تكتم ذلك.

والنفاق يقوم على ساقيتين: وساقيـة الرياء وساقية الكذب، ومخرجه من عينين، عين ضعف البصيـرة وعين ضعف العزيمة، فإذا أكتملت هذه الأركـان استحكم بنيان النفاق، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار، فإذا كان يوم القيامة، يوم يبعثر ما في القبور ويحـصل ما في الصدور تبين لمن كانت بضـاعته النفاق أن مـا حصله كان سرابًا، يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

والمنافق لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن له، قد يسبق يمينه كلامه ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة المجادلة:١٦). والكذب والمعصية لها أثر في الوجه والبدن، كمـا أن للطاعة أثر، ولذلك قالوا: ليحذر أحـدكم أن يبيت عاصيًا فـيصبح وعليه أثر الذنب، ومن كان عنده إيمان وفراسة قد يستشعر ذلك.

ثم اعلم أن الإيمان لغة بمعنى التصديق كـما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ (سورة يوسف:١٧) أما شـرعًا فالإيمان قول وعـمل، قول باللسان وتصـديق بالجنان وعمل بالأركـان، وهو يـزيد وينقص، وزيادته بالطـاعـات ونقـصـانه بالمـعـاصي والزلات، والطاعات كلها من شُعب الإيمان وتُسمى إيمانًا، والمعاصي كلها من شُعب الكفر وتُسمى كفرًا، ودلائل كثيرة مذكورة في كتاب (معارج القبول) وغيره من كتب العقيدة.

★ المعصية قرينة الخذلان:

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (سورة يوسف:١٨) قال مجاهد: كان دم سخلة أو جـدي ذبحوه، وقـال قتـادة: كان دم ظبيـة، أي جاءوا على قـميـصه بدم مكذوب فـيه. وقـرأ الحسن وعـائشة «بـدم كِدب» أي بدم طري، يقـال للدم الطري الكدِب، وقال الشعـبي: هو المتغير، وقد بيَّن العلمـاء وأنهم لما أردوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة عـلامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التنييب، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهـو لابس القميص ويسلم القميص من

التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قاله ابن عباس وغيره.

وورد أيضًا عن ابن عباس أنه قال: لما نظر إليه، قال: كذبتم، ولو كان الذئب أكله لخرق القميص.

- وحكى الماردي أن في القميص ثلاث آيات:

حين: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ (سورة يوسف:١٨).

حين: ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ (سورة يوسف:٢٥).

حين: ﴿ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ (سورة يوسف:٩٦).

وقد اعترضه القرطبي، وقال: وهذا مردود فإن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قُدَّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به، وقد قيل: إن القميص الذي قُدَّ هو الذي أُتي به فارتد بصيرًا.

وروي أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه، فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب، وتزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يُفضي إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق، وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه، هل يريدون إلا ثيابه؟ فقالوا عند ذلك: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (سورة يوسف:١٧). عن الحسن وغيره: أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا.

قال القاضي: ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدًا لصدقهم، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعًا في نفس القميص ولابد في المعصية من أن يقْرن بها الخذلان، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الإيهام أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحًا علم بكذبهم.

وقال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ (سورة يوسف:٢٦) ولما أتى بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيراً.

★ *مثالب الكذب:*

مثالب الكذب أكثر من أن تذكر، فأخرج الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[١].

وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[٢].

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب فينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢٥١).
(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨) في «صفة القيامة».
(٣) رواه مسلم (٢٦٠٧) في «البر والصلة والآداب».
(٤) رواه الترمذي (١٩٧١) في «البر والصلة»، وفي موطأ مالك في كتاب «الجامع».

وعن أبي برزة مرفوعًا: «ألا إن الكذب يسود الوجه، والنميمة عذاب القبر». (رواه أبو يعلي والطبراني وابن حبان والبيهقي)

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت الليلة رجلين أتياني... قال: الذي رأيته يشُق شدقيه فكذاب يكذب الكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أوعد أخلف، وإذا عاهد غدر»[(٢)]، وفي رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وإن كان صادقًا»[(٤)].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدق وأنت له كاذب»[(٥)]. (رواه أحمد عن شيخه عمر بن هارون وفيه خلاف وبقية رواته ثقات)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كذب العبد تباعد الملك ميلاً من نتن ما جاء به»[(٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: **«ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»**[(٧)].

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٦) في «الجنائز».
(٢) رواه البخاري (٣٣) في «الإيمان»، ومسلم (٥٩) في «الإيمان».
(٣) رواه مسلم (٥٩) في «الإيمان».
(٤) رواه أحمد (٨٤١٦).
(٥) رواه أبي داود (٤٩٧١) في «الأدب»، وأحمد (١٧١٨٣).
(٦) رواه الترمذي (١٩٧٢) في «البر والصلة».
(٧) رواه الترمذي (١٩٧٣) في «البر والصلة»، وأحمد (٢٤٦٥٧).

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له ويل له»[(١)].

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[(٢)].

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع»، معناه: الزجر عن التحديث بكل ما سمع فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن[(٣)].

★ لا يصلح الكذب إلا في ثلاث:

روى الترمذي وحسنه عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: الرجل يكذب في الحرب والحرب خدعة، والرجل يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما، والرجل يكذب للمرأة ليرضيها بذلك»[(٤)]. قال ابن مفلح في «الآداب الكبرى»: ويحرم الكذب لغير إصلاح وحرب وزوجة، وقال ابن الجوزي: وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح إن كان ذلك المقصود مباحًا وإن كان واجبًا فهو واجب... قال ابن مفلح: فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل، وعند أبي الخطاب يحرم أيضًا لكن يسلك أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وقال ابن عقيل: هو حسن حيث جاز لا إثم فيه وهو قول أكثر العلماء.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٥) في «الزهد»، وأبي داود (٤٩٩٠) في «الأدب».
(٢) رواه مسلم (١٠٧) في «الإيمان»، وأحمد (٩٨٦٧).
(٣) رواه مسلم في كتاب «المقدمة».
(٤) رواه الترمذي (١٩٣٩) في «البر والصلة»، وأحمد (٢٧٠٥٠).

وقال ابن القيم في (الهدى): يجوز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضره لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب لاسيما تكميل الفرح وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب وكان الكذب سببًا في حصول المصلحة الراجحة، قال: ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعمال الحق، كما أوهم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى يتوصل بذلك إلى معرفة عين أمه. اهـ.

والحاصل أن الكذب مذموم وفاعله من الخير محروم، وإنما يباح لما ذكرنا.

وقد اختلف العلماء هل الكذب في هذه المواضع المراد به التورية أو مطلقًا، فلو كان التعريض والتورية تتحقق به المصلحة وتندفع به المضرة فلا بأس، وإلا فظاهر النص إباحة الكذب في المواطن المذكورة.

فقد روى الشيخان عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين، أو قال بين الناس فيقول خيراً أو ينمي خيراً»[(١)] زاد مسلم قالت رضي الله عنها: **«ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذبًا إلا في ثلاث: يعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها»**[(٢)].

فالكذب في الحرب هو أن يظهر من نفسه قوة ويتحدث بما يقوي أصحابه ويكيد به عدوه لقوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٥).

«الحرب خدعة»: وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، والكذب للزوجة هو أن يعدها ويمنيها ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه ليستديم بذلك صحبتها ويصلح به خُلقها، قال البغوي: وقد روى أن رجلاً في عهد عمر قال لزوجته: نشدتك بالله هل تحبيني فقالت: أما إذا نشدتني بالله، فلا، فخرج الرجل حتى أتى عمر رضي الله عنه، فأرسل إليها فقال: أنت التي تقولين لزوجك: لا أحبك، فقالت: يا أمير المؤمنين نشدني بالله أفأكذبه، قال: نعم، فاكذبيه، ليس كل البيوت تبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان.

والكذب بين اثنين أو قبيلتين أو أكثر هو أن ينقل إلى أحدهما عن صاحبه خيراً ويبلغه جميلاً، وإن لم يكن سمعه منه يريد بذلك الإصلاح، أو كان سمع منه كلامًا قبيحًا فبدله بخير منه، إذا لو علم بذلك لزادت الخصومة بينهما ونشأت العداوة، وجوّز بعض العلماء الكذب بين كافرين للصلح بينهما كما هو ظاهر الأخبار، وذكر ابن حزم في كتاب «الإجماع»: أن العلماء اتفقوا على تحريم الكذب في غير الحرب وغير مداراة الرجل امرأته أو اصلاح بين اثنين أو دفع مظلمة، مراده بين اثنين مسلمين أو مسلم وكافر. اهـ.

ويقاس على النص ما في معناه، ككذبه لستر مال غيره عن ظالم، وإنكاره المعصية للستر عليه أو على غيره ما لم يجاهر الغير بها، بل يلزمه الستر على نفسه وإلا كان مجاهراً اللهم إلا أن يريد إقامة الحد نفسه كقصة ماعز، ومع ذلك فالستر أولى ويتوب بينه وبين الله تعالى، وكل ذلك يرجع إلى دفع المضرات، قال النووي: فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، فلقى رجلاً، فقال: رأيت فلانًا، فإنه لا يخبره به ويجب عليه الكذب في مثل هذه الحالة، ولو احتاج للحلف في إنجاء معصوم من هلكة، لأن إنجاء المعصوم واجب كفعل سويد بن حنظلة.

★ **في المعاريض مندوحة من الكذب:**

التعريض هو أن يريد بلفظه خلاف ظاهره كقوله: هذا أخي، يقصد أي في الدين، وبالسقف ويعني به السماء، وبالفراش الأرض، وبالوتد الجبل، وباللباس الليل، وبالنساء الأقارب، وبالبارية السكين التي تبرى القلم، ولا بأس بتعلمها وتتبعها.

فقد روي عن عمران بن حصين: إن في المعاريض لمندوحة من الكذب، أي فسحة وسعة، يعني فيها ما يستغني به الرجل عن الاضطرار إلى الكذب.

وهذه الرواية ذكرها ابن قدامة في «المغني» محتجًا بها، وفي «الآداب الكبرى» هو ثابت عن إبراهيم النخعي.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: **«ما يسرني أن لي بما أعلم من المعاريض مثل أهلي ومالي»**، وقال النخعي: لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يردون به عن أنفسهم.

فالكذب يجوز حيث كان لمصلحة راجحة، فإن كان لا يتوصل إلى مقصود واجب إلا به وجب وحيث جاز فالأولى استعمال المعاريض.

★ **الصدق:**

على العبد أن يلازم الصدق ويتجنب الكذب، ولا يلجأ للتعريض والتورية إلا لمصلحة راجحة وبقدر الحاجة، وقد أطلق البعض على سوء استخدام التعريض اسم «النفاق الاجتماعي» وقد وردت النصوص والآثار، تحث على الصدق وتبشر الصادقين، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (سورة المائدة: ١١٩)، وقال سبحانه: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٥) فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضي الله عنه: **«عليك بالصدق وإن قتلك»**.

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: يا بني عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتلاً.

والمؤمن يُعرف بوقاره ولين كلامه وصدق حديثه، وقيل: لكل شيء حلية وحلية النطق الصدق، وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به قال ارسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعز له من الصدق، وكان يقال عن الصدق: فلان وقف لسانه على الصدق، ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي (أي النمام) وقيل: من لزم الصدق وعَود لسانه وفُق، ويقال: الصدق بالحر أحرى.

وقال عتبة بن أبي سفيان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى، وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب.

وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه، فزوجوه فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وتترك ما عدا ذلك فقال مه (كف) يا أخي: صدقت فأنكحك الصدق.

وخَطب الحجَّاجُ فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله،

فقال: إن أقر بالجنون، خليته فقيل له، فقال: معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجَّاج فعفا عنه لصدقه.

★ آثار وحكايات تنفر من الكذب:

قال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط، قال: لولا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وكان بفارس محتسب يُعرف بجراب الكذب وكان يقول: إن منُعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالني من نفعه.

وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدّق الصادق فيما يقوله.

وعن عبد الله بن السدي قال: قلت لابن المبارك: حدثنا حديثًا، قال: ارجعوا فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحدثتكم، ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث.

وقال مجاهد: يُكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليبكي فتقول له أمه: اسكت وأشترى لك كذا، ثم لاتفعل فتكتب كذبة.

وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقًا، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوبًا.

ولما نصب معاوية ﷺ ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر. فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله خيرًا عما تقول، ثم أمر له

بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهًا.

وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفُع الحرج عن الكذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه.

وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوي بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا: جاءنا يكذب، وقال يحيى بن خالد، رأينا شارب خمر نزع، ولصًا أقلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كاذبًا صار صادقًا.

ويكفي في التنفير من الكذب قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٠). وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (سورة الزمر: ٦٠).

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء:١٨). هي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة.

★ ملاحظة الأمارات والعلامات يتطلب فهمًا وذكاء:

استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (سورة يوسف:١٨) إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها،وأجمعوا على أن يعقوب ﷺ استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح وهي قوة التهمة ولا خلاف بالحكم بها، قاله ابن العربي.

وهذا الذي ذكره ابن العربي يحتاج عقلاً راجحًا وفطنة وذكاءً، فمن اتصف بذلك، أسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة كما نُقل في قصة سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث، وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء:٧٨-٧٩) فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، فإذا قُذف النور في قلب العبد اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على كثير من ذوي التجارب والاكتساب، ويُستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، مثل ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداد صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عاراً، ويورثه سوء السمعة.

قيل للبعض: بم يُعرف عقل الرجل فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، فمن حُرِمَ مداراة الناس فقد حُرِمَ التوفيق.

وقال عليٌّ بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعية فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل: لكل شئ غايةٌ وحدٌّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «**أهل مصر أعقل الناس صغاراً وأرحمهم كباراً**»، وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق، وقيل ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس، وقيل لعليٍّ رضي الله عنه: صف لنا العاقل، قال: «**الذي يضع الشيء مواضعه**»، قيل: فصف لنا الجاهل، قال: «**فقد فعلت**»، يعني: الذي لا يضع الشئ مواضعه.

وقال المنصـور لولده: خذ عني اثنتين: لا تقل من غيـر تفكير، ولا تعمل بغـير تدبير، وقـال عامـر بن عبـد قيس: إذا عقـلَك عقلُك عمـا لا يعنيك فأنـت عاقل، ويقال: لا شـرف إلا شرف العقـل، ولا غنى إلا غنى النفس، وقيل: يعـيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته.

وقال كسرى أنوشروان: أربعة تحـتاج إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة.

ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجـل الاغترار بحسن ملبـسه وملاحة سـمته، وتسريح لحيته.... فهذه أمور قد يشترك فيها العاقل والأحمق.

نسأل الله تعـالى بأسمائه الحـسنى وصفاته العلى أن يُمنَّ علينـا بالعقل الكامل عند حلول الشبهـات، وبالبصر النافذ عند حلول الشهوات، إنه سـبحانه ولي ذلك والقادر عليه. واللهم يا معلم إبراهيم الخير علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

★ *نفس أمارة بالسوء سولت لهم المعاصي:*

روي أن يعقوب عليه السلام لما قالوا له: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (سورة يوسف:١٧) قال لهم: لم يترك الذئب له عـضواً فتـأتوني به أستأنس به؟! ألم يتـرك لي ثوبًا أشم فيه رائحـته؟ قالوا: بلى هذا قمـيصه ملطوخ بدمه، فـذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (سورة يوسف:١٨) فبكى يعقـوب عند ذلك، وقال لبنيه: أروني قميـصه، فأروه فشمه وقبّله، ثم جعل يقلبه فـلا يرى فيه شقًا ولا تمزيقًا، وقال: والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليـوم ذئبـًا أحكم منه، أكل ابني وأختلسه من قميصـه ولم يمزقه عليه، وعلم أن الأمر ليس كـما قالوا، وأن الذئب لم يأكله فـأعرض عنهم كالمغضب باكـيًا حزينًا وقال: يا معشر ولدي، دلونـي على ولدي، فإن كان حيًا رددته إليَّ، وإن كان

ميتًا كفنته ودفنته، فقيل: قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضواً عضواً، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا، ويقطع يأسه، فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدواً ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم، قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبًا، قال: فاصطادوا ذئبًا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لانشك فيه، وهذا دمه عليه.

فقال يعقوب: أطلقوه، أطلقوه وتبصبصَ له الذئب، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له: ادن، ادن، حتى ألصق خده بخده، فقال له يعقوب: أيها الذئب، لم فجعتني بولدي وأورثتني حزنًا طويلاً؟ ثم قال: اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذي اصطفاك نبيًا ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادني أولادك وأوثقوني وإن لحوم الأنبياء حُرمَت علينَا وعلى جميع الوحوش، وتالله، لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش، فأطلقه يعقوب، وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (سورة يوسف:١٨) أي زينت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء غير ما تصفون وتذكرون، ثم قال توطئة لنفسه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (سورة يوسف:١٨).

★ صبر جميل:

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة، أو هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، قال البعض عن الصبر: تجرع المرارة من غير تعبس، والإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

وقد مدح الله عزَّ وجلَّ في كتابه الصابرين وأخبر أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر: ١٠)، وبين سبحانه أنه معهم بهدايته ونصره وتوفيقه فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٤٦) وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: ٢٤).

وأخبر الله تعالى أن الصبر خير لأهله مؤكدًا باليمين فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (سورة النحل: ١٢٦) وذكر أنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠). وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠).

وأخبر عن محبته لأهله فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٦).

وبشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة ا رة: ١٥٥-١٥٧) وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فق وجلَّ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١١١).

وخص في الانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة الشورى: ٣٣).

وساحة العافية أوسع للعبد ما لم تنزل به المصيبة، فإذا نزلت به المصيبة كانت ساحة الصبر له أوسع، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «وما أعطى أحد عطاء أوسع من الصبر»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) في الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) في الزكاة، وأبي داود (١٦٤٤) في الزكاة، واللفظ له النسائي (٢٥٨٨) الزكاة، وموطأ مالك (١٨٨٠) في الجامع، والدارمي (١٦٤٦) في الزكاة.

والصبر يدل على شجاعة النفس، ولذلك قال البعض: الشجاعة صبر ساعة، وبه تمتنع النفس من لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعاء الجاهلية.

والصابر يتجمل ولا يظهر الجزع، فالصبر والجزع ضدان ولذلك قال سبحانه عن أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (سورة إبراهيم:٢١). لهذا كله، قال نبي الله يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (سورة يوسف:١٨). أي فشأني والذي أعتقده صبر جميل، وقال قطرب: أي فصبري صبرُ جميل، أو فصبر جميل أولى بي، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى، وقيل: المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم.

وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ قال طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه أتشكوني يا يعقوب؟! قال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي.

وورد عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنها قالت والله لئن حلفت لاتصدقوني وإن اعتذرت، لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (سورة يوسف:١٨) . فأنزل الله عزَّ وجلَّ في عذرها ما أنزل.

والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، فدواعي إظهار الجزع كثيرة وقوية، والدواعي الإيمانية تدفعه إلى الصبر والرضا، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

★ *اتهام الرأي:*

قال ابن أبي رفاعة: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عليه السلام وهو نبي، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ

الذِّئْبُ ﴾ (سورة يوسف:١٧). قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (سورة يوسف:١٨) فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (سورة يوسف:٨١). قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ فلم يصب. اهـ.

لا عصمة لأحد إلا للأنبياء فيما يبلغونه عن الله، وكل ابن آدم خطاء.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: **«إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم»**.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: **« القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا لركن ركين، افٍ لحامل حق لا بصيرة له، ينقدح في قلبه بأول عارض من شبهة، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن فُتن به»**.

وكان الشافعي ـ رحمه الله يقول ـ: معي صواب يحتمل الخطأ، ومع خصمي خطأ يحتمل الصواب، وقال: ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يجري الخير على لسانه.

ومن قال في القرآن رأيه فقد أخطأ، لأنه لو أصاب الحكم مرة فسيخطئه مرات، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ ما منا إلا ورُدَّ عليه.

فلا يجوز إنزال أقوال الرجال منزلة قول المعصوم صلى الله عليه وسلم والحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر، كما ورد في الخبر، فالعالم المجتهد قد يخطئ في حكمه، ويكون معذوراً ومأجوراً لبذله وسعه في استنباط الحكم الشرعي.

فاتقوا الحديث إلا ما عَلِمتم، فإنه من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب على القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.

والواجب على الإنسان أن يتهم رأيه، فهو ليس وحيًا مُنزَّلا، وأن يُحسن الظن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلا إذا اقتضت الدلائل والقرائن خلاف ذلك.

★ لماذا لم يبحث يعقوب عن يوسف عليهما السلام؟!:

عرف يعقوب كذب أولاده حين قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾. فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وذلك لأنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم ليوسف وقد سبق أن قال ليوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ (سورة يوسف:٦) بالإضافة لاختلاف أقوالهم، وإتيانهم بقميص لم يتخرق، ولو أكله الذئب لخرق قميصه.

ولم يملك يعقوب عليه السلام إلا أن يصبر صبرًا جميلاً، إذ الصبر واجب حتم على المسلم،

وقد استشكل البعض صبر يعقوب على ظلم الظالمين ومكر الماكرين، ولِمَ لم يبالغ في التفتيش والبحث سعيًا منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه؟ وقد يقال للرد على هذا الاستشكال.

إن الله تعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه، وتغليظًا للأمر عليه، ولعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والبحث وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله، وأيضًا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضى بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد؛ لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم، وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه، فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية. (ذكره الرازي).

وإذا كانوا قد شهدوا غبنًا، فلا ننسى أن كلمة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قولة نبي من الأنبياء وقد ذُكرت في موضع الثناء من الله تعالى، وجاءت في مواجهة ابتلاء شديد لا حيلة لنبي الله يعقوب عليه السلام في دفعه بالأسباب المادية.

وهو يعرف أن مُنزل ذلك البلاء هو الله تعالى، وهو سبحانه مالك الملك، ولا اعتراض على الملك في أن يتصرف في ملكه، ثم هو سبحانه العليم الحكيم البر الرحيم فكان لابد من التسليم لقضاء الله وعدم التسخط والشكاية، وهذا هو المقام المحمود الذي وقفه نبي الله يعقوب، فلا يذُم على صبره في هذا الموضع، ولا يُنسب للتقصير عليه السلام في تعاطي ما أمر الله به من الأخذ بالأسباب.

★ *وجوب بر الوالدين وإن كانا مشركين:*

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة النساء: ٣٦) وقال سبحانه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (سورة الإسراء: ٢٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما» رواه عبد الرزاق والبخاري في (الأدب المفرد)، والحاكم في (المستدرك) وقال: صحيح الإسناد.

قال النووي في (شرح مسلم): أجمع العلماء على الأمر ببر الوالدين وأن عقوقهما حرام من الكبائر. اهـ.

وقد أوجب سبحانه برهما وإن كانا مشركين، قال تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (سورة لقمان: ١٤-١٥).

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: **إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي، قال:** «نعم صلي أمك»[1]، قال ابن عيينه فأنزل الله فيها: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ

(١) رواه البخاري (٢٦٢٠) في «الهبة»، ومسلم (١٠٠٣) في «الزكاة»، وأبي داود (١٦٦٨) في «الزكاة»، وأحمد (٢٦٣٩٩).

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة:٨).

قال الخطابي: فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلمًا. اهـ.

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طاعة الله طاعة الوالد، ومعصية الله معصية الوالد» وكذلك الأمر بالنسبة للوالدة.

وقد اتفق العلماء على وجوب طاعة الوالدين فيما لم يكن متفقًا على تحريمه للحديث: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: «أطع أباك وطلق امرأتك»[2]، ويشترط في الأب الذي تجب طاعته في مثل هذا أن يكون عدلاً كما ورد عن الإمام أحمد، ولا يمين لولد مع والد، والولد وما كسب لوالده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»[3].

وقال الحافظ في (الفتح): قال جمهور العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو إحداهما منه بشرط أن يكونا مسلمين لأن برهما فرض عين عليه والجهاد فرض كفاية فإذا تعين الجهاد فلا إذن، وكذلك الأمر بالنسة للسفر إلا أن يتعين السفر لِتَعَلُّم فرض

---

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧) في «أخبار الآحاد»، ومسلم (١٨٤٠) في «الإمارة»، والنسائي (٤٢٠٥) في «البيعة»، وأبي داود (٢٦٢٥) في «الجهاد»، وأحمد (٧٢٦).

(٢) رواه أحمد (٤٦٩٧) والترمذي (١١٨٩) في «الطلاق واللعان»، وأبي داود (٥١٣٨) في «الأدب»، وابن ماجه (٢٠٨٨) في «الطلاق».

(٣) رواه مسلم (١٥١٠) في «العتق»، والترمذي (١٩٠٦) في «البر والصلة»، وابن ماجه (٣٦٥٩) في «الأدب»، وأحمد (٧١٠٣) وأبي داود (٥١٣٧) في «الأدب».

عين فلا مانع، والأم لها ثلاثة أرباع ما للأب من البر، ويتقدم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.

سئل مجاهد عن الرجل يدعوه أبوه أو أمه في الصلاة قال: يجيبهما، وعن مالك إذا منعته أمه من شهود العشاء في جماعة لم يطعها وإن منعته من الجهاد أطاعها، وعن الحسن في الرجل تقول له أمه: أفطر قال: يفطر وليس عليه قضاء وله أجر الصوم، وإذا قالت أمه: لا تخرج إلى الصلاة، فليس لها في هذا طاعة لأن هذا فرض. اهـ.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلي الله؟، قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»**[(١)].

فبر الوالدين آكد من الجهاد كما قال النووي، وقال ابن عباس: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة، وعن الإمام أحمد قال: بر الوالدين كفارة للكبائر، قال البيضاوي: إن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوصل به إلى وصول درجتها العالية مطاوعة الوالد ومراعاة جانبه. اهـ.

وقد وردت الأحاديث تدل على استجابة دعاء من بر والديه، وأن رضى الله في رضى الوالدين، وأن البر يحول الشقاوة سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»**[(٢)] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سره أن يُمد له في عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه»**[(٣)].

وسئل سفيان: كم يدعو الإنسان لوالديه: في اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة، فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في آخر التشهدات.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧) في «مواقيت الصلاة»، ومسلم (٨٥) في «الإيمان»، والترمذي (١٧٣) في «الصلاة»، والنسائي (٦١٠) في «المواقيت»، وأحمد (٣٩٨٨).

(٢) رواه الترمذي (٢١٣٩) في «القدر».

(٣) رواه أحمد (١٢٩٨٨).

وقال بعض التابعين: من دعا لوالديه خمس مرات فقد أدى حقهما في الدعاء لأن الله تعالى قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سورة لقمان: ١٤) فشكر الله تعالى أن يصلي في كل يوم خمس مرات، وكذلك شكر الوالدين أن يدعو لهما في كل يوم خمس مرات. وليس من الإحسان إلى الوالدين ولا من المصاحبة بالمعروف أن يموتا جوعًا والولد موسر، فيجب على الابن أن ينفق على والديه، وقد قال جمهور العلماء: يأخذا من ابنهما قدر الحاجة، وقال الإمام أحمد: يأخذا الحاجة وغير الحاجة.

وعلى الابن أن يسعى في تأدية الدين عن والديه، وأن يخشع لهما عند الغضب، ولا يرفع يده عليهما إذا كلمهما، ولا يسمي والديه باسمهما، ولا يمشي قدامهما ولا يقعد قبلهما ولا يستتسب لهما، ويستأذن عليهما قبل دخوله، ولا يوقظهما إذا كانا نائمين، ويقوم لهما، كما لابد من لين الجانب للوالدين لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (سورة الإسراء: ٢٤) قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ.

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة، فقال: **يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شئ أبرهما به بعد موتهما؟، قال: «نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»** [١].

فمن مات وعليه صيام صام عنه وليه، وفي الحديث: «حج عن أبيك واعتمر» [٢] والصدقة والدعاء كلاهما يصل للميت باتفاق العلماء، ومن جملة الأشياء التي ينقلب بها العاق إلى بار بعد موت الوالدين، إنفاذ وصيتهما التي لا تشتمل على محرم، وصلة صديقهما وزيارة قبرهما وسداد ديونهما والاستغفار لهما والترحم عليهما،

---

(١) رواه أبي داود (٥١٤٢) في «الأدب»، وابن ماجه (٣٦٦٤) في «الأدب».

(٢) رواه الترمذي (٩٣٠) في «الحج»، والنسائي (٢٦٢١) في «مناسك الحج»، وابن ماجه (٣٩٠٦) في «المناسك»، وأحمد (١٥٧٥١).

والاجتهاد في طاعة الله بصفة عامة لقوله تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (سورة يس: ١٢)، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٣٩). وابن الإنسان من سعيه وكسبه وهو من جملة آثاره، وعمله الصالح يعود لوالديه دون أن ينقص من أجره شيء.

★ ما بعد البر إلا العقوق:

العقوق كبيرة من الكبائر فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات...»[1]، والتحريم لا يختص بالأمهات كما بين العلماء.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (سورة الإسراء: ٢٣).

قال الألوسي: معناه لا تتضجر مما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنهما، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسًا جليًا لأنه يفهم بطريق الأولى، وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ قال: فيما تميط عنهما من الأذى، الخلاء والبول، كما كانا لا يقولانه فيما يميطان عنك من الخلاء والبول، وقال السدي: لا تقل لهما أف فما سواه.

وقال الحافظ في (الفتح) في معنى العقوق: والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد. اهـ.

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، ثلاثًا، قلنا بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨) في الاستقراض، ومسلم (٥٩٣) في الأقضية.

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٦) في الأدب، ومسلم (٨٧) في الإيمان، وأحمد (١٩٨٧) في الترمذي (٢٣٠١) في الشهادات.

والعاق لوالديه من الثلاثة الذين لا يُنظَر إليهم يوم القيامة وقد وردت النصوص بلعنه وقيل: في معنى أصحاب الأعراف الذين يوقف بهم بين الجنة والنار، أنهم قوم منعهم من النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصية آبائهم، والعاق ممن لا يقبل الله عزَّ وجلَّ منهم صرفًا ولا عدلاً.

وفي رواية عند البخاري في (التاريخ) والطبراني في (الكبير): «**اثنان يعجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين**».

وعن ابن عباس قال: «**ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محسنًا إلا فتح الله له بابين** - يعني من الجنة - **وإن كان واحداً فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه**»، **قيل: وإن ظلماه، قال:** «**وإن ظلماه وإن ظلماه**» رواه البخاري في (الأدب المفرد).

ومن العقوق أن يحزن والديه، وأن يتسبب في بكائهما، وكان ابن عمر يقول بكاء الوالدين من العقوق والكبائر.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، **قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال:** «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه**»[1].

ومن العقوق أن يحد النظر إلى الوالدين، وأن يتبرأ منهما أو يرغب عنهما، أو يتكبر عليهما، وأشد إثمًا من ضرب والديه أو قتلهما أو أحدهما، بل ورد عن ابن عمر أنه مر بأعرابي في سفر وكان أبو الأعرابي صديقًا لعمر رضي الله عنه فقال للأعرابي: ألست ابن فلان، قال: فأمر له ابن عمر بحمار كان يستعقب، ونزع عمامته عن رأسه فأعطاه، فقال بعض من معه أما يكفيك درهمان، فقال: قال النبي ﷺ: «**احفظ ود**

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٣) في «الأدب»، ومسلم (٩٠) في «الإيمان»، والترمذي (١٩٠٢) في «البر والصلة»، وأبي داود (٥١٤١) في «الأدب» وأحمد (٦٨٠١).

أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك». (رواه البخاري في (الأدب المفرد) والطبراني في (الأوسط) والبيهقي في (الشعب) وقال العراقي والهيثمي: إسناده جيد حسن)

★ صور من البر:

رأى ابن عمر رجلاً يمانيًا يطوف بالبيت وقد حمل أمه وراء ظهره، وهو يقول:

إنّي لها بعيرها المذلل ★ إن أذعرت ركابُها لم أذعر

ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة، أي حملة واحدة.

ورأى عليّ بن أبي طالب رجلاً يطوف بأمه بالكعبة وهو ينشد:

أنا مطيتها لا انفر ★ وإذا الركاب ذعرت لا أذعر

وما حملتني وأرضعتني أكثر

لبيك اللهم لبيك، فقال عليّ لعمر: «**هيا بنا يا أبا حفص ندخل في الطواف؛ لعل الرحمة تنزل فتعمنا والرجل يحمل أمه ويردد قوله**»، وعليٌّ خلفه يقول:

إن تبرها فالله أشكر ★ يجزيك بالقليل الأكثر

لبيك اللهم لبيك

ولما غلا النخل اشترى أسامة بن زيد نخلة بألف درهم ثم قطعها وأطعم أمه جمارها، فعُوتب في ذلك فقال: «**سألتنيه، ولا تسألني شيئًا اقدر عليه إلا أطعمتها إياه**».

وقال المأمون: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخِن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه، قام الفضل إلى قمقم من نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده إلى الصباح، حتى استيقظ يحيى من منامه.

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه، فما زال الولد واقفًا والشربة في يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه.

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي أمًّا بلغ منها الكبر، أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: **«لا، لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها»**.

وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبي وبات أخي يصلي ولا يسرني ليلته بليلتي. وقال عمر بن عبد العزيز لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة، وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحبن عاقًا فإنه يقبلك وقد عق والديه.

وعن عليٍّ رضي الله عنه **«لو علم الله شيئًا من العقوق أدنى من أفٍ لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار»**.

وقيل لعليٍّ بن الحسين رضي الله عنه: إنك من أبر الناس، ولا تأكل مع أمك في صحفة فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها.

وكان ابن سيرين إذا تكلم مع أمه فكأنما أسير بين يدي أمير يريد أن يقتص منه، فلما سئلت أخته، قالت: هكذا يكون إذا كان مع أمه.

ومن أعظم صور البر ما قصه النبي صلى الله عليه وسلم من قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فأطبقت عليهم الصخرة، فدعا كل منهم ربه وتوسل إليه بعمل صالح ظن فيه الإخلاص وكان الأول بارًا بوالديه فقال: **«اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنئا بي طلب شجر يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئًا ...»، ثم توسل الثاني بعفته عن المرأة بعد أن تمكن منها والثالث بتثميره مال الأجير وأمانته، فانفرجت الصخرة وخرجوا جميعًا يمشون**[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢) في «الإجارة»، ومسلم (٢٧٤٣) في «الذكر والدعاء».

★ **دع الأمور تجري في أعنتها، فعجائب التدبير تحار فيها العقول:**

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (سورة الأحزاب:٣٨). وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ (سورة الأنفال:٤٢) لقد أُمرت أم موسى أن تضعه في التابوت وتقذفه في البحر، وقيل لها: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة القصص:٧) ومن عجائب التدبير، أن يصل التابوت إلى قصر فرعون، فلم يغرق ولم يضل السبيل إلى مكان آخر: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (سورة القصص:٨) ومن قبل ألقي نبي الله يوسف عليه السلام في الجب، فلم يغرق ولم تلدغه حية، ولم يمت عطشًا أو جوعًا، إذ لابد أن يكون له شأن، ولابد أن يصل إلى قصر عزيز مصر، ودون ذلك أحداث قصها سبحانه على خلقه في كتابه فقال: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة يوسف:١٩) يقول تعالى مخبرًا عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيدًا فريدًا فمكث في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وكيف أنه سبحانه سَهَّل السبيل في خلاصه من تلك المحنة.

قال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يُصنع به فساق الله له سيارة فنزلوا قريبًا من تلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ ﴾ ، قال ابن عباس: جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن للرعاة، وقيل: كان ماؤه مَالحًا فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء وهو الوارد الذي يرد الماء ليسقي القوم، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون الغلمان.

قال عليه السلام في حديث الإسراء من صحيح مسلم: «فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْر الحسن»(١)، وقيل: أنه ورث الجمال من جدته سارة، فلما رآه مالك قال: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ وهذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة، إلا ابن أبي أسحق فإنه قرأ «يا بشريَّ هذا غلام» وقرأ أهل الكوفة ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ وفي معناه قولان:

أحدهما ـ اسم الغلام.

والثاني ـ يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك.

قال قتادة: بشر أصحابه بأنه وجد عبدًا، وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشرى.

قال النحاس: قول قتادة أولى ورجحه ابن كثير، فتعود القراءة إلى معنى التبشير، ولأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرًا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ (سورة الفرقان:٢٧)، وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (سورة الفرقان:٢٨)، وهو أمية بن خلف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير، هذا قول.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ يباع فباعه إخوته، قيل: إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لإخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك، فلعل الله أن يجعل لك مخرجًا، وتنجوا من القتل، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته.

---

(١) رواه مسلم (١٦٢) في «الإيمان»، وأحمد (١٢٠٩٦).

فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد! قالوا: هو تربى في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدب بآدابنا، فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم، فقال مالك: إن بعتموه مني اشتريته منكم، فباعوه منه.

وقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة يوسف:١٩) أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقد سابق فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٤).

وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك وأنا قادر لك على الإنكار عليهم ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

★ *بين البشارة والتهنئة:*

استبشر مالك لما رأى يوسف عليه السلام وبشر أصحابه أنه وجد عبداً، وكان سبب البشارة أنه وجد غلامًا في غاية الحسن، ولعلهم يبيعونه بثمن عظيم ويصير ذلك سببًا لحصول الغنى. وقد وردت البشارة في نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (سورة الزمر:١٧). وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ٢١).

وقال سبحانه: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصلت: ٣٠).

وكان النبي ﷺ يبشر أمته بشهر رمضان فيقول: **«أتاكم رمضان شهر مبارك فُرض عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغل مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حُرم خيرها فقد حُرم»**[(١)].

---

(١) رواه النسائي (٢١٠٦) في الصيام، وأحمد (٨٧٦٥, ٩٢١٣) واللفظ للنسائي.

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه : **«أن رسول الله ﷺ بشّر خديجة رضى الله عنها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»**[١] .

وقد بشر النبي ﷺ جمعًا من صحابته بالجنة كأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ . . . وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وقد وجُدت البشارات به ﷺ في الكتب المتقدمة، وهي أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧).

وقد بُعث رسول الله ﷺ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

فينبغي التبشير والتهنئة بالخير استنانًا بسنة رسول الله ﷺ ، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «تحفة المودود بأحكام المولود»: إنه لما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

ولما ولد النبي ﷺ بشَّرت به ثويبةُ عمه أبا لهب وكان مولاها، وقالت: قد ولُد الليلة لعبد الله ابنٌ فأعتقها أبو لهب سرورًا فلم يضيع الله ذلك له وسقاه بعد موته في النقرة التي في أصل إبهامه.

فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، والفرق بينها أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به. ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنئوه، وكانت

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٢) في الحج، ومسلم (٢٤٣٣) في «فضائل الصحابة»، والترمذي (٣٨٧٦) في «المناقب».

الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين، والرفاء: الالتحام والاتفاق، فيهنئون بالبنين سلفًا وتعجيلاً، ولا ينبغي للرجل أن يهنئ بالابن، ولا يهنئ بالبنت بل يهنئ بهما أو يترك التهنئة ليتخلص من سنة الجاهلية، فإن كثيراً منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها. . . . وإذا ما بُشِّر الإنسان بحصول خير أو اندفاع شر فعليه أن يهب من بشره شيئًا، فإن كعب بن مالك لما بُشر، نزع ثوبيه فكساهما مَن بشَّره، واستعار ثوبين فَلبسهما كما ورد في صحيح البخاري.

★ لا يجوز بيع الحر:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا، فقالوا لهم: فبيعوه منا، فباعوه منهم، فأخفوا كونه أخًا لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا، وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية.

واعلم أنه لا يجوز بيع الحر، ولا أكل ثمنه، ولا يحل لعالم بذلك أن يُقدم على شرائه، ولذلك قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ (سورة يوسف: ٢٠) يريد حرامًا لأن ثمن الحر حرام، قال: كل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام.

ولما كان ذلك معلومًا عند إخوة يوسف، وأرادوا التخلص منه، احتالوا وادعوا أنه عبد أبق منهم، وأقر هو بالرق على نفسه لأنهم توعدوه بالقتل، أي كان مستكرها ولذلك اشتراه السيارة على قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وإلا فمن ادعى رق اللقيط يلزمه البينة كما ذكر ابن قدامة في «المغني» وقد وُجد الإقرار من يوسف، فبيع بيع الرقيق وقد يقول قائل: كيف يبيح الإسلام نظام الرق.

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن الكفار لما تمردوا على ربهم وطغوا وعتوا وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذه أكبر جريمة يتصورها الإنسان، فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير جل وعلا عقوبة شديدة تناسب جريمتهم، فسلبهم التصرف ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلبًا كليًا، فأوجب على مالكهم الرفق والإحسان إليهم وأن يطعموهم مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل مالا يطيقون، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيصاء بهم في القرآن.

ولو فرضنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر مسألة الرقيق وتشنع في ذلك على دين الإسلام قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان ودبر عليها انقلابًا يريد إسقاطها، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة، ولاشك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه، فهو أشد سلبًا لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل. والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه ليسير عليه خلقه، فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم في سبيل الله، جعلهم ملكًا لهم بالسبي، إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء لما في ذلك من المصلحة على المسلمين.

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلمًا فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال؟

فالجواب أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء: أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع وهو الحكيم الخبير، فإذا استقر هذا الحق وثبت ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقًا بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه كما هو معلوم عند العقلاء، نعم يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه وفتح له الأبواب الكثيرة فسبحان الحكيم الخبير ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (سورة الأنعام: ١١٥).

★ صحة بيع الشئ العظيم ذي القيمة الكثيرة بشيء تافه لا يكفي ثمنًا في العادة للعين المباعة:

يقول صاحب كتاب (الشرائع السابقة): وذلك في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾ (سورة يوسف: ١٩-٢٠) وذلك أنهم لم يستقصوا الثمن المناسب ليوسف عليه السلام كما يدل عليه قوله: ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**﴾ وقوله: ﴿**وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾ وهم على أحد القولين، إخوة يوسف، وسبب زهدهم فيه ورخصه عندهم أنه لم يكن مقصودهم منه الثمن، وإنما قصدهم الأول هو إبعاده عن وجه أبيهم ليخلوا لهم ويحظوا بمحبته، قيل: إن إخوته لما رأوا وارد السيارة أخرجوه من الجب، وقالوا لهم: هذا عبدنا أبق فباعوه عليهم بثمن بخس.

وعلى القول الثاني ـ وهو أقرب لظاهر الآيات أن الذين باعوه بثمن بخس هم وارد السيارة، وإنما باعوه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين، لأنهم رأوه مكسبًا كله حيث لم يتعبوا فيه ولم يخسروا فيه..

قال القرطبي في (تفسيره): «وفي هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء بالثمن اليسير، ويكون البيع لازمًا ولهذا قال مالك: لو باع درة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال: لم أعلم أنها درة وحسبتها مخشلبة (خرز أبيض يشبه اللؤلؤ) لزمه البيع، ولم يلتفت إلى قوله». اهـ.

قلت: وهذا صحيح إذا كان البائع عالمًا بقدر المبيع وقيمته ورضى بالبيع بأقل من ثمن المثل، فالعقد صحيح وليس له الرجوع، ولا أعلم فيه خلافًا، فيكون موافقًا لشرع من قبلنا الوارد به شرعنًا في قصة يوسف، أما إذا كان جاهلاً بثمن العين وقدرها وباعها بأقل من ثمنها كثيرًا جاهلاً، فيأتي في ذلك خيار الغبن المعروف في الشريعة الإسلامية.

ويدل عليه الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: **ذكر رجل لرسول الله ﷺ أنهُ يخدع في البيوع، فقال: «من بايعت فقل: لا خلابة»**[1]، أي لا خديعة.

قال صاحب (نيل الأوطار): «والمراد أنه إذا ظهر غبن رد الثمن واسترد البيع، واختلف العلماء في هذا الشرط، هل كان خاصًا بهذا الرجل أم يدخل فيه جميع من شرط هذا الشرط؟ فعند أحمد ومالك في رواية عنه والمنصور بالله والإمام يحيى أنه يثبت الرد لكل من شرط هذا الشرط ويثبتون الرد بالغبن لمن لا يعرف قيمة السلع.

وقيده بعضهم بكون الغبن فاحشًا وهو ثلث القيمة عنده، قالوا بجامع الخدع الذي لأجله أثبت النبي ﷺ لذلك الرجل الخيار، وهذا ليس في شرع من قبلنا الوارد به شرعنًا ما يدل عليه فيما أعلم.

وكذلك ما جاء من النهي عن تلقي الركبان أيضًا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلقوا الركبان» (متفق عليه)، أي لا يتلقى شخص طائفة

---

(١) رواه البخاري (٢١١٧) في «البيوع»، ومسلم (١٥٣٣) في «البيوع»، والنسائي (٤٤٨٤) في «البيوع»، وأبي داود (٣٥٠٠) في «البيوع»، وأحمد (٥٤٩١).

يحملون متاعًا فيشتريه لما في ذلك من الغرر في البيع في حق الركبان بنقص السعر مع عدم علمهم بالسوق، فالبيع حينئذ فاسد عند كثير من العلماء، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: وهو عند الشافعي صحيح وإن كان آثمًا، وعند غيره من العلماء يبطل ومستنده أن النهى للفساد، ومستند الشافعي أن النهي لا يرجع إلى نفي العقد، ولا يُخل هذا الفعل بشيء من أركانه وشرائطه إنما هو من أجل الإضرار بالركبان وذلك لا يقدح في نفس البيع». اهـ.

★ *إن لم يكن عليَّ غضب فلا أبالي:*

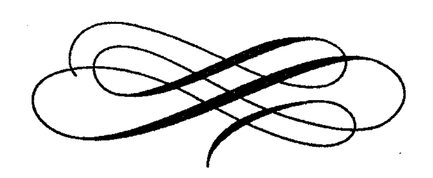
لا تبالي إن عُذِّبتَ وشُرِّدتَ، وباعوك في سوق النخاسة بيع الرقيق، ولا تنصرف عن أمر الله، إن هان أمرك على أهل الأرض فسبوا عرضك وشتموا آباءك ولا تجزع إن جفاك وقلاك أقرب الناس إليك، واستحضر مشهد رسول الله ﷺ يوم توجه بالدعوة إلى الطائف فناله ما ناله من الأذى حتى اجتمع حوله الصبية والعبيد يقذفونه بالأذى ويرمونه بالحجارة وهو يرفع يده اليمنى يدعو بها ربه ويده اليسرى يصد بها الأذى، اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح به أمر الدنيا والآخرة، لك العتبى حتى ترضى ولك العتبى إذا رضيت ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومما نُسب إلى رابعة:

فليتك تحلو والحياة مريرة ★ وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ★ وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ★ وكل الذي فوق التراب تراب

لقد أوذي رسول الله ﷺ في الله وما أوذي أحد، حوصر في شعب أبي طالب، ووضعوا على ظهره الشريف سلا الجزور، وخنقه أشقى القوم بطرف ردائه، وكسرت رباعيته وجُرح وجهه الشريف، بلا جريرة ارتكبها، كما أوذي أصحابه الكرام وهذا إيذاء له ﷺ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة البروج:٨)، وحدث ما أخبر به ورقة بن نوفل: **«وما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»**.

وذلك عندما ذهب النبي ﷺ هو والسيدة خديجة رضي الله عنها إليه، عند نزول الوحي عليه ﷺ، وأنت قد تُحسن لمن أساء إليك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتحرص على إيصال الحق للخلق، ودلالة العباد على طريق الله الموصل إلى رضوانه سبحانه والجنة، فيواجهك البعض بالكيد والمكر والأذى، فلا تنتظر توقيراً وتبجيلاً، وحسبك أن يكون الله راضيًا عنك وأن تكون من الأتقياء الأصفياء الذين يخفى أمرهم على أهل الأرض ويُعرفون في أهل السماء، فإن لم يكن به عليك غضب فلا تبالي، واعلم أن رضا الناس غاية لا تُدرك، وأحسن التأسي بالأنبياء والمرسلين: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠) قال تعالى عن نبيه يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٠).



الفهرس

الموضوع | صفحة

قصة نوح عليه السلام

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

قصة لوط عليه السلام

الموضوع | صفحة

الموضوع | صفحة

قصة سليمان عليه السلام

الموضــوع | صفحة

الموضـــوع | صفحة

قصة ذي النون عليه السلام

الموضـــوع صفحة

قصة يوسف عليه السلام

الموضــوع	صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

